

بين شجون الوطن وعطر الأحباب

رجائي عطيه

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م



دار الكتب المصرية

مركز المكتبة والقانون الوثائقي

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

عطية، رجائي.

بين شجون الوطن وعطر الأحباب / رجائي عطية . القاهرة

: المكتب المصري الحديث، ٢٠٠٨ ٣٢٠ ص، ٢١ سم

تدمك X ١٧٨ ٢٠٩ ٩٧٧

١- المقالات العربية

أ- العنوان

٨١٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٩٤٨٢

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدمًا

المكتبة المصرية الحديث

www. almaktabalmasry. com

ت: ٢٣٩٣٤١٢٧

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء

ت: ٤٨٤٦٦٠٢

الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية

تقديم

بين شجون الوطن، وعطر الأحباب، تدور هذه السطور، مشغولة
بهموم الوطن وقضاياها، معنية بلمحات من سير عظام أعطوا حياتهم له.
هى إن شئت من الوطن وإليه، تتواصل بنحو أو بآخر مع كتابات سابقة
كان آخرها وجوب " الهجرة إلى الوطن " .. .

ستظل الهجرة إلى الوطن هاتفاً ينادى المخلصين بالعودة إلى النبع.

رجائى عطيه

الإذاعة، وبناء العقل والثقافة والخيال (٥)

تتعدد فى زماننا وسائل التتوير والتتقيف وزراعة وتخصيب الملكات، وبانت الصعوبة لا فى وجود هذه القنوات، وإنما فى متابعتها وسط تعددها تعددًا غامرًا يحير المتلقين، ومنافسات متنوعة قد لا يحدها عرف ولا قانون ولا أخلاق، بلغ بعضها حد إثارة الغرائز والشهوات، ودغدغة المشاعر بما يرضى لا بما يفيد، والإسفاف الذى قد تعلو لغته وسط الهدير.. هنالك وسط هذا الخضم، تبدو الإذاعة المسموعة ينبوعًا رائقًا مصفىً، معقول التكاليف، مجانى الاستقبال والتلقى، يتاح سماعها فى كل وقت ومكان، وفى جميع الأحوال، لا يفصل المتلقين عنها مسافات، ولا كهوف أو منحنيات أو منخفضات، ولا صحارى أو حقول، ولا ورش أو مصانع، ولا وسائل المواصلات ما بين الطائرة والقطار أو الدراجات والمطايا.. تؤدى الإذاعة المسموعة - رغم المزاحمة الشديدة - دورا بالغ الأهمية، بل بالغ التفرد والخصوصية فى تتوير العقل وبناء الثقافة وتخصيب المخيلة والخيال.

قدرة الراديو أو المذياع على الانتشار أوسع، ثم هو لا يتطلب لتلقيه حالة خاصة كحالة المشاهد للمرئيات، الذى يجب عليه أن يكرس حاسة النظر للاستقبال والتلقى مع باقى الحواس.. فاستقبال المذياع بالأذن يعنى المتلقى من التهيؤ الخاص الذى تستلزمه مشاهدة المرئيات.. يستطيع المتلقى أن يستقبل الإذاعة المسموعة وهو يعمل فى حقله أو ورشته، وهو يستقل القطار أو يقود سيارته أو يركب دراجته أو مطيته.. لا يكلف استقبال الإذاعة المسموعة ما يكلفه استقبال الإذاعة المرئية.. انعدام تكلفة يتيح للإذاعة المسموعة مساحة هائلة من الانتشار لا يمكن أن تجاريها المرئيات الفضائية أو الأرضية أو شبكات الإنترنت، ولا أن تجاريها الكتب أو الصحف أو المجلات.. الاستماع إلى الراديو هو على الدوام استماع مجاني بلا تشفير وبلا أى عوائق وبلا أى تكلفة.. لذلك كان الاعتماد على الإذاعة المسموعة أكثر عراضة وجدوى وفاعلية من غيرها.. يستطيع أن يتابعها - على عكس المطبوعات - العالم والجاهل، والعارف والامى.

قدرة الإذاعة المسموعة على تحريك وتخصيب وإثراء الخيال، لا يمكن أن تضارعها الوسائل المرئية.. الصورة التى تطرحها المرئيات تشد المشاهد إلى تضاعيفها وزواياها وأركانها وألوانها، وتسحب بانشغال المتلقى بالمشاهدة البصرية من انطلاقات الخيال، بينما الإذاعة المسموعة بغير مشهد مرئى، تطلق العنان لسبحات المتلقى فى تخيل المسامع التمثيلية والدرامية وغيرها بأكثر - ربما - مما تقدر عليه المشاهد المرئية.. المشهد المرئى يفرض صورة معينة محددة، بينما لا يصادر المسموع على خيال المتلقى، بل يدعو إلى أعماله لمعايشة ما يسمعه معايشة يصبح

المتلقى نفسه طرفاً فيها.. لو سألت مليون سامع لتمثيلية " على بابا والأربعين حرامي " التي أخرجها الإذاعي الفلّته الراحل عبد الوهاب يوسف، لوجدت لكل واحد منهم تصوراً وخيالاً خاصاً لشكل كل فصل من فصولها ومسمع من مسامعها.. سوف تجد لكل مستمع تصوراً وخيالاً لكل مشهد سمعه ولم يره فطفقت مخيلته تسبح في تجسيده ليعيش فيه.. هذه الخاصية هي التي تعطى للإذاعة المسموعة مساحة عريضة لتحريك وتخصيب وإثراء المخيلة، وهي جزء أساسي في معادلة قدرة الأدمى على الفهم والتدبير والتخطيط والفعل.

تأمن الإذاعة المسموعة مما يمكن أن يصاحب بعض " مشاهد " المراثيات التليفزيونية أو السينمائية أو الإلكترونية مما يثير الشهوات والغرائز التي ربما صرفت المتلقين عن المتابعة المتأملّة المركزة في الفكرة.. مساحة الجد والموضوعية والعمق وتحريك الفكر فيما تقدمه الإذاعة المسموعة - مساحة عريضة ربما عز على المراثيات أن تجاريها فيها، أو أن تلاحق قدرتها على التواصل مع الناس حيث كانوا.. في الحقل أو المصنع أو الورشة أو بالسيارة أو على الدراجة أو المطية أو في الحديقة والملعب.. حيث يستطيع الراغب أن يستقبل ما يريد متى شاء وفي مجانية مطلقة لا تكلفه شيئاً، ولا تعوقه حتى الأمية عن التحصيل والفهم.. ظني أن الدول النامية على التخصيص أكثر ما تكون حاجة إلى تشجيع الإذاعات المسموعة والاهتمام بها مادة وتهيئة وانتشاراً، لأنها وسيلتها المجانية المتاحة للفقراء مع الأغنياء، والأميين مع المتعلمين، ويكفل لها بثها القيام بكافة الوظائف العقلية والفكرية والثقافية والمعرفية والإعلامية..

ويمكنها من بناء الثقافة وتنوير العقل وإثراء المخيلة التى تتعاقب مع العقل فى توجيه الفكر والسلوك الإنسانى !

لست ضد " الصورة " أو المرئيات بعامة، ولا أهون منها.. فلها دورها الخاص الذى لا تبارى فيه، فيما لا يمكن تقديمه إلا بالصورة وتحصيله بالحاسة البصرية.. لا يمكن تصور الاطلاع على الفنون التصويرية أو التشكيلية بغير الصورة، ولا متابعة الأوبرا والأوبريت ولا فنون الأراجوز والرقص الشعبى والرقص التعبيرى بغير المشاهد المرئية، وإنما أردت أن أشير إلى أن للإذاعة المسموعة هى الأخرى مجالها الخاص والأوسع الذى لا تبارى فيه، ولا تعدم الوسائل لدور متميز فى مجالات تتفوق فيها - برغم غياب الصورة - لما يمكن أن تنثريه من التركيز والخيال..

خدمة اللغة محصولاً، وضبطها نحواً وصرفاً - مهياة فى الإذاعة المسموعة بصورة لا تتاح بذات القدر والتأثير لغيرها.. يكفىك أن تراجع إمام وأداء نجوم الإذاعة، لترى بوضوح أنهم كانوا ولا يزالون أصحاب انباع الذى من عباءته خرجت عناصر المرئيات التى تواصلت وحفظت ما خطه السابقون فى الإذاعة، وعبدوا به طريقاً لا تزال العناية به - فى مجال اللغة وضبطها - أميز فى الإذاعة المسموعة عما عداها.. هذه إحدى الوظائف المعرفية والتنقيفية الهامة التى ألتها وتؤديها الإذاعة بكفاءة ملحوظة ومتميزة تضى على مآلتها بعامة قدراً أكبر من الجذ والموضوعية والرصانة التى تسرب قيمها إلى الناس فى سلاسة تلقائية بلا اصطناع.

فيما عدا المشاهد التي يندمج فيها النغم مع الصورة، كالأوبرا والأوبريت والرقص الشعبي أو التعبيرى، فإن معيشة النغم المجرد والتركيز مع اللغة الموسيقية فهما وتذوقاً وطرباً، متاح فى المسموع أكثر من المرئى.. نعم الصورة تعطى إضافة غير منكورة للمشاهد الموسيقية - إن جاز التعبير - فى العزف الأوركسترالى والسيمفونى وفى السوناتا وفى غيرها مما بات متعة للمشاهد المستمع فى صالات العزف والعرض وفى دور الأوبرا وفى المرئيات الأرضية والفضائية، ولكن ظنى أن " الإنصات " المركز بحاسة السمع يعطى المتلقى تركيزاً أكثر مع النغم ومع الطرب وربما جنبه الانشغال بحركة أو شكل العازف عن المزيد من التركيز فى النغمة أو الجملة الموسيقية واستحضار وتخيل المشاهد التى ترويهما المتتابعات السيمفونية.. قدرة البرنامج الموسيقى على نقل الكلاسيكيات والموسيقى الحديثة، قدرة مشهودة جذبت أعداداً هائلة من عشاق الموسيقى، ولا نزال نذكر ونسمع أحياناً شروح الدكتور حسين فوزى للسيمفونيات والكونشيرتوهات والسوناتات والمتواليات وكيف استطاع أن يقرب أسرار وفنون الموسيقى الكلاسيكية للمستمعين. لا أقول هذا غصاً مما يحصله المتلقون من متعة وإشباع فى الاستماع المقرون بالمشاهدة فى دور العرض ودور الأوبرا والمرئيات بعامة، وإنما قصدت أن أستحضر ما فى الإذاعة المسموعة من تعويض يتعانق مع باقى المزايا التى ألمحت إلى بعضها للدعوة إلى المزيد ومزيد الاهتمام بالإذاعة المسموعة إيماناً منى بأنها أكثر الوسائل مقدرة على توصيل خدمات تنويرية تثقيفية - سهلة ميسورة - للمتلقين فى كل مكان وزمان وفى جميع الأحوال.

انعكست هذه العناصر التي تميزت بها الإذاعة المسموعة، على اختياراتها لمادتها، وعلى ضوابط ومعايير اختيار الإذاعيين الذين كانوا في الواقع ترجمة حية عن هذه الممكنات، ترددت أصداؤها في اهتماماتهم وثقافتهم الموسوعية التي رأينا من خلالها نجومًا كبارًا من الإذاعيين لم تقتصر مواهبهم على طلاوة الصوت أو تميز الأداء والإلقاء، وإنما أيضا في مجالات موسوعية رأينا من خاضها منهم في الأدب والرواية والشعر والمسرح والتأليف الدرامي والترجمة والكتابة السياسية.. من رحاب الإذاعة خرج نجوم في التأليف الروائي، وفي الأدب الشعبي، وفي التأليف المسرحي، وفي الشعر والنقد، ورأينا منهم الشاعر والروائي والمسرحي والمجمعي والأديب والمترجم والكاتب السياسي.. أرجو أن أحدثك في المقال القادم عن أديب متميز وإذاعي فذ جمع طلاوة الصوت وعبقرية الأداء.. نظم الشعر، وكتب للمسرح، وألف التمثيليات والمسلسلات الدرامية والكوميديّة والتاريخية، وقدم دررًا في الترجمة، وكتب في أدب الرحلات، وفي الدراسات الأفريقية والسياسة بعامة.. وكان نموذجًا للإذاعي الموسوعي الذي فهم دور الإذاعة التثويري والتثقيفي، فأخلص له الاستعداد والاضطلاع والأداء.

سعد زغلول نصار :

الإذاعة بين فهم الرسالة

واقترار الأداء (*)

عمرت الإذاعة المصرية، منذ إرهاباتها الأولى التى توجت بمولد الإذاعة الرسمية وبث إرسالها الأول فى مايو ١٩٣٤، حيث تبدأ بعد شهور احتقالات عيدها الماسى - عمرت بنجوم لامعة ملأوا موجاتها وملأوا الحياة الأدبية والفكرية والفنية والإعلامية - خصوبة وعطاء، منهم من برع وامتاز فى طلاوة الصوت، أو فنون الإلقاء، أو قراءة النشرات الإخبارية، أو التعليقات السياسية، أو الربط فى الاستوديو، أو نقل الإذاعات الخارجية، أو فى كتابة الدراما، أو التعليق السياسى، أو المنوعات، أو فى الإخراج الإذاعى.. من عباءة الإذاعة المصرية خرج الشاعر الأديب، والروائى اللامع، ورائد الأدب الشعبى، واللغوى المجمعى، والمسرحى القدير، والناقد المتميز، ومنهم من جمع بين أكثر من ملكة أو موهبة من هذه المواهب، ومنهم من كان متكاملاً دانته له جميع

هذه القدرات، ومنهم من جاوزها إلى ميادين الأدب والشعر والقصص والرواية والمسرح والتراث الشعبي والنقد والدراسة.. وعندهك بالمقال السابق أن أحدثك عن إذاعي فذ وأديب مبدع وكاتب رائع من نجوم الإذاعة اللامعين، اكتملت له هذه المواهب والقدرات، وتجلت فيه عبقرية فهم رسالة الإذاعة، والاعتدال في أدائها والقيام بها.. متعدد الجوانب، موسوعي الثقافة والمعرفة، ضرب بعبطائه وإنتاجه الغزير في كل باب، لم يترك الشعر الذي نظمته في سنوات الدراسة، إلا ليرتاد دنيا الأدب والفن والتأليف الدرامي والمسرحي والنقد والترجمة. نويت أن أكتب عنه منذ رحيله عن دنيانا في فبراير ١٩٩٢ بعد رحلة عطاء طويلة تولى فيها رئاسة شبكة صوت العرب، والمستشارية الصحفية للرئيس الراحل أنور السادات، ووكالة هيئة الاستعلامات التي عاد إليها بعد أن تولى مكتبنا الإعلامي في استراليا، وآب منها إلى رحاب الإذاعة كاتباً من الخارج بعد بلوغ سن المعاش، فملأ الدنيا حضوراً لافتاً، أنعش آمالاً عزيزة في أن يتواصل عطاؤه الذي افتقدته الإذاعة في سنوات الغربة، ولكن ملاك الموت اختطفه اختطافاً مباغتاً فور وصوله عائداً إلى أرض الوطن من رحلة نهض فيها على تدريب باقة من شباب الإذاعيين بالكويت على فنون وأساليب العمل الإذاعي، عاصرها زميل عمره المرحوم صلاح زكي وعلق عليها - في تأبين مجلة الإذاعة - بأنه رآه يؤديها باقتدار المتمكن المالك لكافة أسرار المهنة، ويبدل ما لا يقوى عليه أربعة من الشباب !

كان لا بد أن يمضي وقت طويل على رحيله عن دنيانا قبل أن أتمكن من الكتابة عن سعد زغلول نصار.. لألمم شتات نفسي ومشاعري الحزينة، ولأجمع شتات ماكتبه وهو كثير غزير، ولأنتهي للكتابة عما خاضه

من بحور لا يستطيع المبحر أن يمسك بزمامها كما أمسك هذا المبدع الموهوب فى تمكن واقتدار..

الإذاعة تخاطب جمهوراً غير محدود من المتلقين، متفاوت العلم والثقافة والمعرفة والأذواق والميول والمشارب.. عليها أن تغطى فى مادتها المبنوثة كل هذه المطالب، فى فهم وقدرة على الصياغة التى تجمع بين الرصانة والتشويق.. هذه الرسالة تتطلب فى الإذاعة فهما ومقدرة على الاستيعاب والأداء.. وكأن سعد زغلول نصار قد خلق للإذاعة التى بثت إرسالها الأول بعد مولده (١٩٣٠) بأربعة أعوام.. كان - رحمه الله - متعدد المواهب متنوع الاهتمام والإنتاج، لم يدع مجالاً إلا خاضه وتميز فيه.. لم يكتف بموهبته الصوتية المتميزة، طلاوة وأداء فى النشرات والإذاعات الخارجية والتعليقات، وفى فنون الإلقاء، بل وفى الغناء الذى صدح به - وهو مذيع - فى ركن الهواة، وإنما امتدت موهبته وأشواقه إلى استيعاب معين هائل من المعارف والثقافات، واتسعت لإنتاج غزير متنوع متميز.. شاعر، وأديب، ومؤلف، وكاتب دراما وسيناريو، وناقد، ومترجم.. موسوعى العلم والثقافة، إنسانى النزعة، ملأ الإذاعة والتلفزيون والحياة الثقافية والأدبية نشاطاً هائلاً انعكس فى شعره الذى نظمه وهو لا يزال طالباً.. وفى التأليف، والكتابة الدرامية للإذاعة والتلفزيون، والتأليف للمسرح، والترجمة، والدراسات الأدبية والنقدية والسياسية والإنسانية.. كتب عشرات الأعمال الدرامية للإذاعة والتلفزيون، ضمت التراجم والكوميديا، وتفرعت إلى الأعمال الأدبية والثقافية والدينية والتاريخية.. وألف للمسرح، وللتلفزيون، وكتب فى أدب الرحلات، وترجم العديد من روائع المسرح والقصص العالمى، وكتب مئات المقالات الأدبية والنقدية

والسياسية.. وكان معبرا في كل ما قدمه عن الفهم العميق لرسالة الإذاعة التي عشقها، واقتدار الأداء مديعاً أو كاتباً أو مؤلفاً أو مترجماً أو ناقداً..

إذاعة صوت العرب، وهو أحد مؤسسيها، وتولى رئاستها خمس سنوات، إذاعة ذات طبيعة خاصة، كان الجانب السياسي والفكري والثقافي والديني من أهم معطياتها، ولكنها لم تتحوصل وإنما امتد عطاؤها إلى كل المجالات.. مدركة أن رسالة الإذاعة عريضة بعراضة جمهور المتلقين.. تقدم كل شيء، الكشكول، والحياة والحب والأمل، إلى جوار المادة والتعليقات السياسية، وتقدم المجلة الثقافية، وأضواء على الفكر العربي، وقرأت لك، إلى جوار من هدى القرآن ومن هدى النبوة وذلك الكتاب لاريب فيه وفي مدرسة الرسول، وتقدم ابتهالات وأدعيات يارب ومع الله وبشائر وباسمك اللهم، إلى جانب خريطة المنوعات والغناء والموسيقى والطرب، إلى جوار النواشيع والابتهالات الدينية والقراءات القرآنية.

كان سعد زغول نصار يفهم حقيقة هذا كله بحاسة متوهجة وثقافة عريضة، ويدفع رياح العمل في اقتدار يراعى تميز المادة مثلما يراعى التوازنات بين مختلف الوجبات التي تبتها إذاعة صوت العرب إلى المتلقين.

أتيح لى أن أتلامس مع صوت العرب، وأن أكتب إليه ما بين أول الستينيات ومنتصف الثمانينيات كتابية يومية منتظمة، رأيت فيها أدينا الإذاعي المبدع مديراً لحزمة البرامج العقائدية شاملة الثقافية والدينية في صوت العرب، يجلس في حجرة ومعه فيها أمين بيسيوني وإبراهيم مصباح ومحمد مرعى وعبد الوهاب قناية ومحمد الخولى، خلية نحل لا تهدأ، فلا تصرفه إدارة العمل ومراجعة النصوص وزحام الحجرة

والمختلفين إليها عن الكتابة التي عشقها.. لا يدع دقيقة تقوت دون أن يخط برنامجاً أو تعليقا أو مسمعا دراميا في استغراق عجيب، ورأيته بذات هذه الروح يدير كتيبة صوت العرب التي جمعت ألمع نجوم الإذاعة التي ضمت - فضلا عن ذكرتهم : نادية توفيق وعادل القاضي وصلاح عويس ووجدى الحكيم وأحمد عبد الحميد وسعد غزال وتراجى عباس وأحمد حمزة وحلمى البلك وحمدي الكنيسى وعصمت فوزى ومرفت رجب وحسين أبو المكارم وسوسن النمرسى ومراد كامل وزكريا شمس الدين وكامل البيطار وعلى سعفان ونادية حلمى ونجوى أبو النجا وسهام صبرى ومحمد سناء وعبد الله عمران وعبد الفتاح العدوى ونهى العلمى وتهانى رمضان وسعاد خليل وجابر الشال ومحمود الشال ومحمد غزال وعادل جلال وأحمد شوقى وأمانى كامل وعبد الله قاسم وأحمد الجبيلى.. ووسطهم آنذاك على أول الطريق أمينة صبرى ثم نبيلة مكاوى اللتان تولتا على التوالي إدارة صوت العرب فى السنوات الأخيرة، من هذه الكتيبة من تولى رئاسة الاتحاد ورئاسة الإذاعة ورئاسة التلفزيون، ورئاسة الشبكات بالإذاعة والتلفزيون، فضلا عن إدارة صوت العرب الذى تميزت مدرسته بعطاء خاص ونكهة خاصة كان سعد زغلول نصار أحد أعمدتها المؤسسين الكبار الذى لم يختلف مسلكه رئيسا عنه مرءوسا.. لأن العطاء للإذاعة والأدب والفن كان مهجته وشاغله.. إدارة هذه النجوم اللامعة ليست سهلة، إلا أن يكون ماسك الدفة صاحب اقتدار يدركه الجميع فى بساطة غير مصطنعة، تعطى للعمل مقامه الأول، ولا تصدر أو تنتقص مكانة كل من هؤلاء لا فى موهبته هو أيضاً، ولا فى قدرته على العطاء والإجادة فى جو عابق بالمحبة وسط خلية نحل لا تنهى ولا تهدأ..

يختلف إليها يومياً نجوم لامعة فى الأدب والفن والغناء.. صلاح عبد الصبور، وأنيس منصور، وعلى شلش، وعبد الله الطوخى، وصالح مرسى، ووحيد حامد، وفؤاد بدوى، ومن نجوم الفن والغناء : عبد الحليم حافظ، ومحمد الموجى، وبليل حمدي، وكمال الطويل، وصباح، وفايزة أحمد، ومحمد سلطان، وحلمى بكر، وصلاح عرام.. الجميع - عاملاً ومتعاملاً - مشغولون بالعطاء ومقتضياته، فى إحاطة وإتقان يصب فى مصلحة الإذاعة وجمهور المتلقين.

* * *

فى عمر الإذاعة المصرية الطويل، الذى أشرف على عيده الماسى، حفلت بكثيرين من البنائين العظام، ستذهب أعمالهم الكبرى بدداً، ولن تتاح للأجيال التالية فرصة الإطلاع عليها والاستفادة منها، ما لم تقوم الإذاعة، أو الاتحاد، أسوة بما تفعل هيئة الكتاب، أو المجلس الأعلى للفنون والآداب، بطبع ونشر المتميز من هذه الأعمال.. وقد قامت الإذاعة بشيء من ذلك حين طبعت فى أشرطة بإحدى شركات الصوتيات - بعض ما كان يقدمه د. حسين فوزى من شرح الموسيقى الكلاسيكية فى البرنامج الثانى.. مهما حاولت خريطة الإذاعة أن تزوج بين القديم والجديد، فإن الجديد الزاحف بكثرته ومعها إلحاحات أصحابه، جعل القديم يتوارى أو يكاد، وسيظل يتوارى من خريطة البث، مع أنه تضمن أعمالاً نادرة تفوق بكثير جداً ما يتاح الآن للبث الجديد.. حفظ هذه الأعمال فى أرشيف أو مكتبة الإذاعة لا يتيح لمن يريد أن يطلع عليها متى شاء.. طبيعة الإذاعة، وتعاملها مع الأثير، تجعل الحاجة مضاعفة لحفظ أعمالها الكبيرة.. طباعة هذه الأعمال الكبرى - ورقياً وصوتياً - هى الكفيلة بحفظ تراث الإذاعة من

الضياع وتيسير الإطلال عليه لضمان تواصل الأجيال على أسس موضوعية راسخة.. راودتني هذه الأمانى بالحاح وأنا ألاحق وأفتش وأستقصى التراث الضخم الذى تركه سعد زغلول نصار، فبرغم أن بعضه فى كتب أو فى مقالات منشورة، وبعضه تركه فى نسخ كربونية لم يمهل الزمن أو العمر لطبعها، وبرغم أننى شخصيا كنت معنيا بتجميع ما أستطيع من تراثه، إلا أننى على كثرة ما استطعت الوصول إليه، يظل كثير من أعماله الكبرى، سيما الدراما الإذاعية والتليفزيونية - معرضاً للضياع..

عبر عمره الإذاعى، من ١٩٥٣، كتب سعد زغلول نصار مئات البرامج المتنوعة، ما بين " ركن الجيش " الذى قدمه فى الخمسينيات بالبرنامج العام، وما بين عدد بغير حصر فى إذاعة صوت العرب : برنامج الأسبوعى : " من القلب للقلب "، والبرامج اليومية أو الأسبوعية التى كان يتبادل الكتابة فيها : " حوار مع مستمع "، " مع الله "، " قرأت لك "، " دنيا ودين "، " يارب "، " على طريق الهدى والإيمان "، فضلا عن البرامج المستقلة، والتعليقات السياسية.. يبدو أنه لا مناص من أن يذهب هذا التراث الهائل بدءاً، فهذا قدر الإذاعيين الذين يتعاملون مع الأثير، وتحت إلحاح الحوادث اليومية، والمتغيرات المتوالية، وتيارات الحياة التى لا تكف عن الدوران.. ولست إلى هذه الأعمال أقصد حين أتحدث عن الأعمال الكبرى واجبة النشر والإتاحة للمتلقين، وإنما أتحدث عن الأعمال الدرامية الكبرى التى تنتهى صلة المتلقين بها بعد إذاعة المسلسل أو التمثيلية، ومن النادر جداً أن تعاد.. من هذه الأعمال ما اجتمعت له

كل المقومات الأدبية والروائية والدرامية، ومنها ما حمل من حقائق الحياة والتاريخ ما يوجب حفظه من البدد والضياع !

كتابة الدراما الإذاعية، موهبة خاصة، لا تتوفر لكل إذاعي.. قليلون في تاريخ الإذاعة من دانت لهم هذه الموهبة التي امتلكها سعد زغلول نصار باقتدار بالغ الامتياز، فهي مزيج من موهبة القص والرواية، ومكنة إدارة الحوار، وملكة التصور والخيال المجدول بالقدرة على تجسيده صوتياً.. تتسع هذه المواهب على قدر تنوع المجالات التي يعالجها مؤلف الدراما.. فالحوار التاريخي غير الحوار العصري، بل وتبعاً لحقبتيه ومكانه، والحوار الحضري غير الريفي غير الصعيدى، والحوار بالفصحى غير الحوار بالعامية، والحوار التراجيدى غير الفكاهى أو الكوميدي.. وقد تتداخل فى الأعمال الدرامية الكبرى لهجات الأقاليم والأقطار العربية. ألف سعد زغلول نصار العديد من الأعمال الدرامية للإذاعة المصرية وللإذاعات العربية، وللتلفزيون أيضاً. رصيده من هذه الأعمال رصيد هائل.. مسلسلات فى ثلاثين حلقة لكل منها : " مكة أم القرى "، و " المدينة المنورة "، و " الهوامل والشوامل "، و " التوابع والزوابع "، و " الشاعر ابن زيدون "، و " مداعبات تاريخية "، و " اختيار " و " رجل من الشام : العز بن عبد السلام "، و " حدث فى رمضان "، و " الثورة المضادة "، و " محاكمة كوكب متمرّد "، و " سيف حار جداً "، و " زعبوط الخديو " و " دراما غزو صدام للكويت " - لإذاعتها ثم للتلفزيون، غير العديد من التمثيليات، كما ألف الدراما التلفزيونية : " طلع البدر علينا "، و " السندباد "، و " رباعية مصرية " أو " فرسان التراب الأسمر ".. وهذه الموهبة مع القدرة على التجسيد

الدرامى، ودراسته للأدب والفنون والمسرح، مدت إبداعاته إلى المسرح، فألف مسرحية من فصل واحد بعنوان : " مين يقول كده "، ومسرحية : " ولادك يا مصر "، ومثلت على المسرح القومى وعرضت بالتلفزيون.

يبدو لى وأنا ألهم وراء سعد زغلول نصار باحثاً منقبا فى أعماله، أن موازناته لما يختار تقديمه تكاد تتوازي مع موازنات الإذاعة نفسها فى تنوع مادتها ما بين الأصالة والمعاصرة، والتراث والحداثة، والدين والفكر، والأدب والثقافة والسياسة، يدل على ذلك تنوع إنتاجه مع غزارته وتفرد، ويدل على أن عينه فيما يختار كتابته كانت متيقظة تعرف ماذا ترى وماذا تختار.. عنايته بالأصالة وإحياء التراث تراها تتجلى فى " الهوامل والشوامل " التى جسدها فى ثلاثين حلقة درامية، مثلما تجلت فى " النوايع والزوايع " التى جسدها دراميا فى ثلاثين حلقة.. وكلاهما يختلف - مثلا - عن مسلسل " مكة أم القرى " أو مسلسل " المدينة المنورة ".. فالتاريخ الإسلامى فى هذين المسلسلين أكثر حضورا، بينما الفكر والفلسفة والأدب هى قوام " النوايع والزوايع " مثلما هى أساس " الهوامل والشوامل ".. هذا العمل الأخير مجسد دراميا عما كتبه أبو حيان التوحيدي ومسكويه، فهما شريكان - بلغة العصر - فى كتابة " الهوامل والشوامل " الذى حققه أحمد أمين والسيد صقر عام ١٩٥١ للجنة التأليف والترجمة والنشر.. " الهوامل " : وهو الشق الذى كتبه التوحيدي، معناها الإبل السائمة رمزا لما جعل أبو حيان يطرحه من أسئلة عميقة فى كل باب، يجيب عنها مسكويه تحت عنوان " الشوامل "، وتعنى الحيوانات التى تضبط الإبل " الهوامل " فتجمعها.. ومع قيمة ما أبداه مسكويه من إجابات، فإن القيمة الأساسية فيما طرحه التوحيدي فى " الهوامل " من

إشكالات وفى أسئلة بعضها يفوق فى عمقه ودقته بعض إجابات مسكويه..
عن ذلك يقول أحمد أمين فى تقديمه للكتاب : إن المتأمل فيما طرحه
التوحيدى يدرك بوضوح كيف كان " شخصية فلسفية طُلعة تستخلص
الأسئلة من كل ما يقع أمامها سواء كانت المسائل خلقية أو اجتماعية أو
لغوية أو اقتصادية أو نفسية " .. ولا غرو، فيما يقول، فقد كان له من
حب الاستطلاع، والرغبة فى البحث، والتشوف إلى المعرفة، ما جعل
منه فيلسوفاً متسائلاً يدهش لكل شىء، واستطاع فى " هوامله " أن يكشف
عن " عقلية موسوعية " .. وهذا هو بذاته ما شَف عنه الموسوعى سعد
زغلول نصار، الذى لم يرهب الإقدام على هذا العمل العويص، فبسطه فى
دراما إذاعية منسوجة بعناية واقتدار، وتتيحه فى يسر وسهولة لجمهور
المتلقين !

مثل هذه الأعمال الإذاعية الدرامية تاريخية أو تراثية أو أدبية،
تسرب الثقافة إلى المتلقين فى بساطة ويسر لا ينقصهما التشويق
الذى يدفع إلى المتابعة.. وظنى أن أمثال تمثيلات مكة أم القرى، والمدينة
المنورة، والهوامل والشوامل، والتوابع والزوابع، وابن زيدون،
وغيرها مما ذكرت، تستحضر معانى وقيماً ثقافية وتاريخية، وتوافق أيضاً
دور صوت العرب والإذاعات العربية التى كانت تهتم بالخطاب العربى
ومايستلزمه من لفت إلى التراث والقيم المشتركة بين العرب قبل
اجتياح ثقافة التمحور أو التقوقع أو الانسلاخ !

* * *

لم تكن اختيارات التأليف والكتابة الدرامية، خالية من الاختيار المقصود
الذى يتناسب مع رسالة الإذاعة بعامه، وإذاعة صوت العرب التى أمضى

فيها سعد زغلول نصار معظم عمره الإذاعي بخاصة. يم هذا الإذاعي
 الفذ، والأديب المتمكن، شطر الأندلس ليجدل دراما إذاعية أراد بها - فيما
 أراد - أن تحمل رسالة إلى الأمة العربية.. فى ثلاثين حلقة، كتب سعد
 زغلول نصار وقدم لإذاعة الكويت، مسلسل " التوابع والزوابع " عن
 الرسالة التى كتبها شاعر الأندلس ابن شهيد : أحمد بن عبد الملك..
 ذكره ابن سعيد فى كتابه " المغرب فى حلى المغرب "، وفصله ابن
 بسام فى الذخيرة، وكتب عنه الأستاذ أحمد أمين فى الجزء الثالث من ظهر
 الإسلام.. وأساس فكرة " التوابع والزوابع " يتفق مع أساس رسالة الغفران
 للمعرى، والكوميديا الإلهية لدانتى، ويرجح الأستاذ أحمد أمين باستدلال
 يسوقه - أنها أسبق كتابة بنحو عشرين عاما من رسالة الغفران التى يتفق
 النقات على أنها أسبق من كوميديا دانتى.. معنى " التوابع " : الجن التى
 تصاحب الإنسان، كالقرين والقرينة.. و " الزوابع " تعنى العواصف وتومئ
 أيضا إلى رئيس الجن فى مشاهد التوابع والزوابع.. اتخذ ابن شهيد هذه
 الرسالة وسيلة لبيان آرائه فى الشعراء والأدباء والكتاب، وفى المشكلات
 الأدبية.. أدارها على لسان الجن، وحاور بها أطراف من عرض لهم من
 الشعراء والأدباء.. لم يحظ هذا العمل بما حظيت به رسالة الغفران التى
 كتبت عنها بنت الشاطئ ولويس عوض وآخرون، ولا بما حظيت به
 كوميديا دانتى.. يبقى محسوبا للكاتب الدرامى أن يخوض الصعب ملنفتا
 إلى قيمة الغاية.. فى اقتدار ينضح بحاسته الشعرية وتمكنه من اللغة
 العربية وإحاطته بالقضايا الأدبية، صب سعد زغلول نصار هذه الرسالة
 فى قالب درامى متميز.. تدور مشاهدتها - أو مسامعها - على لسان الجن
 وابن شهيد وشعراء العربية عبر العصر الجاهلى ثم الأموى ثم العباسى..

امرو القيس، وزهير، وطرفة.. وأبو تمام، وأبونواس، والبحترى، والمتنبى.. على لسان الجان وابن شهيد وهؤلاء، دارت دراما " التوابع والزوابع " التى اتسعت أيضا بنسيجها الدرامى إلى حكاوى الجاحظ وبخلائه، والكندى وفلسفته، وبديع الزمان الهمذانى ومقاماته، وعبد الحميد الكاتب ومحاوراته.. وفى نسيج درامى مشوق ومجدول بتمكن واقتدار، تقرب من المتلقى زبدة أشعار ومواقف ورسائل وحوارات هؤلاء الشعراء والأدباء.

مع أنسام الأندلس، والنزوع إلى الماضى الجميل الذى كان، وأنغام الشعر، وأطياف الأندلسيات، جدل سعد زغلول نصار فى ثلاثين حلقة مسلسل الدرامى عن ابن زيدون الشاعر الأندلسى الذى يرى أحمد أمين أنه استصفى غزل العباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد، وديباجة البحترى وحسن سبكه ونصاعة أسلوبه، وطول نفس وتدقق ابن الرومى.. اختيار وإبداع سعد لهذا البناء الدرامى، يكشف فضلا عن الإعجاب بالشاعر، وجزالة شعره، عن إلمام بالتاريخ الأندلسى وتضاعيف الحياة الاجتماعية وما صاحب حياة ابن زيدون من منعطفات ما بين حبه لولادة بنت الخليفة المستكفى، ومنتديات الأدب التى كانت تقيمها ويتصدرها ابن زيدون حتى تغيرت ولادة وتغيرت معها الدنيا، وانقلب أمل ابن زيدون أن يكون أميراً، إلى غمة السجن ولوعة الهجر فضلا عن إعراض الحبيبة عنه، وما صاحب هذه المنعطفات من نبضات وأنغام الشاعر الذى لم تكف قيثارته عن العزف !.. ترى أى حنين إلى الماضى الجميل شد أديبنا الإذاعى إلى الأندلس ليكتب هذه الدراما المطولة عن ابن زيدون والأخرى عن " التوابع والزوابع " للشاعر الناثر ابن شهيد !؟

سيظل العاشقون للأندلس، والذين ينازعهم الحنين إلى الماضي الجميل، يطلون على تاريخ الأندلس الإسلامية، وما ماج فيها عبر قرون في الحياة السياسية والأدبية والاجتماعية، من خلال المجموعة الشاملة التي وضعها المحامي المؤرخ محمد عبد الله عنان الذي صرف حياته لدراسة الأندلس. تذكرت هذا العملاق وأنا ألاحق أعمال سعد زغلول نصار وأراه، رغم موسوعية ماكتبه وأخرج بعضه بنفسه، ييم من وقت لآخر شطر الأندلس.. تابعته في دراما " التوابع والزوابع " لابن شهيد الأندلسي التي حدثتك عنها قبلا، وتابعته في دراما الشاعر الأندلسي ابن زيدون.. ما كدت أفرغ من قراءة نصوص هذين العاملين الكبيرين اللذين وقعت عليهما في متروكاته، وكنت قد استمعت لبعض فصولهما في حياته، حتى وجدتني أمام دراما مطولة في ثلاثين حلقة عن " نفح الطيب ".. ونفح الطيب عنوان لموسوعة أندلسية للمقرى، عنوانها الكامل : " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ".. طبعت أولى طبعاتها بمصر بالمطبعة البولاقية ١٨٦٢، وطبعتها الثالثة ١٩٤٩ في أربعة مجلدات ضخمة.. والمقرى صاحب هذه الموسوعة الأندلسية العربية الكبرى، مغربي المولد.. ولد بثلسمان بالجزائر، قرشى النسب، واشتهر بالمقرى نسبة إلى " مقرة " التي انتسب إليها أباه القادمون من المشرق، وهى اليوم من أعمال قسنطينة بالجزائر.. عاش المقرى حياته متنقلا بين المشرق والمغرب العربى، واشتهر بأغنى وأغلى أعماله : " نفح الطيب ".. موسوعة ضخمة لمؤرخ أديب موسوعى النظرة، جمع فيها بين الفقه والحديث والتاريخ والأدب والمحاضرة والمسامرة.. تجلّى ذلك فى هذا المطول الذى تخيره سعد زغلول نصار لمسلسله الدرامى الذى ركب فيه الصعب ليقدّم السهل

الممتع الذى يسرب إلى المتلقين دنيا كاملة من الأدب والشعر والتاريخ.. متابعاً المقرئ فى استطراداته إلى فنون الأدب وصنوف من المسائل المتعددة وذخائر التاريخ ورياض الأسمار وطرائف الأشعار.. ما كان يمكن أن يتصدى لتجسيد هذا العمل الموسوعى إلا أديب مثقف موسوعى..

عن المقرئ ونفح طيب الأندلس، يقول الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى كتابه عنه ضمن سلسلة " أعلام العرب - إنه جمع فيه من تاريخ الأندلس ومن تاريخ المسلمين فيها ما لا تجده فى كتاب غيره، وأن تأخر زمانه فى القرن الحادى عشر الهجرى أتاح له أن يصل من أخبار الأندلس ما انقطع بعد النكبة التى أصابتها .. فى هذه الأسفار الأربعة الضخمة التى خاضها كاتبنا الأديب الإذاعى غير هباب، وجسدها درامياً فى تمكن واقتدار، أخبار الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب الشخصية المحورية فى الكتاب وفى المسلسل الدرامى، وتواريخ وأخبار الأندلس وأدبه وأشعاره وأسماره وحيوات أدبائه وشعرائه.. فى اقتدار وتمكن لاقت يعالج سعد زغلول نصار وينسج ويجدل مسلسلة الدرامى الذى قدمه وأذيع عبر ثلاثين حلقة بإذاعة الكويت التى قدم إليها الكثير من أعماله المتميزة، كتب أيضاً لإذاعة الكويت مسلسل " مداعبات تاريخية "، فى (٣٠) حلقة، مزيج من الكوميديا والتاريخ، يدور نسيجه حول مواقف وأقاصيص تاريخية تتضح بروح الدعابة، وتورى بامتلاك المؤلف لفن الكوميديا مع إلمام واسع بالتاريخ مكنه من استخراج ما تخلله من كوميديا المواقف، مثلما مكنه من استخراج المواقف الموحية التى جسدها فى مسلسل " حكايات عربية " الذى جاب فيه المنطقة العربية زماناً وطولاً وعرضاً بين شبه الجزيرة العربية والشام والعراق والأندلس، وجدل ما انتقاه فى ثلاثين حلقة عامرة بالقص

والحكي في قالب درامى إذاعى يعرف كيف يسرب الثقافة والقيم والجسور العربية إلى جمهور المتلقين، كما كتب لإذاعة الكويت، فى (٣٠) حلقة، مسلسل " محاكمة كوكب متمرّد " .. تدور أحداثه بين أحد الكواكب الدائرة فى الأفلاك : " كوكب ميجانوس " وبين الأرض .. يدور القص الخيالى فى هذا العمل الدرامى، فيما بين شخصيات من الكوكب المتمرد، وبين شخصيات أرضية استقدموها من الأرض. يتصاعد البناء الدرامى إلى أن يصل إلى مشهد أو مسمع الختام الذى يبلور ما حفلت به هذه الدراما من مسامع ظاهرها الخيال، ولكنها تصب فى واقع أهم القضايا الوطنية الإنسانية .. قضايا العدل والحرية .. وتطرح سؤالاً بالغ الدلالة والإيحاء : هل يستقيم التذرع بالخوف من الخطأ لفرض الوصاية على الناس ؟! .. ما قيمة الحياة إن لم يمارسها الإنسان ؟! .. كم على كوكب الأرض - فيما رأى الكوكب الآخر - من حماقات أرضية يمكن أن تودى بالمجموعة الشمسية برمتها إلى الهلاك والفناء !! .. كان تواصل هذا الأديب الإذاعى الفذ مع الإذاعات العربية إلى جانب إذاعة القاهرة وصوت العرب دالاً على انتمائه القومى وعلى امتداد الجسور العربية، وشاهدًا بعمله على أن موهبته اتسعت كموسوعيته لتعبر عن نفسها وتملاً موجات الإذاعات العربية مع الإذاعة المصرية بإبداعاته المتميزة.

سعد زغلول نصار :

رسالة الإذاعة، وميلاد التلفزيون (*)

من رحم الإذاعة، ولد التلفزيون المصرى فى أول الستينيات، فدفعت إليه الإذاعة من خيرة روادها سعد لبيب وتماضر توفيق وأنور المشرى وصلاح زكى وعباس أحمد وهمت مصطفى وسميرة الكيلانى ومحمود السباع - لم يكن سعد زغلول نصار ضمن هذه المجموعة التى على أكتافها بدأ مولد وتأسيس التلفزيون، ومع ذلك نجد ريادة هذا الإذاعى الموهوب الذى اخترناه نموذجاً لفهم الرسالة واقتدار الأداء - تأبى إلا أن تقدم للتلفزيون، وللناهضين على إنشائه عطاء خاصاً متميزاً يتفق مع تركيبته وثقافته الموسوعية وإحاطته الشاملة بالفن الإعلامى بعامه، وبفنون الإذاعة المسموعة والمرئية بخاصة. هديته إلى الوليد الجديد كانت بكتاب هو الأول فى المكتبة العربية تحت عنوان : "تلفزيون للجميع" نشرته الهيئة العامة للكتاب فى عدد ممتاز للمكتبة الثقافية (نوفمبر ١٩٥٩).. فى هذا الكتاب نرى الأستاذ فى فن الإذاعة المسموعة، أستاذاً متمكناً أيضاً فى فن الإذاعة المرئية، يقدم فى منعطف هام، زبدة خبرة عريضة ورؤية

ثاقبة نابعة عن عبقرية فنية أملت بدقائق وأسرار العمل الإذاعي مسموعاً ومرئياً.

يتناول الكتاب كل ما يتصل بفنون التلفزيون من زوايا متعددة تتصل بنظرية الإرسال التلفزيوني إلى جانب نواحيه الهندسية، وأخرى تتعلق بالصوت والصورة وما يتصل بالإعداد والتصوير والإخراج فى الاستديوهات ومعداتنا وتجهيزاتها، وسبل تصوير والنقاط المناظر الداخلية والخارجية ونقل صنوف البرامج والإذاعات المرئية، فضلاً عن أسلوب كتابة البرامج وإعدادها وتنفيذها.. يبدأ الحديث عن الخلية الكهروضوئية والعين البشرية، وعن الخلية الموصلة (Conductive)، والخلية الفولتية (Voltaic) والخلية المشعة (Emessive)، وعن المحاولات الأولى للإرسال التلفزيوني وسبلها ودقائقها، وعن كاميرا واستوديو التلفزيون، والعلاقة الوثيقة والفوارق أيضاً بينه وبين السينما.. يعقد فصلاً عن " الصورة " وما يتصل بها من أضواء.. الضوء الأساسى (Base – light)، والضوء التشكيلي (Modeling -light) والضوء المتمم (Fill – light)، والضوء الخلفى (Back – light).. عن الأسلاك المضئية، والغاز المضئ وقوس الكربون وصمام الفلورسنت، وعن " الصوت " وامتزاجه بالصورة التى يعقد لها فصلاً آخر يتحدث فيه عن " مناظر التلفزيون " .. شاملاً ما تنفرع إليه برامجه من " الإترفيو " (interview) إلى المنوعات (Varieties) إلى البرامج الفكاهية (Comedy tormat)، وما يحتاجه كل منها فى تجسيد وتصوير مناظرها، وما بين المناظر الثابتة والمناظر المتحركة.. بين المناظر الداخلية وما يتعلق بها فى الكواليس والوحدات المعلقة والستائر والوحدات

المبنية والشاشة وغطاء الأرضية والخلفية أو الباك جراوند، وبين المناظر الخارجية النهارية والليلية، والعلاقة بين المنظر والميكروفون.. تصميم المناظر وتنفيذها.. الماكياج وقواعده ومواده وفنونه. لقطات الكاميرا وزواياها وحركتها ولقطاتها: اللقطة الاستعراضية الرأسية (Titling - shot)، واللقطة العكسية (Reverse - shot)، واللقطة المتحركة (Traveling - shot)، واللقطة الاستعراضية الأفقية (Panorama) وكيفية حركة الكاميرا فيها والأسس التي تقوم عليها.. وفنون الانتقال بين المناظر واللقطات : " القطع " وقواعده وضوابطه وفنونه.. و" المزج " أو " الميكساج " (Dissolve) - وهو نوع من الاختفاء التدريجي لمنظر (Fade - out) يتلوه ظهور تدريجي للمنظر التالي (Fade - in).. إلى غير ذلك من فنون الانتقال من لقطة لأخرى، ومنها ما يعرف بالـ Wipe shot.. وهى اللقطة التى تبدأ فيها الصورة صغيرة ثم تتدرج فى الكبر حتى تستوعب كل مساحة الشاشة.. ثم يعقد فصلا للإذاعات التليفزيونية الخارجية، والمؤثرات الخاصة، أساليبها وعرباتها وأدواتها وتجهيزاتها - مشفوعة بصور ورسوم توضيحية، وبأساليب نقل الإذاعات المرئية فى أنواع الرياضات كالمصارعة والملاكمة والسباقات وكرة القدم والتجديف، وفى الحفلات والعروض المسرحية.. يحدثنا فى المؤثرات الخاصة عن كيفية نجسيد الثلج (بالمندوف أو بالفشار أو برغاوى البوراكس أو الصابون)، وكيفية تجسيد المطر، والنيان، والدخان وما يستعمل فى ذلك من مواد وأوت، وكذا تجسيد أصوات تكسر الأوانى الزجاجية أو تحطيم الأثاث أو طلاقات الرصاص أو المفترقات.. لا ينهى سعد زغول نصار كتابه، دون أن

يعقد فصلاً خاصاً لميدانه الذى تألق فيه.. فنون الكتابة للتلفزيون وبرامجه وتنفيذها، وما تختلف فيه المعالجة المرئية عن المعالجة المسموعة فقط.. كيفية الكتابة وأساليبها، والمزج فى السيناريو بين الصورة أو الكاميرا، وبين الصوت أو الحوار والمؤثرات الخاصة.. يحدثك عن فن كتابة المنوعات، والبحوث، والنص السينمائى (السيناريو)، خاتماً بنصيحة إلى الكاتب : " لا تتفلسف على المشاهدين، فربما كان منهم من هو أكثر منك علماً ودراية أو ثقافة " !

هذا الكتاب الضافى الجامع الشامل، نشر (١٩٥٩) قبل بداية بث التلفزيون المصرى (١٩٦٠).. لا تسبقه فى موضوعه أى كتابات بالعربية، مما يورى بأن المؤلف رجع - مع خبرته العريضة - إلى كثير من المراجع الأجنبية التى مكنه منها إلمامه العريض إلى جوار العربية التى كان ملكاً متوجاً فى بلاغتها وأسرارها - باللغة الإنجليزية التى ترجم منها إلى العربية روائع المسرح العالمى، وكتاب المسرح اليابانى (مسرح الكابوكى)، وروائع القصص العالمى : " الحرية والموت " لكازانتزاكس، و " العالم المفقود " للسير آرثر كونان دويل، و " الولد الأسود " للكاتب الزنجى الأمريكى ريتشارد رايت، و " ابن البلد " لذات الكاتب، فضلاً عن الكتب الأربعة التى ترجمها عن القائد وثورة يوليو ١٩٥٢ وغيرها من ترجماته التى أسهم بها إسهاماً عريضاً نال عنه جائزة الدولة فى الترجمة.. واقع الأمر أن عالم سعد زغلول نصار عالم واسع مترامى الأطراف، متنوع البقاع، ضرب فيه بمعوله وزرع فى تربته وأنبت أشجاراً باسقة فى الفن والأدب، وفى القص والدراما، وفى المسرح والنقد، وفى الترجمة والسياسة، وفى أدب الرحلات والقضايا الإنسانية.

بهذا الزاد، وبموهبتة الفياضة - دخل سعد زغلول نصر إلى دنيا التلفزيون واثق الخطوة.. سواء في تأليفه للدراما التلفزيونية التي تواصل عطاؤه فيها بجوار الدراما الإذاعية والكتابات المسرحية، أم في برنامجه التلفزيوني الأسبوعي الذي جعل يديره " حول العالم " في السبعينيات، أم في قراءته لنشرات الأخبار التي جمع فيها بين حضور " الصورة "، وبين تمكن الإلقاء لغةً ونحواً وأداءً.

تعددت وتميزت أعماله الدرامية للتلفزيون، مثلما تميزت أعماله الدرامية للإذاعة.. حبه مخيلته مع تراكماته الثقافية، بمقدرة حاضرة على القص والحكي، وعلى النسج الدرامي، وعلى إتقان السيناريو إتقانه للحوار الإذاعي.. كتب للتلفزيون تمثيلية " السندباد " و تمثيلية " طلع البدر علينا ".. تحكى السيرة النبوية حتى الهجرة إلى المدينة واستقبالها للرسول عليه السلام وصاحبه أبى بكر بنشيدها المأثور : طلع البدر علينا : من ثبات الوداع.. كثيرا ما يعيد التلفزيون عرضها في عيد الهجرة.. والدراما التاريخية الإسلامية هي ميدان زغلول الذى لا يبارى فيه، أنقنه وأبدع فيه للتلفزيون مثلما أبدع للإذاعة.. لم يغفل فى كتابته للتلفزيون الدراما الاجتماعية، فكتب تمثيلية (تأليف وسيناريو وحوار) عن مصر المحروسة، تدور أحداثها فى قالب اجتماعى تخير لأحداثه الرئيسية ' شارع المحروسة "، وكتب " تداعيات مع الأرقام " وهو مسلسل اجتماعى فى (٣٠) حلقة، ملئ بنظرات إنسانية واجتماعية تورى بموسوعيته وتمتعه بكاميرا لاقطة تقع على الآفات الاجتماعية، وتمستخرج المشاهد الموحية من خضم الحياة.. وكتب عن الثورة العربية مسلسل " فرسان التراب الأسمر " الذى أرجو أن أحدثك عنه لاحقا، وأدار نسيج التمثيلية

التلفزيونية فى براعة فنية عركتها السنون والخبرة الطويلة التى أتاحت له
عبر العديد من الأعمال الدرامية التى كتبها للإذاعة المصرية وللإذاعات
العربية ثم للتلفزيون المصرى.

غنى عن البيان أن لغة التجسيد التلفزيونية تختلف عن لغة التجسيد
الإذاعية.. فالعمل الإذاعى لا يصافح إلا الأذن، واعتماده محصور فى
المستويات والطبقات والمؤثرات السمعية، بينما العمل التلفزيونى موجه
إلى العين والأذن، لذلك كانت الصورة عاملا إضافيا يستدعى معرفة وإتقاناً
لكل وسائل التجسيد البصرى من كاميرا وتصوير ومناظر وألوان وحركة
ومؤثرات بصرية، فضلا عن المؤثرات الصوتية التى تظل عنصرا
حاضرا فى العمل التلفزيونى وإن كان بأسلوب مختلف.. يحتاج مؤلف
التلفزيون، وكاتب السيناريو بعامة، إلى قدرة واسعة على تخيل وتجسيد
الصورة وما يستلزمها من حركة وزوايا الكاميرا، ومكونات المناظر،
وحركة الأشخاص داخل الكادر على الشاشة.. واعتقاده مما شاهده
من أعمال تلفزيونية لسعد زغلول نصار أو قرأته مما ألفه وكتبه من
سيناريوهات، أنه يمتلك - بخصوبة لافتة - موهبة الخيال والتصوير
البصرى، مثلما يمتلك موهبة التجسيد السمعى، وكانت أعماله ولا تزال
إضافة إبداعية فى المضمارين.

سعد زغلول نصار :

من إشعاعات رسالة الإذاعة (*)

حين أنشأت اليابان دار الأوبرا المصرية الجديدة، التفت المعنيون بالأوبرا والمسرح، المقرون للدور والصدقة اليابانية، فوجدوا جاهزا أمامهم كتابا كأنه ترجم خصيصا لهذه المناسبة.. كتاب " المسرح الياباني" (Japanese Theatre) - أو مسرح " الكابوكي " - للكاتب الأمريكى فوبيون باورز.. كان قد ترجمه سعد زغلول نصار لوزارة الثقافة ونشرته المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر فى مايو ١٩٦٤، وهو كتاب فريد فى المكتبة العربية، والمرجع الوحيد فى بلده، سد حاجة مطلوبة للمسرح، وأعادت هيئة الكتاب طبعه لكثرة الطلب عليه.. ومسرح " الكابوكي " - موضوع الكتاب المترجم - هو مسرح اليابان الشعبى، واحد من الفنون العظيمة القليلة التى لا تزال تعيش فى العالم حتى اليوم.. فيه كل أنواع الإثارة المسرحية، وتختلف مسرحياته ما بين الكوميديا والميلودراما والمسرحيات الراقصة، تتاوله الكتاب المترجم من شتى نواحيه، بدأ بمقدمة تاريخية للمسرح الياباني

وأصله الأسطوري ورقصاته القديمة (الكاجورا، والجيجاكو، والبوجاكو، والدينجاكو، والساروجاكو) .. و تناولت " النوه " أى المسرح الغنائى الكلاسيكى فى اليابان، وما داخله من فواصل فكاھية، أو رواية قصصية موسيقية، و " البوزاكو " أو مسرح العرائس.. يبسط الكتاب هذا كله - قبل أن ينتقل إلى " الكابوكى " أو مسرح اليابان الشعبى الحديث.. وكلمة " كابوكى " مكونة فى الأصل من مقطعين : " كا " ومعناها الغناء، و " بو " ومعناها الرقص، وما يعرف اليوم " بالكابوكى " يعنى " البراعة فى الغناء والرقص " عن طريق الامتزاج بين الكلمات والموسيقى، وبين الرقص والحركة. يعرض الكتاب لأنواع مسرح " الكابوكى "، ورحلته عبر العصور، وما أفاده " الكابوكى " الحديث من " الكابوكى " القديم، كما تناول طابع الأدوار، والممثلين، وخشبة المسرح، والعقدة، ومشاهد التأكيد الأساسية، والأشكال المسرحية.. فلسفته الجمالية تبدو فى اللون والحركة وغيرها من سمات هذا المسرح، أما مسرح عصر " مييجى " فيشمل المسرح السياسى ومسرح شينساي شيمبا.. وتعنى " المدرسة الجديدة " التى ظهرت فى أواخر القرن قبل الماضى، وتمثل تطورا فى المسرحيات السياسية.. وعن المسرح اليوم يعرض الكتاب لحالة المسارح الكلاسيكية وحالة المسرح الحديث، ومسرح الجناح اليسارى الذى بدأت تفرضه ظروف اليابان الجديدة التى باتت تتحرر من فرصة المسارح الكلاسيكية، وملحق بالكتاب ترجمة لمسرحيات " الكابوكى " : العنكبوت الوحشى، وجابو وابنته تسوجى، وسوكيروكو.. مطالعة هذا الكتاب، تورى بالصعوبة الهائلة التى صادفها سعد زغلول نصار فى

ترجمة معانى ومصطلحات المسرح اليابانى إلى العربية، وتعكس مدى ثقافة والتزام وفهم هذا الإذاعى الفذ والأديب المبدع لرسالته.

ترجم سعد زغلول نصار إلى جوار " المسرح اليابانى " أكثر من مسرحية من روائع المسرح العالمى.. منها مسرحية : " هو الذى يُصنع " (بضم الياء) تأليف الكاتب المسرحى الروسى ليونيد أندرييف، نشرت فى (يوليو ١٩٦٥) من سلسلة روائع المسرح العالمى التى كانت تصدرها - فى زمن الاهتمام بالمسرح ! - الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، وتيسرها للقارئ بخمسة قروش !.. والمسرحية تنتمى للمسرح الروسى، ومؤلفها أندرييف لحق بتشيكوف وجوركى، ومن رواد دار نشر " زناني " (Znanie) أو " المعرفة " التى ساهم جوركى فى إنشائها وأصبحت ملتقى الكتاب الروس الذين يتوخون الواقعية والأدب الهادف، ومنهم أندرييف الذى أثر لنفسه اتجاها يختلف عن جوركى الذى كان يدعو إلى يقظة جديدة وتجديد شامل للمجتمع، بينما طفق أندرييف يصور طبقة المثقفين البورجوازيين المتهاكمة قبل زوالها النهائى، ورصد روح الهزيمة التى كانت تعيشها، فجاءت قصصه ومسرحياته مغموسة بجو اليأس والقنوط وفلسفة الخواء واللاشيئية وتفاهة الحياة. ومن أبرز قصصه الطويلة " يهوذا الأسخريوطى " و " السبعة الذين شنقوا "، ثم جعل يظهر بكتاباته المسرحية اللافتة.. وكانت مسرحية " هو الذى يُصنع " التى ترجمها سعد زغلول نصار هى أنجح مسرحياته، ومثلت وثيقة إدانة لأزمة الثقافة فى وقتها.. جسدت - وإن دارت أحداثها فى سيرك، المصاعب والعقبات التى يصادفها المثقف حين يشرع فى إثبات ذاته والتعبير عن رؤيته فى مجتمع سادت فيه المادية والابتذال !

كان سعد زغلول نصار دارسا جيدا للمسرح، تدل ترجماته مثلما تدل مسرحياته : " مين يقول كده " و " ولادك يامصر " - على إلمامه بفنون وقواعد التأليف المسرحي، وخطوطه الأساسية، وإدراكه لأهمية " الفكرة المسرحية " و " الشخصية المسرحية " و " العقدة المسرحية " .. هذه التعددية هي التي أضفت على فهمه وأدائه لرسالة الإذاعة أبعادا لافتة جعلته نموذجا للتمكن والاقتدار في حمل وأداء رسالته الإعلامية بعامة، والإذاعية بخاصة.

كان سعد زغلول نصار محيراً في قدرته الهائلة على المتابعة والتحصيل لكل ما يصدر بالعربية التي كان فيها أستاذا متمكنا مالكا لكل نواصيها، أو بالإنجليزية التي أتقنها وألم بأسرارها.. يتابع المسرح العالمي، والروايات العالمية، مثلما يتابع الكتب والمؤلفات الأدبية والثقافية والنقدية والسياسية.. تتعجب كيف كان يجد الوقت لتقديم كل هذه الترجمات إلى جوار الإبداعات والمؤلفات.. ترجمات " الحرية أو الموت " لكازانتزاكس، وروايتي " ابن البلد " و " الولد الأسود " لريتشارد رايت، ورواية " الأفق المفقود " Lost horizon لجيمس هيلتون، ورواية " العالم المفقود " للكاتب الإنجليزي السير آرثر كونان دويل (١٨٥٩ - ١٩٣٠)، الذي جمع بين الأدب والخيال العلمي، وبين التخاطب الروحي، وأبدع شخصية شرلوك هولمز الذي نسج حوله والدكتور واطسون العديد من الروايات البوليسية، وكتب كثيرا من الروايات، من أشهرها " العالم المفقود " التي قررت في آخر الخمسينيات على طلبة الثانوية العامة، وترجمها أيضا سعد زغلول نصار للهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر،

ونشرتها فى " كتب ثقافية " فى نوفمبر ١٩٥٩.. فضلا عن ترجمته أربعة كتب عن ثورة يوليو وجمال عبد الناصر .

القدرة على الترجمة، والمساهمة الملحوظة فيها، ليست بمعزل عن فهم رسالة الإذاعة واقتدار الأداء لها.. ليس فقط لأن الإذاعة متشعبة الخدمات تبعا للغات، بل تبعت القسم " العبرى " لإذاعة صوت العرب، وإنما أيضا لأن الترجمة فرع حقيقى على موسوعية واتساع معارف وثقافة الإذاعى التى هى مكن قدرته على الاضطلاع برسالة الإذاعة فى تنوير العقل وإثراء الثقافة.. كان العقاد يقول إن هناك من يستغرق فى حياته " حيوات " رجال.. هذه الخاصية ندح الاطلاع على منابع الثقافة والأدب والمعرفة.. تتعدد روافدها حين تتعدد المعرفة باللغات.. قد بكفى الساعى فى باحة الثقافة معرفة اللغات الأخرى ليطل ويعرف ما كتب وألف بلسانها، أما الترجمة فذلك كله وزيادة.. اختيار كتاب أجنبى لترجمته للعربية، ليس مهمة بسيطة، لأن المترجم مطالب مع نفسه وإراء الآخرين أن يقدم أفضل ما تنتجه القرائح الأجنبية، وأن يتخير منها ما يعبر عن قضية من القضايا التى تهم الإنسانية بعامة، وتعنى الوطن بخاصة.. وهذا الاختيار لا يتأتى للمترجم إلا إذا كان صاحب ثقافة عريضة، ومتابعا مستمرا لما تبثه المطابع العالمية كل يوم.. أما الترجمة ذاتها، فهى فى الواقع عملية إبداعية، لأن المترجم ليس مطالبا فقط بأن يكون على إمام واسع باللغة التى يترجمها، أو باللغة العربية التى يترجم إليها، وإنما يتعين أن يكون ملما بأسرار اللغتين والثقافتين، وأن يكون أدبيا صاحب أسلوب يستطيع به فى الترجمة أن ينقل روح النص فى لغته الأصلية إلى ما يوافقه فى اللغة العربية.

لم تكن اختياراته للترجمة اختيارات عشوائية، أو معزولة عن الرسالة التي آمن بها وعمل لها، نراه إلى جوار الانحياز لقضايا التحرير والتحرر الوطني في ترجمة " الحرية و/ أو الموت "، نراه مهتماً بالقضايا الإنسانية في ترجمة " الولد الأسود " و" ابن البلد " للكاتب الزنجي الأمريكي ريتشارد رايت، وكلاهما تومئ إلى تراكمات الظلم والتفرقة العنصرية في معاملة الملونين بالولايات المتحدة.. ثم نرى هذا الخط حاضراً في السلسلة بالغة العمق والعراضة التي كتبها عن أفريقيا ونشرتها تباعاً المساء الأسبوعي في أوائل الستينيات، وفي رحلته (١٩٦٨) على الأقدام وبطريقة " الأوتوستوب " في الربوع والسهول والمدن والأحراش الأفريقية التي تابعتها ونشرتها مجلة صباح الخير على مدى شهور، واستكملها بعد عودته في عمل بالغ التميز لأدب الرحلات.

هذه الأعمال التي خرجت من إشعاعات الإذاعة، عادت إليها.. إما معروضة في برامج كقرأت لك الذي عاش عشرات السنين في صوت العرب، أو في أشكال درامية أو نصف درامية، صدّى لفهم عريض لرسالة الإذاعة ووفاء مقتدر بحقها.

سعد زغلول نصار :

رباعية مصرية فرسان التراب الأسمر.. (*)

رباعية مصرية، دراما تليفزيونية تاريخية وطنية إنسانية، تغطي في ثلاثين حلقة ملحمة الكفاح الشعبى المصرى طوال قرن من الزمان، من قبل الحملة الفرنسية (١٧٩٨)، وحتى ما بعد الثورة العربية (١٨٨١) عبر ولايات محمد على وعباس الأول وسعيد وإسماعيل وتوفيق.. أركان هذا الكفاح رباعية " الشعب والأزهر والكنيسة والجيش "، فى مواجهة القصر والاحتلال، وميدانه الثورات الشعبية الأربع.. ثورة القاهرة الأولى (١٧٩٨) التى سرعان ما امتدت إلى باقى مصر ضد الاحتلال الفرنسى، ثم الثورة الثانية (١٨٠٠) التى فى أعقابها قتل الجنرال كليبر، ثم الثورة الثالثة (١٨٠٤/١٨٠٥) على حكم المماليك ثم على الوالى التركى، ثم الثورة العربية (١٨٨١) فى مواجهة السراى والحكم الاستبدادى الذى عصف بالبلاد.

نسج الأديب الإذاعي سعد زغلول نصار خيوط أحداث هذه الدراما الضخمة، من خلال أربعة أجيال لأسرة من الفلاحين المصريين. فى قرية من قرى الريف المصرى بين القاهرة والإسكندرية، يعيش الجد الأكبر الحاج إبراهيم "المكسيكى" .. شيخ طيب حكيم فى السبعين .. متين البنيان .. كان فى صباه جنديا فى جيش الفلاحين المصريين الذى أنشأه محمد على - بقيادات أجنبية - إبان ولايته (١٨٠٥/١٨٤٩) .. عاصر الجد بعض الحروب، وسرح أيام عباس (١٨٤٨/١٨٥٤)، ثم عاد إلى الصفوف أيام سعيد (١٨٥٤/١٨٦٣) .. وحين عاد إلى قريته بعد تسريحه نهائيا فى بدايات حكم إسماعيل (١٨٦٣) كان برتبة باشجاويش، ولبلائه فى حملة " المكسيك " (١٨٦١) أقطعوه أرضا فى قريته، وأصبح عمدتها .. لقبوه بالمكسيكى على سبيل المزاح وإيماء لما يحمله من حكايات عن المكسيك وعن الفلاح المكسيكى المقهور كما الفلاح المصرى ! .. هو إلى جوار ذلك خزانة حية من الذكريات والتجارب وحكايات السابقين .. يرويها فى حواراته وهو يقابل الكاشف والجابى وضابط الحفظية فى البندر، وفى مسامراته، وفى ملاحظاته مع صديقه الشيخ الجركسى الذى " راحت عليه " .. لا يكفان معا عن حديث الذكريات .. يذكر الشيخ إبراهيم المكسيكى أباه وجده أيام أن هربوا إلى بولاق القاهرة من مظالم المماليك فى الصعيد .. يتذكر الشيخ إبراهيم كيف شارك مع البولاكية "العترة" فى الكفاح ضد الفرنسيين (نابليون وكليبر) .. ويحفظ عن ظهر قلب بطولة ابن الأزهر الفتى سليمان الحلبي الذى قتل كليبر فأحرقوا يده اليمنى وأعدموه على الخازوق وعلقوا جثمانه مع ثلاثة من رءوس شيوخ الأزهر نهبا للعقبان ! .. يحلم كغيره من الفلاحين باليوم الذى يصير فيه

المصرى سيدا على أرضه.. يرضى غروره فى اعتلاء الجراكسة المنفوخين على الفاضى، أن يزوج ابنه " محمدین " من " بمبة خاتون " ابنة صديقه الجركسى.. يشق محمدین طريقه فى رعاية " ولى النعم " الذى أرسله واعظاً لبعثة الطلبة المصريين فى أوروبا، ليعود سعيداً بالجسور المفتوحة بين زوجته وبعض قريباتها وخدیناتها مرضعات أو " كلفوات " قصور الخديو والأمراء.. لا يجد بأساً على خلاف أبيه الشيخ إبراهيم المكسكى - من مصانعة طبقة الحكام والتقرب إلى " إسماعیل المفتش " شقيق الخديو إسماعیل فى الرضاع.. لولا تدخل أبيه الشيخ إبراهيم لدى شریف باشا المصرى العواطف، لئاله شر كبير فى مأساة إسماعیل المفتش.. محمدین ابن الجيل الثانى هو طريق النسيج الدرامى إلى حياة القصور والسلطة، وأيضاً إلى ملاهى وحانات وبيوت القبارصة واليونانيين وحتالة الأجانب !.. من صلب محمدین يخرج الجيل الثالث : " سلامة " الذى ورث طباع وشيم جده، ودخل المدرسة الحربية وعاصر أحمد عرابى (١٨٤١/١٩١١).. نموذج مختلف لمن لا يعجبهم الحال المایل للقصور الخديوية وملاهى الأجانب.. يعيش هموم الفلاح المصرى الذى أمضته السخرة وأثخنه محمد على وسلالته بالضرائب والمكوس التى طفق محمد على يجمعها بعد أن نزع ملكية جميع الأراضى المصرية وحولها إلى ضیعة شاسعة له يتصرف فيها لقاء ما يجتبيه !.. يعيش " سلامة " الأحداث التى عاشتها " جمعية حلوان " التى تعاطف معها كبقية العربیین الذین جعل يختلف معهم إلى بيت عرابى.. وإلى بيت البارودى (١٨٣٩/١٩٠٤)، ومجالس الأفغانى (١٨٣٨/١٨٩٧) وتلميذه محمد عبده (١٨٤٥/١٩٠٥)، ولا تقوته ندوات وأشعار عبد الله النديم)

١٨٤٥ / ١٨٩٦) لسان حال الثورة العربية.. مع اشتعال الحركة
العربية كان " سلامة " قد وصل إلى رتبة " صاغ " مثل زميله "
محمد عبيد .. كانت أمه الجركسية " بمبة خاتون " قد اضطرت على
خلاف رغبتها لمباركة زواجه من " أمينة " المصرية ابنة صديق جده
إبراهيم إبان أن كان شاويشا طوبجيا في طابية قايتباى بالإسكندرية..
ينخرط سلامة مع أمثاله من الشرفاء فى الحركة العربية، ويعيش
أحداثها ومعاركها بالإسكندرية ثم كفر الدوار ثم القاهرة ثم التل
الكبير.. يقاتل ضمن فرسان التراب الأسمر فى ملحمة التل الكبير..
فيها استشهد حيث يعثر جده إبراهيم على جثمانه على رمال الصحراء -
بينما زوجته " أمينة " تضع بالإسكندرية مولودهما " مجاهد " .. يتلقف الجد
حفيدة الأصغر برعايته وحده.. يكاد يرى فيه المستقبل الذى لم يحققه.. ما
إن يشب "مجاهد " عن الطوق حتى يصبح لرؤية الفتى مصطفى كامل
(١٨٧٤ / ١٩٠٨) طالب الحقوق الذى طفق يلهب مشاعر المصريين
ويؤجج الشعور الوطنى.. ما إن يراه الشيخ إبراهيم حتى ترسم أمامه
صورة حفيدة الشهيد " الصاغ سلامة " فيبتسم فى المشهد الأخير ابتسامه
عريضة وهو يحيط بذراعه القوية حفيدة الأصغر " مجاهد " !

فى خلفية القصة الإنسانية المجدولة بعناية وسلاسة، وعبر مشاهد
المسلسل الذى تضافرت فيه الوقائع المعاشة، مع القص والحكى، ومع
المزج والفلاش باك، تتوالى قصة الكفاح الشعبى الطويل.. مقاومة مظالم
المماليك، وصد ومقاومة الحملة الفرنسية، وثورات القاهرة المتتالية ضد
الفرنسيين - البطولات المصرية فى صد حملة فريزر الإنجليزية (١٨٠٧
)، والتفاف محمد على بعد خلاصه من المماليك لتصفية الزعامات

الشعبية.. ينفى عمر مكرم نقيب الأشراف بعيدًا عن الإسكندرية، ويثقل على الشعب بالضرائب والمكوس، ويجرد الحملات هنا وهناك فى الحجاز، والسودان، واليونان، والمورة، والشام، يقاتل فيها بفرسان التراب الأسمر خارج الديار، ليتضخم طموحه، ويعانى البسطاء ويدفعون الثمن ضرائب فادحة، ومعها تربص الباب العالى وحصار أوروبا التى سارعت إلى اتفاقية لندن (١٨٤٠/١٨٤١).. مأسى السخرة، حفر قناة السويس، وفتح الباب على اتساعه للاقتراض من الأجانب والغرق فى الديون وصندوقها، ومنح الامتيازات للأجانب.. تتصاعد مع تعاقب ولايات الأسرة العلوية عوامل القهر والسخط، ويئن الفلاحون من الضرائب، والسرأى موزعة بين الباب العالى ومصانعة الأجانب.. يتوالى تجمع أسباب الثورة فى عهد إسماعيل حتى تبلغ مداها فى عهد الخديو توفيق.. تتبدى مع المد الشعبى وأشعار البارودى والنديم وندوات الأفغانى ومحمد عبده، بطولات عرابى، والبارودى، ومحمود فهمى، وعبد العال حلمى، ومحمد عبده، وطلبة عصمت.. سرعان ما تتحول الحركة من المطالبة بإنصاف الضباط الوطنيين فى الجيش إلى حركة عامة اشتركت فيها طبقات وطوائف الأمة : الأزهر والكنيسة والشعب، إلى جوار الجيش، للتخلص من الحكم الاستبدادى وتقرير مبادئ العدل والحرية ووضع دستور يلبى مطالب الأمة.

يحكى مسلسل الرباعية المصرية، ملحمة فرسان التراب الأسمر عبر نضال طويل وسط رباعية الشعب والأزهر والكنيسة والجيش.. نضال لا تخطئه عين تجاه القصر الذى طفق وهو يدوس على حقوق الشعب - يصانع الباب العالى، ويراضى الأجانب، ولا يبالي بما يتجرعه البسطاء

من ألوان البؤس والقهر والشقاء.. هذه الرباعية المتقابلة، بين قوى الكفاح وميادينه.. هي صراع الشعب بعامة في مواجهة السراى الذى تسرب الآن إلى الناس - بوعى أو بغير وعى - أنه لم يكن هناك تناقض بين قاطنى أبراجها وبين الشعب، وأن ثورتنا - من ثم ! - كانت هباءً بغير موجب، وأن مشروعنا القومى سراب مصطنع بلا طائل !

هذه الرباعية المصرية التى كتبها سعد زغلول نصار، وتراخى إنتاجها بعد وفاته ومن بعده يحيى العلمى الموكول إليه إخراجها.. هى هدية للشعب المصرى بعامة، وعرفان وتطامن للفلاح المصرى بخاصة.. فارس التراب الأسمر، الذى لفحته الشمس زارعاً، وحرقتة الحروب والأعاصير مناظلاً.. هذا الفلاح الذى أذاقه قاطنو السراى كل ألوان القهر على تراب بلده، فهل كانت هذه السرايات فى جانب هذا الشعب تحس بأحاسيسه وتنشغل بهوميه ومتاعبه وآماله، أم أن " البوصلة " قد ضلّت فى زمن التّيه ورياح التخذيل والتراجع !!!

من مفارقات الأقدار أن يغادر سعد زغلول نصار دنيا دون أن يرى ما أبدعه فى هذه الدرة المتميزة من درره التى طرحتها شجرته وفروعها فى شتى المجالات من عباءة الإذاعة التى عاش حياته وفيّا لها ممزوجاً بنسيجها معبراً فى كل ما قدمه عن رسالتها !

سعد زغلول نصار :

رسالة الإذاعة والمشروع القومي (*)

من تابع ويتابع الإذاعة المصرية التى اقتربت احتفالات عيدها الماسى. يرى كيف أن المشروع القومى المصرى/العربى حاضر على الدوام فى بثها وفى مادتها، ومن الطبيعى أن يكون أكثر حضوراً فى إذاعة صوت العرب التى مثل هذا المشروع رسالتها الأساسية. فى صوت العرب عاش الأديب الإذاعى الموسوعى سعد زغلول نصار معظم عمره 'الإذاعى قائماً برسالته، مؤمناً حتى النخاع بالمشروع القومى.. عالجه كما رأينا فى الدراما التليفزيونية : " رباعية مصرية "، وفى تمثيلية " مصر المحروسة "، وفى المسلسل الإذاعى " الثورة المضادة "، وفى التأليف المسرحى بمسرحية : " ولادك يا مصر "، وتبناه أيضاً فى المقالات المباشرة، وفى دراسته عن ثورة يوليو التى نشرت بالمساء الأسبوعى (١٩٦٣)، وعن الاتجاهات الإنسانية فى هذه الثورة، وفى

مئات الحلقات التى تناوب كتابتها مع إذاعى " صوت العرب " فى برنامج " حوار مع مستمع "، وفى تعليقاته السياسية، وفى برنامجه الأسبوعى " من القلب للقلب " .. وفى رسائله اليومية الإخبارية التحليلية التى جعل يرسلها بصوته كل يوم على مدار عام كامل (١٩٩٠/١٩٩١) لإذاعة قطر تتابع بتغطية شاملة وتحليلات سياسية واستراتيجية تطورات وأخبار وتداعيات حرب الخليج التى فجرها غزو صدام حسين للكويت وما نجم عنه من شرخ فى الجدار العربى أضنى ابن صوت العرب القديم الذى عاش حياته فى قلب المد القومى المصرى العربى .. لم يكن سعد زغلول نصار معنيا بالتشددات والصرخات العنترية، ولكنه أحب جمال عبد الناصر وآمن به وبمشروعه القومى، وكتب عنه المقال والبرنامج الإذاعى، ولكنى أحب أن أتوقف معك عند عمل آخر له يعبر عن نفاسة معدنه وثراء ثقافته وصدق وعمق فهمه لرسالته، حين ترجم أربعة كتب عن القائد والثورة .. إلى روح أشجع الرجال، وأطهر الرجال، وأخلد الرجال : جمال عبد الناصر، كتب سعد زغلول نصار يهدى كتابه الذى نشرته الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر عام ١٩٧١، وفيه عرض بالعربية أربعة كتب عن القائد والثورة : كتاب الرئيس The Boss تأليف الكاتب الأمريكى روبرت سان جون، وصدر عام ١٩٦٠ فى نيويورك فى (٣٢٥) صفحة بالقطع الكبير، تحت عنوان The Boss. The story of Gamal abd Naser، وكتاب " الجيش المصرى فى السياسة "، للكاتب الأمريكى ب. ج. فاتيكويتيس، وكان قد صدر بإضافات جديدة عام ١٩٦٠ بعنوان The Egyption Army In Politices، وكتاب " مصر فى انتقال " : للكاتبين الزوجين

الفرنسيين جان وسيمون لأكوتير، وصدر في باريس ١٩٦٢ وعرضه سعد زغلول نصار عن نسخته الإنجليزية التي كانت قد صدرت بعنوان Egypt in Transition، أما الكتاب الرابع فعن : " الإصلاح الزراعى وتطویر الأرض " للكاتبة الإنجليزية دورين وارنر، وصدر في لندن عام ١٩٦١.. اختيار سعد زغلول نصار لهذه الكتب الأربعة، وعرضها بالعربية، خلال شهور من رحيل عبد الناصر، يؤكد أنه كان متابعاً جيداً لأهم ما يكتب في الغرب عن مصر، وقادراً بحكم هذه المتابعة الواعية على اختيار ما يقدم أو ينقل إلى العربية.. يقدم لهذا العمل اللافت الذى غطى أهم جوانب الثورة المصرية وعبد الناصر.. بأنه " بقدر ما كان عبد الناصر ظاهرة جديدة فى هذه الحقبة من التاريخ، وبقدر ما كان نموذجاً من قادة التحرر الإنسانى أمام الشعوب فى كل أرجاء الدنيا.. بقدر ما كثرت الكتابة عنه بمختلف لغات العالم فى محاولة للوصول إلى كنه هذه الشخصية الأسرة وكنه المثل والمبادئ التى آمن بها وعمل على تحقيقها.. وللوصول إلى الأسباب التى تكمن وراء ما لقيته هذه المبادئ والمثل من نجاح لدى الجماهير العربية.. يحصى - رحمه الله - فى تقديمه للكتب الأربعة - صدور قرابة الثلاثمائة كتاب عن القائد والثورة، من العدو والصديق، القيمة المضافة فيما ترجمه عما كتب عن عبد الناصر والثورة، أنه ينقل إلينا رأياً قادماً من بعيد، من أرض غير أرضنا، وعن رؤية غير رؤيتنا، بعيدة عن شبهة الممالأة أو التزيين، يتضح منها على اختلاف مشاربها أن هذا الزعيم ظاهرة جديدة بالاحترام لا تتكرر كثيراً على المستوى الإنسانى، وكيف كان مثلاً نادراً للتجرد والإخلاص. لم يكتف الإذاعى الأديب - فى وداع عبد الناصر - بمقال أو برنامج، وإنما

بذل هذا الجهد الجهد المعبر عن ثقافته الموسوعية وفهمه العميق لرسالته ليقدم إلى العربية أربعة كتب لكتاب غربيين تغطي أهم جوانب ثورة يوليو وعبد الناصر. ربما كان واجبا أن نتذكر مثل هذه الأعمال القيمة ليعاد نشرها في أعياد الثورة أو ذكرى زعيمها لتكون احتفالاً موضوعياً لافتاً للقيم الحقيقية التي طويت عليها وبشر بها ورعاها زعيمها الراحل !

هذا الحس القومي والإيمان بقضايا الحرية، وهذا الانتماء للمشروع القومي المصري/ العربي، بكل ما يعكسه من قضايا الحرية بعامة، كان حاضرا في كثير من الأعمال التي كتبها سعد زغلول نصار أو ترجمها.. نراه يترجم للكاتب الشهير كازانتزاكس رائعته : " الحرية و/أو الموت " Freedom and death وهي رواية عن ملحمة تحرير كريت.. لا تقل روعة عن روايته " زوربا اليوناني " التي جسدها سينمائيا القدير أنتوني كوين.. أروع ما في كازانتزاكس ريشته الرائعة في التصوير والوصف وتحليل الشخصيات، وغوصه الدقيق في أعماق النفس البشرية، والتزامه بقضايا الإنسان المعاصر وهمومه.. البطل عنده ليس بطلاً أسطورياً، وإنما هو الإنسان بقوته وضعفه.. بمزاياه ونقائصه.. لم يجعل من الكابتن ميخائيليس بطل " الحرية أو الموت " بطلاً أسطورياً أو سوبر مان، ولا نزع كل المزايا عن عدوه المحتل التركي نوري بك، وإنما جعل يجدل قصة تحرير كريت في بناء واقعي يصل إلى قمة التراجيديا حين يقتل الكابتن ميخائيليس معشوقته زوجة نوري بك.. هل قتلها لصالح كريت فيما يصور لنفسه حتى لا ينشغل بها عن النضال رفيقه الكابتن " بوليكسيجس "، أم قتلها لأن الإنسان في داخله يحب ويغار؟!.. هل كان بطل الرواية بطلاً بذاته، أم كان صنيعة الأحداث.. ألم تحول هذه

الأحداث المدرس القارئ المسالم : ابن أخ الكابتن ميخائيليس، إلى بطل يؤثر الموت مناضلاً إلى جانب عمه (!؟) في هذه الدراما حول " الحرية أو الموت " التي ترجمها سعد زغلول نصار في تمكن واقتدار ونشرتها روايات الهلال (أبريل ١٩٩٢) بمقدمة تنوه بالصرح الأدبي العملاق وبأن المترجم : " أحد ألمع نجوم الإذاعة والترجمة في عصرهما الذهبي ". أما الحديث عن الترجمة فهو حديث متشعب، يشمل المترجم نفسه، والمادة المترجمة، والمتلقي، ودور الترجمة في التقدير المعرفي، والاتصال بين الثقافات، والتنمية الثقافية، والتعرف على ثقافة الآخر بعامه وتنشيط الواقع الثقافي، وإثراء الحوار الحضاري.. الترجمة في الواقع والهدف نافذة للعلم والثقافة تطل على العالم وتغترف وتنقل ما فيه من علوم ومعارف وثقافات وتجارب وخبرات.. ما دور المترجم هذا كله : هل هو محض مترجم أم مؤلف ؟.. ما أهمية المعرفة أو الموهبة الأدبية في الترجمة.. ألسنت تجد فارقاً في النغم والمعمار بين ترجمة كل من أحمد رامى وعبد الرحمن صدقي لرباعيات الخيام ؟!.. ألسنت تجد فارقاً ملموساً في الترجمات المتعددة لديوان الشاعر بودلير : " أزهار الشر " ؟.. كيف يصير النص الأجنبي نصاً عربياً ؟.. ما دور الترجمة في نقل الأدب العالمي شعراً وقصاً ومسرحاً ورواية ؟.. ما طبيعة وكنه الصلة بين الترجمة والأصل ؟.. ما هي عناصر تكوين الشخصية الثقافية للمترجم بين العمومية والتخصص ؟ تجمع الدراسات وتجارب الواقع على أن مستوى الترجمة فرع على ثقافة ومواهب المترجم.. هذه المواهب التي دعت عديدين من المبدعين لتلبية دعوتها والإقدام على ترجمات متميزة اقتطعوا لها أوقاتاً ثمينة مما

يخصصونه لإبداعهم - إيماناً منهم بقيمة ودور الترجمة في إثراء واقعنا الثقافي.. كان المرحوم سعد زغلول نصار مقدمة جسر ممدود خارج من الإذاعة المصرية، مؤمن برسالته، فاهم لدورها، مشغول بكل ما يتضافر مع دورها في التنوير والتثقيف بعامة، وفي رعاية المشروع القومي المصرى/ العربى بخاصة.. هذه الرعاية التى عاش سعد زغلول نصار وفيها لها حياته صارفاً همه وعلمه وثقافته وأدبه وموهبته وفنه لخدمتها بإخلاص وقور بغير تشنج أو تظاهر أو استعراض !

سعد زغول نصار :

الترجمة بين التنوير والإبداع (*)

الحديث عن الترجمة، حديث حاضر على الدوام، فهي نافذة تفتح على الفكر العالمي، وتضيف إلى العربية إضافات تصب في الفكر والعلوم وفي الإبداع.. لا تستطيع أمة أن تتغلق على نفسها وتقطع بينها وبين ما ينتجه العالم وتبدعه قرائح أدبائه وفنانيه، وعقول علمائه ومبتكرات اختراعاته.. هذه الترجمة لعبت وتلعب دوراً بالغ الأهمية في الإطلال على العالم، مثلما تتيح الترجمة العكسية من العربية إلى اللغات الأخرى فرصاً واسعة لتعرف العالم علينا وعلى إنتاجنا العلمي والأدبي والثقافي والإبداعي.. وتفتح لمفكرينا وأدبائنا مجالات واسعة للانتشار والتأثير، وتقيم هذه وتلك جسوراً حية وفهماً متبادلاً بيننا وبين شعوب العالم.

ومكانة الترجمة إلى العربية، وأثرها على الأمة العربية بعامه - مكانة قديمة، لعبت من خلاله دوراً حضارياً بالغ الأهمية في تاريخنا القديم

والحديث، لم يقتصر فقط على المساحة النشطة التي شغلتها مع بداية النهضة العلمية التي عرفتھا مصر في عهد محمد على، وإنما كانت ومن قبل ذلك عاملاً أساسياً في الانفتاح الواعي على الثقافات المحيطة في العصر العباسي الذي تجاوز بكثير المحاولات الأولى للترجمة التي جرت في العصر الأموي.

بفضل هذه الحركة التي ما انقطعت إلا لتعود إلى التواصل، انفتحت الحضارة العربية على التراث الإغريقي، وأدى معبر الأندلس الإسلامية إلى احتكاك ثقافي تبادلي بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية وإلى قيام ثم ازدهار حركة الترجمة العكسية بين العربية واللاتينية، مع احتكاك على الناحية الأخرى بالثقافة الشرقية الهندية والصينية عبر الدولة الغزنوية، واقتربت حركة الترجمة النشطة بالهجرة التبادلية بين الفلاسفة والعلماء والأدباء، وإلى تلاقح امتد في كل مجالات العلوم والطب والفلسفة والرياضيات والفلك والفكر والأدب، وإلى ذلك كله ترجع المكانة المرموقة التي بلغتھا الحضارة العربية في العصر الوسيط، وهو الذي دعا مصر في نهضتها الحديثة بعد بعوثها إلى فرنسا إلى إنشاء مدرسة الألسن (١٨٣٥) التي كانت نواة بالغة الأهمية في تأهيل المترجمين وتمهيد الأرض لإحياء حركة الترجمة والتي ساهم فيها مثقفو الشام بدور ملحوظ إلى جوار المصريين.

الاقتناع بدور وأثر الترجمة في التنوير بل الإبداع، كان قاسماً مشتركاً لدى النقاد والمثقفين والمبدعين، وقد رأينا في حديثنا عن الإذاعة كيف كان الإذاعي الموسوعي سعد زغلول نصار واحداً من الذين ضربوا بمعاولهم بدأب وإخلاص في حقل الترجمة واستتبوا تربتها قبل

إنشاء المركز القومي للترجمة.. كان الإقبال على الترجمة محاولات فردية بإمكانيات فردية وبرؤية فردية يستقل بها المترجم اختياراً وأداءً، ويستطيع المتابع لحياتنا الثقافية أن يرى المحاولات الفردية التي بذلها الرعيل الأول وترجموا بها إلى العربية كثيراً من نفائس الفكر والأدب العالمي.. بهذه الترجمات أطللنا على روائع الأدب العالمي فى الرواية والشعر والمسرح والقصة القصيرة، وتعهدت بعض السلسلات الدورية بنشر هذه الترجمات بأثمان زهيدة. على أن الجميل اللافت أن الإقبال على الترجمة لم يكن فقط اهتمام أساتذة اللغات والنقاد، بل اقتنع بأهميتها وأقبل على الإسهام فيها مبدعون، ربما كان الأقرب أن يصرفهم الإبداع أو تصانيف التأليف عن الترجمة.. الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى وصاحب الإنتاج الغزير فى المباحث الإسلامية، وفى النقد والأدب، وفى القصة والرواية، وفى الأدب التمثيلى، وفى التراجم والسير، وفى التربية والاجتماع والثقافة - نراه يترجم من الأدب اليونانى أوديب ملكا، وأنتيغونا وألكترا وروائع أخرى لسوفوكليس.. والأستاذ الأديب إبراهيم عبد القادر المازنى صاحب معركة وكتاب الديوان مع العقاد، وكاتب حصاد الهشيم وفبض الريح وخيوط العنكبوت وإبراهيم الكاتب وصندوق الدنيا - نراه يهتم اهتماما بالغا بالترجمة، بل ويكتب فى طرقها وأساليبها، ويخوض بنفسه مضمارها فيترجم "ساتين" أو "ابن الطبيعة" لأرثر يباشيف، ومختارات من القصص الإنجليزى لأوسكار وايلد وآخرين، و"جريمة اللورد ساقيل" لأوسكار وايلد، و"آباء وأبناء" لإيفان تورجنيف، و"مدرسة الوشايات" لشريدان، و"آلن كوترمين" باسم: "الشاردة" لسريدر هجر. الذى قد لا يعرفه كثيرون، أن كاتبنا الفذ يحيى حقى، صاحب الدراسات النقدية،

وصاحب إبداعات " قنديل أم هاشم "، و" البوسطجى "، و " أم
العواجز "، و " صبح النوم "، و " امرأة مسكينة "، و " دماء وطن "،
و " الفراش الشاغر " - كان مؤمنا حتى النخاع بأهمية الترجمة ودورها
فى تحريك الحياة الثقافية، وترجم هذا " الاعتقاد " إلى ترجمات متميزة
نهض عليها مقتطعا لها جانبا كبيرا من وقت اهتماماته الإبداعية والنقدية..
ترجم " الأب الضليل " لأديث سوندرز عن قصة حياة الأب الضليل : "
الكسندر ديماس " الكبير - مؤلف الفرسان الثلاثة، والكونت ديمونت
كريستو، وهو الأب غير الشرعى لألكسندر ديماس الابن مؤلف "
غادة الكاميليا "، وترجم " البطلة " لميخائيل سادوفيانو، و" لاعب
الشطرنج " لستيفان زفايج، وكتاب " القاهرة " (فى عيدها الألفى
(لدموند ستيوارت، ومسرحية " كنوك " أو "انتصار الطب" التى قام
عليها مجد مؤلفها جيل رومان، ومسرحية " الطائر الأزرق " لموريس
ميترلينك التى نشرتها معها دار المعارف بذات المجلد ضمن مسرحيات
يحيى حقى المترجمة، فى احتفاء واضح بالترجمة والمترجم وما اختاره
ليترجمه باقتدار لعملين متميزين من المسرح العالمى.. كانت حركة
الترجمة على قدم وساق فى الستينيات والسبعينيات قبل أن تدخل
مؤسساتنا الثقافية بثقلها هذا المضمار، وقبل تشكيل المركز القومى للترجمة
الذى اختارت له وزارة الثقافة الأديب الناقد الكبير الدكتور جابر عصفور
صاحب الحضور اللافت والنشاط الكبير فى حياتنا الثقافية.

الدكتور لويس عوض، أحد الفرسان الكبار وأعلام التنوير الذين
ضربوا بمعاولهم عن علم وفهم واستنارة - فى مضمار الترجمة. فهو فضلاً
عن كونه أستاذ اللغة الإنجليزية القدير، فإنه من كوكبة الموسوعيين الذين

انفتحوا على الفكر الإنسانى بعامة، وعلى منابع الأدب والثقافة العالمية فى كل باب، وانعكس ذلك فى إنتاج غزير، أخذت الترجمة نصيباً كبيراً منه، فترجم : " فن الشعر " لهوراس، و " بروثيوس طليقاً " للشاعر شلى، و " صورة دوريان جراى " و " شبح كانترفيل " لأوسكار وايلد، وثلاثية أوريست لأسخيلوس : " أجا ممنون " و " حاملات القرابين " و " الصافحات "، و " خاب سعى العشاق " لشكسبير.. لم يقتصر عطاء الدكتور لويس عوض على الترجمات التقليدية، وإنما نقل أيضاً لقراء العربية حصاد مشاهداته الحية فى رحلاته نصف السنوية التى كان الأهرام يوفده فيها إلى أوروبا لمشاهدة أحدث ما يقدم على مسارح إنجلترا وفرنسا، ويتابع عن قرب تطورات الاتجاهات الفكرية والأدبية والفلسفية، فكانت مقالاته سنة ١٩٦٩ التى جمعت فى كتابه : " الفنون والجنون فى أوروبا ١٩٦٩ " - (كتاب الهلال - يناير ١٩٧٠).. ضم آخر تطورات الحركة المسرحية ومشاهداته لزهاء خمس عشرة مسرحية فى مسارح لندن وباريس، وعرض فيه أيضاً دراسته لثورة الشباب الأوروبى والأمريكى التى تبلورت آنذاك فيما سمي حركة " الهيبز " وما نبع عن هذه الحركة من سلوك وفن وفكر. من هذه الصور الحية - مشاهداته عام ١٩٦٤ للمهرجان والاحتفالات التى أقيمت فى " ستراتفورد " مسقط رأس شكسبير وفى إنجلترا بعامة بمناسبة مرور أربعمئة سنة على مولده، وتابع فى مقالاته التى نشرت آنذاك فى الأهرام وجمعت فى كتابه " البحث عن شكسبير " (كتاب الهلال - فبراير ١٩٦٥) حصاد متابعاته ومشاهداته للحركة المسرحية عبر هذه الاحتفالات فى كل من إنجلترا وفرنسا، كما عالج فيه أهم القضايا الشكسبيرية وأسرار حياة هذا العبقري

وفنه.. وقدم فى كتابه : " رحلة الشرق والغرب " (اقرأ العدد ٣٥٤ - يونية ١٩٧٢) حصاد مشاهداته ومتابعاته فى رحلته الروسية واليوغوسلافية (أغسطس ١٩٧٠)، ورحلته الأمريكية (أكتوبر ١٩٧١)، والأوروبية (فبراير ١٩٧٢).. بهذا التمكن الذى أتاح له هذه المتابعة الحية، عالج فى كتابه الضخم " المسرح العالمى " أهم المسرحيات العالمية منذ أيام الإغريق لأسخيلوس وسوفوكليس، عبوراً بمسرحيات آرثر ميللر ومسرحيات راسين وأبسن وأوسكار وايلد وبرنارد شو وجوركى وبيراندلو ويوجين أونيل وتيتسى وليامز وشكسبير الذى خصه بدراسات أوسع، والتأم هذا العطاء الضخم المتميز بما كتبه : " فى الأدب الإنجليزى الحديث "، وفى " دراسات فى النظم والمذاهب "، وفى كتابه الأخير الإضافى عن " الثورة الفرنسية ". كان الدكتور عوض جامعة شاملة يسر لقراء العربية - بإنتاجه المتميز الغزير - مساحة هائلة فى دراسة المسرح والرواية والنقد والآداب بعامة، وظل على مدار نصف قرن لا يكل عن تقديم كل جديد متميز فتح به نوافذ بالغة الأهمية والخصوبة على آخر إنتاج العالم فى الفن والمسرح والفكر والرواية والمذاهب السياسية والحركات الفلسفية.

أخشى أنه برغم الجهود الفردية الثرية، كالتى يقدمها فى عراضه وعمق العلامة الجليل الدكتور محمد عنانى الذى ترجم معظم أعمال شكسبير وأعمال لميلتون وبايرون وأليكس هيلى، ودرر المفكر العربى الأصل إدوارد سعيد : " الاستشراق "، و " المثقف والسلطة " و " تغطية الإسلام ".. ورغم الاهتمام المتزايد للمجلس الأعلى للثقافة بالترجمة، والملتقيات الدولية التى يعقدها تبعاً وينشر بحوثها، وقد أفدت إفادة جمّة من ملتقى الترجمة ومجتمع المعرفة الذى حضرته فى فبراير ٢٠٠٦ -

إلا أننا لا نزال نحتاج إلى الدور المتميز الذى كان يؤديه الدكتور لويس عوض بنقل متابعاته ومشاهداته الحية برحلاته التى كان يعود منها عامر الوفاض بدرر، ما أحوجنا أن نواصل الإطلاع عليها فى زمن صارت الترجمة باباً لا غناء عنه للإمام بما يموج به العالم من جديد فى كل باب !

الأدب والفنون والسير الشعبية

والجسور العربية (*)

أتاحت لى الكتابة فى الأسابيع الماضية، عن العمل الجليل الذى أنجزه وينجزه مركز توثيق التراث الحضارى والطبيعى، أن أطوف بالتراث الشعبى .. معتقداته وعاداته وتقاليده وآدابه وفنونه وسيره وملاحمه وأساطيره وموويله وأغانيه وأشعاره وحرفه ومنتجاته .. وأن أجمع ما كان مبعثراً فى الذاكرة - أو المكتبة - من معلومات ومؤلفات متفرقة وضعها الأعلام ومن اصلوا من بعدهم، وبذلوا فى جمعها وتحليلها جهوداً مضيئة صارت بها - مع العمل الرائع لمركز توثيق التراث - فى متناول الباحث تبعاً لغوصه وتحليله لاستنطاق ما تراكم على مر الدهور .. قيمة هذا التراث أنه تعبير تلقائى عن الناس .. انبعث - كما ينقل رشدى صالح عن " هويتان " - من عمل أجيال عديدة من البشرية من معتقداتها ومعارفها وأفراحها وأحزانها وضرورات حياتها .. أساسه العريض قريب من الأرض التى شقتها الفئوس، أما شكله النهائى فمن صنع الجماهير المغمورة المجهولة .. أولئك الذين يعيشون لصق الواقع !

لا يخطيء الجائل فى الأدب والفنون والسير الشعبية، كيف حملت
أصداءً من هنا وهناك بالمنطقة العربية فى دلالة تلقائية واضحة على
الجسور الممتدة بينها منذ فجر التاريخ، لم تمنع خصوصية الأدب الشعبى
والفنون الشعبية فى بعض البلدان والأقطار، مثلما لم تمنع فى أقاليم القطر
الواحد، من وجود قواسم مشتركة وأصداء متلاقية تورى بأن الأدب والفن
الشعبى فى المنطقة العربية بعامة - دليل على اتصال وتواصل وامتزاج
وتفاعل وانصهار لم يصنعه قرار، وإنما عبر تعبيراً تلقائياً للإنسان العربى
فى أدبه وفنه وشعره وسيره، شفاهةً وكتابةً، فقام هذا التراث شاهداً تلقائياً
لا يستطيع أحد أن يغض دلالاته على الجسور الممتدة فى قلب وأطراف
المنطقة العربية والضاربة فى أعماق السنين.

ترى هذا الامتزاج شاخصاً وأنت تتابع كيف كانت مقامات بديع
الزمان والحريرى مقدمة لنشأة " خيال الظل " الذى كتب عنه الدكتور
عبد الحميد يونس يقول : " المقامة فى أصلها أدب تمثيلى، وأنها من القيام
فى دار الندوة إبان العصر الجاهلى "، و" أنها كانت تمثيلاً مباشراً متواصلأ
يقوم به ممثل فرد " .. عادت المقامة من حيث بدأت، وجعلت تتطور حتى
دخلت المسرح عن طريق " خيال الظل "، ومنها جعلت تتطور فنون
الفرجة والعرض المسرحى. موجات التأثير بهذه المقامات عبر خيال الظل
وما أدى إليه، عمت أصدائها المنطقة العربية طولاً وعرضاً.. ترى هذا
جلياً وأنت تتابع ما كتبه الأستاذ فاروق خورشيد رائد الأدب الشعبى، فى
كتابه الضافى " الجذور الشعبية للمسرح العربى ". فيه تتبع الموروث
الشعبى وملاحمه الدرامية فى القول والأحلام والكهانة والسحر والجنون،
ينطلق من قاعدة أن التراث الشعبى شامل يعنى عالماً متشابكاً من

الموروث الحضارى، والبقايا السلوكية والقولية التى بقيت عبر التاريخ، وعبر الانتقال من بيئة إلى بيئة، ومن مكان إلى مكان، فى المحيط العربى وفى ضمير الإنسان العربى. منذ مطلع التاريخ وهذه المنطقة - فيما يقدم فاروق خورشيد لعمله - مرتبطة ارتباطاً كاملاً باعتبارها بؤرة جغرافية موحدة المصالح والموقف التاريخى وتتبادل مراكز النقل الحضارى من الشرق والغرب والجنوب، وهذا التواصل والاستمرار فى تبادل المعلومة والمعرفة العامة، والإبداع الفكرى والفنى، كفل نوعاً من التزاوج العرقى والاجتماعى والفكرى، وجعل تبادل الفكر سمّاً عبر عن نفسه فى تراثنا الشعبى، وفى مسرحنا العربى.. يتابع فاروق خورشيد بحثه عن الملامح المسرحية فى الموروث الشعبى فى كتابات الأقدمين ومعالجات المحدثين، وعن أثر الزار فى المسرح المعبدى، ودور " خيال الظل "، ماراً بما كانت تمثله فى القديم مجالس السمر وما يرويه القصص الذى يحكى حكايات الماضى وقصص الأولين، ودور " المقامة " فى التمهيد للمسرح. هذه الانعكاسات التبادلية فى المحيط العربى قد استلهمت السير الشعبية والأشعار وألف ليلة وليلة، وكلها ذات مضامين عربية، قدمت المادة العربية الشعبية التراثية للبدايات المسرحية الأولى فى المحيط العربى بعامة، متمثلة فى مسرح الشارع.. فى ملاعب اللهو والبهلوانات والسيرك والحواة الذين يلعبون بالثعابين ومروضى القروء، وملاعب المصارعين والملاكمين والمبارزين وضاربى الودع وفتح الرمل ونافخى النيران وأماكن مصارعة الديكة، وفى فنون المخيلة التى تمثلت فى خيال الظل وصندوق الدنيا والأراجوز وعروض فرق المحبطين، والتى ربطت فى النهاية بين إرهابات المسرح العربى الشعبى هنا وهناك ثم بالمسرح

بل والأدب المعاصر الذى لا يزال للآن يستلهم التراث الشعبى العربى فى ألف ليلة وليلة وفى غيرها.

أمارات وشواهد هذه الجسور موجودة ظاهرة فى العادات والتقاليد.. وفى القصص والسير والأساطير والمأثورات الشعبية.. وفى الكتابات عن التراث الشعبى حتى وإن لم يعن الكاتب بالإشارة الصريحة إليها.. تراها - ما دمنا قد تكلمنا عن المسرح، فى كتب على الراعى عن " مسرح الشعب " : الكوميديا المرتجلة، وفنون الكوميديا من خيال الظل إلى نجيب الريحانى.. فى كتابى رائد الأدب الشعبى الدكتور عبد الحميد يونس عن الظاهر بيبرس، وعن الحكاية الشعبية.. فيما كتبه الدكتور شكرى عياد عن البطل فى الأدب والأساطير، وفى كتابات أحمد رشدى صالح عن الفنون الشعبية والأدب الشعبى. فيما كتبه فاروق خورشيد فى أدب وفن السيرة، وفى أدب الأسطورة عند العرب، وفى إبداعاته التراثية : حبطلد بظاظا، وعلى الزبيق، وملاعبب على الزبيق، وسيف ابن ذى يزن ومغامراته، وفيما كتبته الدكتورة سهير القلماوى عن ألف ليلة وليلة وما تضمنته من سير شعبية كسيرة الأميرة ذات الهمه.

ولعل السير الشعبية من أبرز عناصر التراث الشعبى دلالة على الاتصال والتواصل والتفاعل والامتزاج والانصهار فى المحيط العربى. فسيرة عنترة بن شداد ضاربة فى العصر الجاهلى والمعقات، ممتدة إلى ما بعد ظهور الإسلام. ومع أن حيز وقائعها كان فى شبه الجزيرة العربية، فإنك تلمح آثارها وعلامات الانصهار فى سيرة ذات الهمه التى شبهت بطلها " الصحاح " بعنترة بن شداد، وكذلك سيرة حمزة البهلوان، وفى كثير من السير الشعبية التى بدا تأثرها بسيرة عنترة بن شداد فى

التشبيهات وفى طريقة رسم الأبطال ووصفهم وفى تقليد الأحداث. تجد المشكلة الاجتماعية الحاضرة فى سيرة عنتره، حاضرة أيضا وشاغلة للمجتمع العربى هنا وهناك فى كثير من السير والموروث الشعبى بعامه.. وكيف يرجع الانتباه إلى عيوب الرق والتفرقة العنصرية إلى سيرة بلال ابن رباح وسلمان الفارسى وعبادة بن الصامت فى الإسلام.. عن تأثير سيرة الأميرة ذات الهمة، كتب الدكتور فؤاد حسنين : " وقد أثرت تأثيرا كبيرا فى العالم الإسلامى حتى أن الأديب التركى ابتدع قصة أخرى تستمد من قصصنا العربية خيالها وبعض وقائعها، وهى التى تعرف باسم سيد البطال " .. بل إن سيرة ذات الهمة تعكس صراع الأمة العربية بكاملها تجاه الغزو الأجنبى وأمام دولة الروم. أما سيرة الظاهر بيبرس فتكاد أن تكون امتدادا لسيرة الأميرة ذات الهمة من الناحية الزمنية، وفيها تلمح كيف اتسع فى السيرة مدلول كلمة " عربى " اتساعاً ضخماً يشمل التركيب الاجتماعى السائد فى المنطقة كلها التى تجمعها مصالح مشتركة ويهددها خطر واحد وتدين كلها بتعاطف من عناصره : الدين واللغة والامتزاج الذى انعكس فى إحساس حاضر بالتوحد. تجد الأبطال والشخصيات تدور بين الأكراد والأيوبيين، وبلاد فارس وإيران، وبعضهم من الأتراك كالظاهر بيبرس. وآخرون من أبناء سيناء كشيحة الذى يعود نسبه إلى غزة، وبعضهم ينبع من حوارى القاهرة، وآخرون من الشام ومن المغرب ومن طنجة بمراكش. حين تبدأ أحداث سيرة الظاهر بيبرس الخروج من مصر إلى المحيط العربى كله، تراها تتجه منذ المناوشات الأولى للحروب الصليبية إلى الاتجاه القومى فى مواجهة هذا الغزو الصليبي، وتنعكس بذلك عناصر

التوحد بين أبناء المنطقة العربية، وتجعل من هذه المنطقة مجالاً واحداً تتحرك فيه روح المجتمع.

كنت أتمنى أن استخرج لك أكثر وأكثر من أمارات هذا التوحد الذي يهون على البعض ضربه هذه الأيام، أو الادعاء بأنه محض أضغاث أحلام. أبلغ رد على هذا التهوين، هو ما صنعتها الأجيال عبر الزمان من تراكمات تلقائية لتراث عريض في الأدب والفن والشعر والسيرة، وفي التقاليد والمعارف والآداب — يشهد بوحدة الامتزاج والمصير، وبأن هذا التوحد عصي على أى دعاوى أو محاولات للبلقنة والتفتيت !

الرياضة المصرية، وأمراض المظهرية ! (*)

لست من النقاد الرياضيين، ولست أحب أن أقترح عليهم مضمارهم مع أنني أمضيت عمرى لاعباً هاوياً ممارساً لمعظم الرياضات، ولا أزال أمارس ما يتحملة العمر ويطيقه وهن التقدم فى السن، بيد أن عذرى أو شفيعى فى هذا التطفل أن الأمر ليس أمر رياضة وكفى وإنما هو مصير وطن وبناء بنية أمة.. هذه المعانى هى التى حدثنى عام ٢٠٠٢ إلى كتابة مقال موسع عن الرياضة المهيضة فى بلادنا.. أذكر أنني تعرضت فيه إلى " المظهرية " التى جعلتنا نهتم - أو نتظاهر بالاهتمام - برياضة البطولات، مع أننا بعيدون عنها وعن إمكانياتها كل البعد، بينما نتجاهل الاهتمام الواجب بجعل الرياضة أسلوب حياة.. يبنى الشعب وبنيته ومنظومته الأخلاقية الرياضية السلوكية، ويغلق أبوابا انفتحت على جسيم إرهاب كان انتشار رياضة الممارسة كفيلا بتغليق أبوابه !! ما أثيره اليوم يتماس مع هذه المعانى ويتماس أيضا مع النظام والقانون ومردود إلى ما يجب أن نعتاده من جدية نفارق بها الهرج والمرج، والاستعراض

والمظهرية الفارغة من المعنى، مما جرننا إلى فرض لقاء تنافسى لا معنى له فى غياب للعقل والمنطق، وجرياً وراء اغتنام أى فرصة لكسب مآدى أو معنوى أو تواجد فى الصورة أو بحث عن الشهرة !!

أعرف أن كأس السوبر قد جعل للتنافس بين حامل بطولة الدورى، وحامل بطولة كأس مصر، أيهما يفوز بالكأس السوبر ؟.. وهذا لا بد أن يعنى أن الفائز ببطولة الكأس غير الفائز ببطولة الدورى، وإلا انتفت العلة والفكرة والمعنى والغاية من الأساس ! فغير منطقي أن ينافس بطل الكأس - ثانى الدورى إذا كان قد فاز فعلاً ببطولة الدورى، ولا محل مع حمله بطولة الدورى لأن يعود للتبارى مع ثانى الدورى، والأكثر سفسطة من ذلك أن يقابل ثالث الدورى لأن بالثانى عارضاً يمنعه من اللقاء ! فذلك شئ ممسوخ لا معنى له.. فقد حصل النادى الأهلى بجمعه بين البطولتين على كأس السوبر عملاً وفعلاً وواقعاً وقانوناً، ولا معنى لأن يتنافس على كأس السوبر - البطل الحاصل عليه فعلاً بحمله لدرع الدورى والكأس معاً !!

الغريب حتى النخاع أن يقرر اتحاد كرة القدم إقامة اللقاء على هذا الكأس معدوم المعنى فى ٢٤ يوليو ٢٠٠٦، بينما تتصايح الأندية والخبراء والفتوى - بأن البطولات زحفت على بداية العام الكروى الجديد، وأن هذا إعاقه لبرامج الإعداد المتعارف على أنها تسير على مراحل تسلسل كل مرحلة - مساحةً وكثافةً. - إلى المرحلة التى تليها، وإلا أعانى اللاعبون طوال الموسم معاناةً شديدة السلبية من تواصل المواسم دون إعطاء هذه الراحة الواجبة اللازمة !

يَقِينِي أن اتحاد كرة القدم يعرف ذلك، ويقينِي أن رجاله وجميعا من خبراء اللعبة يدركونه ويدركون محاذيره، وكان ظنِي أن الاتحاد وخبراءه أحرص على كل هذه الاعتبارات مني ومن غيري، ولكن زال عجبِي حين علمت أن الاتحاد يدعو لهذه المباراة نزولاً على رغبة - أو قل مكاسب ! - شركة راعية !! وليس يستقيم تذرع الاتحاد بأنه مرتبط بتعاقد وبشرط جزائي، فالشرط الجزائي منتفٍ لانتهاء مقتضيات لقاء كأس السوبر من الأساس ما دام النادي الأهلي قد جمع بين البطولتين وصار بذلك بطلاً للدوري وللكأس معاً، ولكأس السوبر بالتبعية دون أن يحتاج للتباري مع أحد ما دامت بطولتا الدوري والكأس قد انعقدتا له !!

لو كنت من إدارة النادي الأهلي لما قبلت هذه المسرحية الهزلية الفارغة من المعنى ومن الجدية، لأن النادي الأهلي يتنازل بقبوله للقاء - عن بطولة معقودة له فعلاً، والفوز في مباراة يتيمة لا يضيف إليه شيئاً لأنه حامل اللقب السوبر فعلاً بجمعه بين البطولتين، بينما خسارته - وخسارة مباراة احتمال وارد في كرة القدم ! - تضع عليه كأساً أحرزه بالفعل، وتفسد عليه إنجاز موسم بأكمله وتعكر على جماهيره الغفيرة فرحتها !

كواحد من أبناء مصر أحب أن يسودها العقل والحكمة والوقار وأحب للرياضة المصرية أن تفارق المظهرية إلى اللب، وكواحد ممارس محب للرياضة بعامة ولكرة القدم بخاصة، وكواحد أحترم المنطق والأصول، وكعاشق للنادي الأهلي الذي نشأت وتربيت ومارست فيه وكبرت في رحابه وعلى قيمه ومبادئه، فإنني أطالب اتحاد الكرة بالعدول عن هذه الفكرة الضريرة التي لا حكمة ولا معنى لها إزاء جمع الأهلي

لبطولتى الكأس والدورى، فإن كان لابد فاعلا خلافا للمنطق والعقل والنظام والأصول، فلنقم مباراة بين فريقين من النادى الأهلى.. وهذا ليس جديدا عليه، ففضلا عن ذخيرته العامرة من اللاعبين، فإن ذلك كان متبعا إلى عهد ليس ببعيد، كان فيه النادى الأهلى يخوض البطولات بفريقين : أحدهما أحمر والآخر أبيض، وكان ذلك تدريبا يوفر اللياقة العالية لمن لا تتاح لهم فرصة الاشتراك فى المباريات.. غير ذلك سفسطة ممنوعة تتجاهل أن النادى الأهلى هو بطل كأس السوبر يتعين تسليمها إليه بغير مباراة لأنه جمع فعلاً فى الموسم الكروى بين بطولتى الدورى العام وكأس مصر ولا معنى أن يبارى ثالث الدورى الذى فاز فعلا ببطولته !

المباراة المرادة لجامع البطولتين صورة من صور اللا معقول والفوضى والمظهرية التى يعانى المجتمع الرياضى منها، وتعبير عن حالة اللا انضباط واللا نظام والفهلوة والنفعية التى اقتحمت المجال الرياضى ونضحت آثارها السلبية فى الممارسة وفى النتائج وفى أسلوب التعامل الذى هبط بشدة بين عناصر كافة الألعاب الرياضية. المباراة المرادة فوضى ولغو بلا معنى !!

السلوك الآدمي، وأمراض المظهرية ! (*)

قليل وربما نادر - بين الآدميين، من يستطيع أن يقدم الموضوع على ذاته، وقليل وربما نادر من يخلو - بقدر أو بآخر - من المظهرية أو الميل إلى الاستعراض !

المظهرية آفة تشد الآدمي بعيداً عن الجد والموضوعية، وتورده موارد الاستعراض الذي يصرفه عن الموضوع وما يستوجبه، إلى " التظاهر " الذي كثيراً ما يشرده به - بقدر كبير أو ضئيل - عن موجبات التصدي واتخاذ الأسباب الجادة الفاعلة لما يريده أو يدعى للآخرين أنه يريده ! المظهرية تسحب من الرصيد الذي يكتتب به الآدمي في الحياة، وتجعل اهتمامه محصوراً في " الصورة " التي يريد أن يرسمها لنفسه في عيون الآخرين، لا فيما يتعين عليه عمله سواء أَرْضَى أو أسخط أو أغضب !

آفة الاستعراض أو المظهرية تكاد تكون طبعاً يصاحب الآدمي منذ يولد طفلاً يسعى بحواسه وغريزته إلى لفت أنظار أمه ثم أنظار الأسرة

* الأهرام ٢٣/٧/٢٠٠٦، المال ٢٠٠٧/٤/٨

والمحيط إليه.. لا سبيل أمام غريزته للإعلان عن احتياجاته الأولى إلا بإطلاق صرخاته.. يفعل ذلك حين يطلب " الرضعة " أو يريد لها قبل موعدها، ويفعل ذلك حين ينشد " لعبة " أو " دمية " أو يسعى لإملاء رغباته.. ويفعل ذلك حين ينمو وينشد لفت أنظار والديه عن الوليد الجديد، تحركه الغريزة إلى الاستعراض والتحایل بكل السبل لإظهار لطفه ومزايه ليشد إليه الانتباه ويسترعى الاهتمام بدلاً من سواه.. يكبر هذا الطبع مع نمونا ويلازمنا أو يفارقنا بنسب متفاوتة تبعاً للنضج والفهم والقدرة - النسبية - على الانسلاخ من خصلة الاستعراض، فإذا نما الميل إلى الاستعراض ضمير معه اهتمام الآدمي بالجواهر والواقع والموضوع، وصار انشغاله محصوراً - بقدر أو بآخر - بذاته وصورتها في عيون الناس لا في عين الواقع والحقيقة.. عزيز إن لم يكن محالاً على الآدمي العادى أن يخرج من " شرنقة " الذات.. هذه الشرنقة بداية تحول " الطبع " إلى " مرض " تعارفنا على وصفه بالمظهرية أو الميول الاستعراضية.. يكبر هذا المرض ويطفح كلما زاد الاهتمام بالصورة أو المظهر عن " المخبر " .. قليلون هم من يهتمهم " المخبر " عن " الصورة " أو " المظهر " .. أكثرنا منشغل برسم " الصورة " التى يحب أن يراه الناس فيها، ويزداد الاهتمام " بالصورة " : حين يزداد الاهتمام أو تهيم الرغبة فى استجلاب رضا المحيط.. ورضا المحيط قد يكون قريباً، وقد يكون عزيز المنال.. ولكنه - قرب أو عز - لا يعبر فى كل الأحوال عن " المخبر " .. لأن معظم الناس، يرى بغرائزه وحواسه، وربما بروح القطيع - قبل أن يرى بعقله وفهمه.. يتابع أهواءه قبل أن يتأملها ويعمل فكره.. هذا الطبع الذى يحكم " الجماهير " بعامة، هو الذى يزين لطالب " الصدارة " و

المواقع " و " المراكز " و " الألقاب " و " الرياسات " أن يستقربوا
المظهرية والاستعراض، وسبلها سهلة، ويأنفوا رهق وعناء العمل الجاد
الذى قد لا يحقق رغبته وعنايته ما تنالته " المظهرية
الاستعراضية " من رضاء ومباركة الجموع !! وأكثر ما يطفح هذا العرض
فى انتخابات المجالس النيابية والاتحادات والأندية والنقابات والأحزاب،
وفىما يسمى بالأعمال العامة !.. يكاد يكون الشعار : " قل ما يرضى الناس
وافعل ما شئت ! من أمراض هذه " المظهرية " حلول " الكلمة "
المجردة أو الكاذبة أو المخادعة - محل الفعل الجاد الصادق المؤثر..
حلول الكذب والمداينة والرياء والتظاهر والتصنع - محل الصدق
والإخلاص.. من آثار المظهرية أن تضر قيم الجد والالتزام.. أن
تتحول الأعمال المرجوة إلى أوهام وأضغاث !!

استحضر هذه المعانى موقف عظيم لافى للزعيم سعد زغلول..
ترك فيه " المظهر " - إلى " المخبر " .. قبل راضيا مضحيا أن يظهر - شكلا
- فى موقف بدا فيه بنقيض ما تريده الأمة ليحقق للأمة ما تريده.. عاش
معى لسنوات أن سعد زغلول المشهور بقدرته الفذة على الاقترب من
ال جماهير والرأى العام، قد خالف إجماع طوائف الأمة حين انحاز إلى مدّ
امتياز شركة قناة السويس، وتبنى عرض هذا النظر - كوزير ممثل
للحكومة - أمام الجمعية العمومية !!.. ظلت معى هذه الصورة لسنوات
دون أن تسحب من رصيد سعد زغلول، فرصه ضخم لا يضيره هنة،
إلى أن أخذتنى الكتابة فى " رسالة المحاماة " إلى مذكرات أحمد شفيق
باشا رئيس الديوان الخديوى لسنوات طويلة، كان فيها فى قلب الأحداث
التي سجلها فى مذكراته التفصيلية التي شغلت أربعة مجلدات.. ربما لاحظ

القارئ لمذكرات شفيق باشا أن هواء لم يكن مع سعد زغلول، وربما لاحظ غمراً عليه في بعض الأحيان، ومن هنا تأتي قيمة شهادته التي وقعت عليها بالصدفة وأنا أفتش عن دور المحاماة في الحركة الوطنية فصحت خطأ لازمني لسنوات، وكشفت صورة رائعة مناقضة لآفة الاستعراض بلغت حد قبول سعد زغلول بتضحية ظاهرها يسحب من صورة الزعيم في عيون وأذهان الناس !

كان سعد زغلول وزيراً في وزارة بطرس باشا غالي حين عرضت شركة قناة السويس على الحكومة مد امتياز القناة أربعين سنة جديدة لقاء أربعة ملايين جنيه.. انتهزت الشركة فرصة الأزمة المالية، وتقدمت بالاقتراح مشفوعاً بتأييد المستشار المالي الإنجليزي، والسير جوست المعتمد العام البريطاني وكذلك بطرس باشا غالي رئيس مجلس النظار..

كان ظني على ما شاع، أن سعد باشا كان من المشايخين لمشروع مد الامتياز، مادام هو الذي تولى عرض وجهة نظر الحكومة المصرية المؤيدة للمشروع على الجمعية العمومية، ولكن شدني في رواية أحمد شفيق باشا لحوادث سنة ١٩٠٩ ثم سنة ١٩١٠، أنه مع إشارته لوقوف الرأي العام ضد هذه الفكرة أضاف للمعارضين (جـ ١٨٦/٣) :
" وكذلك بعض النظار كسعد باشا ورشدي باشا ومحمد سعيد باشا .. فلماذا إذن كان سعد باشا هو لسان الحكومة المعارض لوجهة نظرها المؤيدة للمشروع - الذي يناهضه - على الجمعية العمومية ؟ !

زال العجب حين تابعت أحمد شفيق باشا، فاكتملت جوانب الصورة التي ما كانت لتكتمل لولا سرده لما جرى وراء الكواليس.. بعيداً عن الاستعراض، والمظهيرية، نمت فكرة عرض المشروع على الجمعية

العمومية - ورفضها له مقطوع به - للتخلص من ضغط سلطات الاحتلال على الحكومة لتتمير مد الامتياز.. وتولى المعارضون للمشروع ترويج فكرة العرض على الجمعية العمومية - حيث تبناها من القرييين إلى سعد باشا : محمود سليمان باشا، وعلى شعراوى باشا، وأحمد يحيى باشا، وتحدث فيها آخرون إلى بطرس باشا غالى، وتحدث إليه فيمن تحدثوا أحمد شفيق باشا موفداً من الخديوى الذى تحسب من رد فعل الرأى العام الراض للمشروع فأرسل يبدى أنه لا يمانع فى عرض المشروع على الجمعية العمومية.

يروى أحمد شفيق باشا (ج ٣ / ١٨٧ ، ٢٠٧) أن بطرس باشا غالى رئيس النظار اقتنع بالفكرة، وأنه نجح فى إقناع المعتمد البريطانى بضرورة استشارة الجمعية العمومية ليكون رأيا هو الفيصل. ومن هنا نبعت فكرة أو شرط أن يكون سعد باشا زغلول بمكانته، هو الوزير الذى يتولى عرض وجهة نظر الحكومة المشايعة للمشروع على الجمعية العمومية !

تنفيذ هذا الشرط يسحب من رصيد سعد زغلول لدى الأمة التى كانت ترفض هذا المشروع على قلب رجل واحد، ولكنه يضيف إلى رصيد الوطن، ويحقق الرغبة الوطنية بالجوء إلى الجمعية العمومية التى كان مقطوعاً سلفاً بحكم تشكيلها أنها سوف ترفض المشروع - وقد كان !

إذن !

لم يكن رأى الحكومة الذى أبداه سعد زغلول بجلسة الجمعية العمومية ٧ فبراير ١٩١٠ قبيل اغتيال بطرس باشا غالى بأيام، هو واقع رأيه وموقفه من المشروع، وإنما هو عظيم ضحى فى موقف (ظاهرى)

يسحب من رصيده أمام الأمة ليحقق لها وللوطن ما تريده ! هذا الموقف
الفريد يستحضر صور أمراض المظهرية والاستعراض التي تعطي ظهرها
للواقع الحقيقي الفاعل، وتستقرب رضاءات مخدوعة، لعلها كانت في
وجدان العقاد حين قال أثيرته : " إذا أحبك الناس مخدوعين فلا تفرح،
وإذا كرهك الناس مخدوعين فلا تحزن !.. بعض الكراهات خير لك
من بعض المحبات " !

لماذا تأكلت الدوائر " الحاضنة " ؟! (*)

لا يخطيء المتأمل فى حياتنا الثقافية والفكرية والأدبية والفنية، وفى حياتنا بعامّة، أنه قد تأكلت واختفت الدوائر " الحاضنة " التى كانت تتلقى وتشمل بالرعاية البراعم الجديدة، أو تتبادل الاهتمام والدعم فيما بين المستويات المتوازية أو المتقاربة حتى وإن كانت متنافسة، فلماذا أجذبت الساحة بعامّة من هذه الدوائر الحاضنة، ومنها النقد الأدبى الذى كان دوره هو الداعم الفاعل للمواهب الجديدة، والجالب لالتفات واهتمام الناس، وتخصيب وتلقيح أفكار ورؤية الجدد، وتمكين أقدامهم من الرسوخ فى الأرض.. أين ذهب الدور الذى كانت تؤديه الجمعيات والجماعات الأدبية والفنية بل والأحزاب السياسية والتى وإن بقيت اسماً، إلا أن بوصلتها ومعها دورها قد تاه فى الصراعات على الإقطاعات والمراكز والألقاب والتفاهات.. أين ولت الحميمة التى كانت تحفظ جسوراً بين الكتاب والأدباء والفنانين، ومهما بدا على الساحة من تعارك أو نزال ومعارعات.. هذا الجو الدافئ هو الذى كفل بقاء واستمرار الدور الفاعل لقمم الزمان

* الأهرام ٢٠٠٦/٧/٣٠، المال ٢٠٠٧/٥/٦

الفائت، وهو الذى استقبل تباعاً الأجيال المتتابة ورعاها وخصبها ومكن لها حتى ضربت بجذورها فى الأرض، وارتفعت أفنانها إلى السماء.

شدنى إلى هذه المعانى " ذكريات " أدينا الفذ نجيب محفوظ التى سجلها الأستاذ جمال الغيطانى تحت عنوان : " نجيب محفوظ يتذكر " .. فيها روى " الصدمة " التى أصابته حين استهول المرحوم سعيد السحار حجم الثلاثية وانفلتت منه عبارة : " إيه الداھية دى ؟! " .. كانت الثلاثية رواية واحدة بعنوان " بين القصرين " .. جعل السحار يقلب صفحاتها الألف قبل أن يقول : " كيف أطبع هذه ؟! إن ذلك مستحيل " .

يسترجع نجيب محفوظ هذه الصدمة ويحكى كيف عاد يومها إلى البيت وهو فى منتهى الحزن. يقول لنفسه وقد شارف على الإنهيار : " أبعد هذه السنوات من العمل، أبعد هذا الجهد الشاق لا أستطيع نشر أكبر وأعز عمل ؟! مررت بأيام يأس - والحكى لنجيب محفوظ - وفى إحدى المرات كنت فى نادى القصة، وتحدثت عن روايتى الضخمة التى فشلت فى نشرها، وإذا بالمرحوم يوسف السباعى يطلبها منى. أخذها يوسف السباعى كلها، وكانت مخطوطة وحيدة. لم أكن قد نسختها على الآلة الكاتبة. كان من الممكن أن تضيع، لو أن هذه النسخة الوحيدة فقدت من المرحوم يوسف السباعى لأى سبب - لضاعت الثلاثية إلى الأبد " !

يستكمل نجيب محفوظ ذكرياته، فيروى كيف صدرت بعد الثورة مجلة " الرسالة الجديدة "، وكيف أنجز يوسف السباعى وعده، وبدأ نشر فصول " بين القصرين "، فلاقت نجاحاً لفت نظر المرحوم سعيد السحار، فاقترح تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء، ومن هنا جاء عنوان : " قصر الشوق "، و " السكرية " .. وأصبحت بين القصرين ثلاثية .

أغنانا نجيب محفوظ عن استقصاء حالته فى تلك الأيام، فلم يخف أنه أصيب بصدمة فظيعة هائلة وأوشك على الانهيار، ولكن لست أدرى ماذا كان تصوره حين أعطى نسخة أو مخطوطة الرواية الوحيدة إلى المرحوم يوسف السباعى.. إنه روائى ومن جيله، واحتمال المنافسة قائم، بل هو حقيقة مؤكدة، فكيف استطاع نجيب محفوظ أن يغامر، وكيف استطاع يوسف السباعى أن يعاون؟!.. لم يخف نجيب محفوظ على نسخته التى لو ضاعت لضاع العمل كله إلى الأبد، ولا داهن يوسف السباعى أو ناور فى وعد أعطاه كان يستطيع السكوت عنه.. لم يمنع تنافس الجيل الواحد من أن يطمئن نجيب محفوظ على روايته، ومن أن يصدق يوسف السباعى فى وعده الذى رأت به الرواية سبيلها إلى جمهور المتلقين، وإلى الحياة التى عاشتها ولا تزال تعيشها للآن. كذلك موقف المرحوم سعيد السحار الذى لم يجد غضاضة فى أن يرجع عن تحفظه، وفى أن يبادر بالاتصال لدعوة نجيب محفوظ لنشر العمل، وإخلاص النصيحة إليه بتجزئته إلى أجزاء ثلاثة بعناوين مختلفة.. ربما عزونا موقف السحار إلى حسابات الناشر، سواء فى رفضه أو فى دعوته الثانية، ولكن موقف يوسف السباعى موقف مقطر مصفى.. لو لم يكن ليوسف السباعى فى باب الإيثار المخلص إلا هذا الموقف - لكفاه !

هذا الموقف لا يتوازى معه ولا يدانيه نجدة الصديق للصديق بعامة.. قد يكون عادياً أو غير غريب أن يقرض الصديق صديقه أو زميله، أو أن يعينه فى شدة، أو أن يعزيه فى وفاة، أو يجامله فى أفراح، أو يعود فى مرض.. أما موقف يوسف السباعى فموقف يورى بإيثار لافت، لأنه ونجيب محفوظ فى حقل الرواية متنافسان، وقد يحسب الصغير أن

تقدم وعلو غيره يؤخره، فيضن عليه بالعون والمدد، ولا يستطيع إلا أن يكون شحيحاً ضئيلاً لا يرى إلا ذاته، ويرى في إتاحة الفرصة لمنافسه انتقاصاً من فرصته بل ومن مكانته.. هذا الإيثار من المحال أن ينمو هذا النمو ويمضى بهذه العراضة وهذه الروح المصفاة، إلا فى أرض خصبة وارفة، ساد فيها " التكافل " وتبادل فيها أهل الفكر والفن والأدب سجية " الاحتضان " وتبادل الرعاية والوفاء !

لو كان موقف يوسف السباعي يتيماً فريداً، لقلنا إنه " نشاز " لا يعبر عن إيقاع ولا عن التيار الجارى فى ذلك الأوان، ولكن نجيب محفوظ يروى لنا، فى مواضع أخرى من ذكرياته، كيف كان يبيت مشاعره ويعرض بعض إنتاجه على الكاتب الروائى المرحوم عبد الرحمن الشرقاوى، وكيف عرض عليه سبعة موضوعات كانت لديه يشاوره بشأنها بعد ما توقف فترة بعد الثلاثية.. وكيف أرسل المرحوم مصطفى أمين - وبلا تعارف سابق ! - من يعرض عليه أن يكتب قصتين فى الشهر لأخبار اليوم لقاء أربعين جنيها كانت شيئاً فى أوائل الأربعينيات.. حين قرأ مصطفى أمين إحدى روايات محفوظ - وكان فى بداياته - واستشعر موهبته، لم يتردد فى القيام بهذه المبادرة.. كنا نرى فى سررة الكتاب بالأهرام وأخبار اليوم قامات عالية.. تباهى بهم كل دار صحفية، وتقدم بكتاباتهم للقراء ما يثرى ويشبع، مؤدية دورها كحاضنة للحياة الثقافية والأدبية والفنية إلى جوار مهامها الإخبارية والسياسية.. رأينا هذا الزخم فى الجمعيات والجماعات الأدبية والفنية التى توارى دورها الآن أو يكاد، وفى المجلات الأدبية والفنية والشهريات المتخصصة التى كانت تصدر بانتظام حافلةً بوجبات متنوعة من القدامى والقامات العالية، ومن المواهب

الجديدة.. هذه المجالات توارى معظمها أو تآكل دوره أو قل توزيعه بحكم التضخم وارتفاع أسعار الورق من ناحية، وبحكم المنافسة غير المتكافئة مع مهرجان القراءة الذى وإن يسر الكتاب، إلا أنه لا تقف وراءه دائرة " حاضنة " تؤدى ولو بعض ما كانت تؤديه الحاضنات فى الزمن الفائت.. ومع هذا التوارى أو التآكل أو تراجع الدور، تراجع النقد الأدبى وتقلص عدد النقاد الجادين، وكانا كلاهما : النقد والناقد - " حضانة " هامة ومؤثرة فى الحياة الثقافية والأدبية والفنية !

هذا التراجع شمل للأسف حياتنا بعمامة فى كل مضمار، وأضاع فيما أضاع التواصل بين الأجيال، ويكاد يغلق الأبواب أمام المواهب الجديدة. بل وأمام القامات الراسخة، مما غدا معه التعبير والإسهام بعمامة - مكابدة حقيقية فى أرض تبدو خاوية موحشة كالبلقع - أو تكاد !

لا حياة بغير كدح ! (*)

الماضى وإنْ ولى، إلا أنه مصاحب بصورة ما لصاحبه، فكل آدمى صغيراً أو كبيراً.. متقدماً أو متخلفاً.. يصحب ماضيه معه أينما اتجه .. هذا الماضى مهما ابتعد، مخزون بصفة عامة فى ذاكرته كأفكار وصور ومشاعر، ومحفور فى بدنه كأنسجة وأوعية وأعصاب !

لا يمكن للآدمى أن يلاقى يومه وغده بغير هذا المخزون .. لا يمكنه أن ينتزعه أو ينحيه مهما أجهد نفسه فى تحيته جانباً أو تكلف التخلص منه أو مقاومته !.. نحن دائماً - أردنا أم لم نرد - نقدم ماضينا إلى قابلنا ملوناً بألوان " ذات " كل منا.. تلك الألوان التى تتجمع وتتراكم ويتداخل بعضها فى بعض، ويحل بعضها محل بعض فى تفاعلها مع ماضينا.. لا نتوقف عن التلون والتجمع والتراكم والتداخل والحلول مهما امتدت حياتنا وطالت أعمارنا !

هذه " الألوان " المتفاعلة فى ذواتنا - ألوان متنوعة المصادر من الماضى الشخصى ومن تراكمات التاريخ بعامة، نتوارث جانباً منها،

* الأهرام ٢٠٠٦/١٠/١، الأزمهر ٢٠٠٦/١٠/١، المال ٢٠٠٦/١٠/١٢

ونكتسب أغلبها تباعاً من المحيط الذى نعيش فيه فتصبح جزءاً منا حين تقبلها " الذات " وتضمها إلى رصيدها.. تبقى مستقرة فى مخزونها إلى أن يطرأ عليها - على الذات - ما يحملها على التخلّى عنها ليأخذ غيرها مكانها !

والوان الذات المتعددة بطبيعتها تتشابه فى سمات، وتختلف فى أخرى.. يتشابه الآدميون فى عين من ينظر إلى سمة معينة، فيتشابه عنده أبناء نفس العصر أو نفس العنصر أو الأصل أو السحنة أو لون البشرة.. أو أبناء نفس الوطن أو نفس الحضر أو نفس الريف.. أو نفس الجيل أو نفس الطبقة أو الأسرة.

ومع ذلك فداخل هذه الأشباه يقع أيضاً الانقسام مع الاختلاف والتشابه.. يجرى ذلك نتيجة تشابه أو اختلاف الطبيعة أو الذوق أو التربية أو الظروف، بل قد يتعرض الفرد الواحد لمثل هذا فيتشابه مع نفسه فى مراحل من حياته، ثم يخالفها فى مرحلة أو مراحل أخرى.. يعى الفرد هذا أو لا يعيه حسب نموه أو تدهوره أو ركوده أو نشاطه، أو حسب تعرضه لتغير شديد فى ظروف، أو استقرار وثبات أحواله فى ظروف أخرى !

وبرغم هذا التراكم والتركيب الشديدين فيما يلتئم ويتجمع فى مخزون " الذات " الآدمية، فإنه لا يجعل حياة آدمى معقدة فى نظره.. ذلك أنه لا يرى ولا يشهد ولا يواجه ولا يفكر بانتباه وعناية فيما يجرى عليه فى داخله أو خارجه من أحوال، إلا حالة حالة !.. ولا يشغل التفاته - فى النادر - مجموعة حالات يربط بينها ويعمل التأمل فيها باحثاً منقباً عن علاجها.. فإذا فعل وربط وتأمل، فإنه يشعر عندئذ بالضيق والقلق والحيرة،

ولا يزايله أو يفارقه هذا الشعور إلا إذا تبددت تلك المجموعة من الحالات وارتد هو إلى التعامل مع واقعه المعتاد شيئاً فشيئاً كمألوفه ومألوف من سبقوه !

ويبدو أنه من هنا كان عشقنا للبساطة والبسيط والتبسيط، ونفورنا العام فى الوقت نفسه مما نصفه تارة بالتكلف ونصفه تارة بالافتعال والتصنع.. نسبغ عليه هذه الأوصاف والنعوت حين يكون تذوقه أو فهمه أو قبوله فى احتياج إلى إجهاد ومكابدة ومشقة !!

ومع ذلك فإن ما يبدو بسيطاً مبسطاً لدى البعض، قد يكون شديد التعقيد لدى غيرهم تبعاً لاختلاف قدرات المخ وسعة شبكة الأعصاب عن نظائرها لدى الغير !

ولكن حين يتجاوز الأدمى حدود الحياة العادية المألوفة - إلى محاولة استبطان ومعرفة شيء من حقيقة أجهزة بدنه ونفسه وعقله بقدر أكبر من التفصيل، وكيف تؤدي وظائفها وتقوم بعملها ومتى كيف تختل وكيف تعالج أو يواجه اختلالها - عندئذ سرعان ما تختفى تلك البساطة التى نعشقها ونرتاح إليها، ويحل محلها تركيب وتعقيد شديداً مجهودان.. ويكتشف الباحث فى ذلك أنه معرض فى كل خطوة من خطوات البحث والعلاج للأخطاء والأخطار، ويكتشف - إن لم يكن قد اكتشف سلفاً - أن ما يسمى بالقوانين العلمية لا يعدو أن يكون "تقريبات" فقط، وأنها بحكم ذلك تحتاج دائماً لمراجعة الفحص والضبط والمزيد من التأكيد.. وربما بانث فيها مع المراجعة عيوب وأخطاء كانت خافية، مما يستوجب إعادة النظر فيها، وقد يؤدي ذلك إلى إدخال تعديلات عليها أو إلغائها وإحلال ما يظهر مجدداً بالبرهان المقنع أنه أكثر قرباً من الصحة والدقة !! وهكذا، لا ينتهى

المزيد من البحث والتمحيص والفهم، إلا إلى مزيد آخر من البحث والفهم وبلا نهاية ما دام الآدمي مواظباً باقياً على أعمال فكره وبحثه وتأمله ملتزماً الرغبة في المزيد من المعرفة وفهم الحقيقة !

أما إذا كَلَّ الإنسان أو ملَّ وتوقف، وقنع بما وصل أو وصل السابقون إليه، فإنه يبدأ حينئذ مرحلة أو مراحل الرجعة والهبوط والتدهور.. قد تقصر مدته إذا عاد وأفاق، وقد تستغرق آماداً وقروناً إلى أن يفيق الآدمي وينتبه ويلتفت إلى ما منح من استعدادات وملكات فيعود إلى استنفارها وإعمالها واستخدامها وتتميتها والاعتزاز بها !

الميل إذن إلى البساطة والتبسيط هو فيما يبدو - ميل إلى الكسل واللهو والراحة البدنية والنفسية والعقلية.. ولعل في هذا الميل شيئاً من الغريزة أو الطبيعة لمقابلة المجهود أو محاولة تعويض ما يبذله الآدمي من عناء حينما يصطنع الجد والاجتهاد!.. بيد أن هذا الميل (الغريزي) فيه قابلية هائلة للمغالاة والإسراف ثم الاعتياد عليها خاصة بين كتل العاديين الذين تتحكم فيهم عادات السلوك المألوف على ما هي عليه !!

على أنه من المهم أن ندرك أنه ربما أدى تفشى هذه الموجة بين الكتل، وشيوع الميل فيها إلى الكسل والراحة وتفضيل اللهو - ربما أدى إلى سد منافذ وفرص الاجتهاد لدى الأقلية المستعدة المهيأة الراغبة في الكدح، القادرة عليه، وأغراهم في غمرة سيادة هذا التيار بمجاراته، وهياً لهم الانصراف إلى استخدام ما لديهم من الملكات - لا في الكدح والبذل والعطاء، ولكن في أخذ نصيب أكبر من الترف والمتعة والسلطة والجاه.. حينئذ يجد الانتكاس العام طريقه الواسع الرحب، ويتجه المجتمع بأسره إلى منحدر التراجع والهبوط!!.. يحدث ذلك حين يتملك الجمود أو التجمد

من المجتمع، فيصير كل ما فيه ومن فيه ثابتاً مقررأ - معروف البداية والنهاية، بما لا سبيل إلى تبديله أو زحزحته أو تحريكه ... هنالك تتراجع هم وإرادات وعزائم الناس، فلا يطلب الخيرون أكثر من السمعة الطيبة وسعة الرزق، ولا يكف غير الخيرين عن طلب الزيادة، إما فى المال أو فى السطوة أو فيهما معا !!.. تختل بوصلة التمييز بين الحسن والقبيح، وبين الخير والشر، وبين الجاد والمظهرى، ويغفل اللاهور عن نداء الحق تبارك وتعالى : " يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ " (الانشقاق ٦) ..

مع هذا الضياع المصاحب للانصراف عن الكدح والبذل والعطاء - تتحوصل وتتمكن عوامل النحر والتحلل التى تلازم حتما كل ما يتوقف عن النمو والزيادة والتطور والتطوير فى عالم صائر متحرك على الدوام !!.. من المخيف أن حالة التراجع والنحر والتحلل قد تستمر زمنا يطول إذا قسنا بمقاييس الماضى وعولنا على سوابق التاريخ التى تورى لنا أن هناك من فترات التراجع والتدهور ما امتد قرونا قبل أن تنحسر موجته لتفسح المجال لحركة صعود جديدة تمضى بالإنسان إلى حيث يجب فى هذا الكون الذى لا يكف عن الحركة والاطراد والنماء !

الإسلام دين حياة لأحياء (*)

الإسلام دين حياة، نزل تكريماً ورعاية للحياة والأحياء.. يخطئ خطأ كبيراً، من يظن أن الإسلام دين أموات، معنى فقط بالآخرة ولا عناية له بالحياة والأحياء.. فالإسلام دين حياة لأحياء، لا يزهّد في الحياة على هذه الأرض، ولا يحتقرها أو يزدريها.. أخبر في قرآنه المجيد أنه سبحانه قد خلق الموت والحياة ليلبونا أينما أكثر عملاً، فقال عز من قائل : " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ " (الملك ١، ٢).. خطاب الآية الكريمة موجه إلى الإنسان، الذي كرمه الله سبحانه وتعالى واستخلفه في الأرض وجعل إليه عمارة الحياة.. يقول في محكم التنزيل : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا * يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا. " (الإسراء ٧٠، ٧١).

إن قيمة ومنزلة المسلم، مستمدة أصلاً من الحياة.. فحياته على الأرض هي المحك الحقيقي لميزانه.. اكتتاب الإنسان لآخرته، إنما

يجرى فى حياته الدنيا.. الحياة هى المجال الوحيد لاكتتاب الآدمى، على قدر سعيه وسلوكه وعطائه والتزامه الخيرات فى دنياه، على قدر ما يكتتب بها فى آخرته.. لا مجال فى الآخرة للاكتتاب، فالإنسان يكتتب فى الحياة بما يسعه مخيراً فى سعيه بين الخير والشر، وبين المعروف والمنكر، على قدر اختياره وسلوكه فى دنياه، يكون حسابه فى أخراه.. الآخرة دار حساب لا دار امتحان.. الامتحان الذى يواجهه الإنسان هو فى هذه الحياة التى يحمل فيها أمانته باختياره.. هذه الأمانة التى قال فيها الحق تبارك وتعالى: " إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " (الأحزاب ٧٢).. فى هذه الحياة الدنيا معقد رجاء الآدمى والاختبار الأساسى لمدى إدراكه لنعمة الحياة التى أنعم بها عليه الخالق البارى عز وجل إنعاماً مجانياً لم يقتض عنه سبحانه أجراً ولا مقابلاً.. حياة الإنسان على هذه الأرض هى المحك والاختبار الأساسى لمدى اغتنامه من عدمه الفرصة الموهوبة له فى الدنيا فى تنمية عقله وملكاته وروحه، وجنى الرصيد الذى توزن به حياته وأعماله.. إن قيمة الحياة تكمن فى قدرة الآدمى على السعى والاجتهاد وجزيل البذل والعطاء فيها، وعلى اختيار الحق والخير والمعروف من بين البدائل المختلفة التى تعرض للإنسان فى رحلته.. هذا الاختيار الرشيد هو أساس التكليف فى الإسلام.. فالإنسان المكلف فى الإسلام - هو الإنسان المسئول، القادر بعقله ومداركه على الموازنة والاختيار والمفاضلة الفاهمة الواعية المريدة بين الخير والشر، وهذه القدرة هى المرأة الحقيقية لحياته التى يصنع فيها قدره وينمى رصيده المخزون للآخرة، فبغيرها لا توزن حياته ولا توزن أعماله.. هذه الحياة

الدنيا هي الفرصة الوحيدة للآدمى لكتابة مصيره فى آخرته.. بعدها ينزل الستار ويتوقف كدح الإنسان الذى كدحه وسعيه الذى سعا.. ففى الحياة الأخرى لا تقارع ولا امتحان بين الخير والشر.. إن الجنة خير محض.. لا مجال فيها لاختيار أو مفاضلة بين خير وشر، ولا محك تعرض عليه قدرة الآدمى وميوله ورغباته ومآربه وأهواؤه وانعكاساته وأفعاله وردود أفعاله.. لا ميزان يعرض عليه عقله أو روحه.. تساميه أو انحداره، الآدمى فى الجنة ميسور الثواب والنعيم بلا جهد ولا مجاهدة ولا عناء ولا مكابدة .

الجنة هى دار القرار، ونعيم الأبرار.. لا شر فيها، ومن ثم لا امتحان ولا اختيار بين خير وشر.. لا يوجد فى الجنة خيار أو موازنة أو مكابدة أو معاناة ما بين الإقدام على هذا أو الإحجام عن ذلك.. فالجنة دار جزاء ومكافأة وثواب صرف مثلما كل ما فيها خير صرف.. لا صراع ولا تنازع فى الجنة بين خير وشر، ولا امتحان للمخلوق يوازن فيه بين الخير والشر.. لا انتصار لأحد ولا هزيمة لأحد.. انتصار الأبرار قد اكتتبوا فيه وحققوه وارتسمت خطوطه ومعالمه ونتائجها فى الحياة الدنيا، على نقيضهم من فارقوا البرّ والمعروف فباءوا بالخسران !.. لذلك كانت الحياة هى هبة الله تعالى وامتحانه أيضا للأحياء !!..

المسلم السوى يعلم أن عطاءه على الأرض هو معراج به إلى السماء.. بحياته على أديمها تتحدد صفحته ومنزلته.. كل خط يخطه فيها هو رصيده الحقيقى يوم يقوم الأشهاد.. فلا أمل له فى حسن الثواب والنعيم إلا بما خطه فى حياته الدنيا ونجح أو أخفق فى تخطيطه فى صفحته على ما أمره ربه سبحانه وتعالى.. لن يغنيه يوم الحساب لقب ولا مال ولا

جاه ولا سلطان.. وإنما هذه الصفحة التى خطها فى إخلاص واستقامة ومعرفة حقه وتواضع وعرفان بحق الله تعالى وحقوق الناس.. فالحياة فى نظر الإسلام - أثنى نعم الله جلّت حكمته، وهى لذلك شىء غال يجب على المسلم السوى أن يحفظه وألا يهدره أو يفرط فيه !!

هذه الحياة الغالية هى صك الأدمى وكتابه، هى الامتحان الحقيقى، وصفحته التى يسطرها فيها هى المعبر وجواز المرور إلى ما وعد به القرآن المجيد الذى يقول : - " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ " (فصلت ٣٠ - ٣٢)

يلحظ المطالع للقرآن الكريم أنه قد قرن كثيراً فى آياته بين الحياة والموت.. وبين الدنيا والآخرة، وأورد أن الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة وتفاخر ومتاع الغرور، وأن الآخرة خير وأبقى.. بل هى الحياة لمن يعرفون.. فى القرآن المجيد : " وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " (العنكبوت ٦٤).. سعى الإنسان واكتتابه فى الدنيا لا يجيز أن يستحبها أو يؤثرها على الآخرة، ولا أن تغره الدنيا أو يغره بالله الغرور.. فمن كان يريد حرث الدنيا يؤتته الله منها ولكن ما له فى الآخرة من نصيب.. هذه المقارنة لا تعنى تحقير الحياة والازدراء بها، وإنما تنغيا فى حكمة بالغة لفت نظر الأدمى إلى القيمة الحقيقية للحياة.. وإلى اتخاذها سبيلاً جاداً صادقاً للآخرة التى هى دار القرار، وخير وأبقى.. والحياة لا تكون سبيلاً نافعا للآخرة، ولحسن

المآب فيها - مالم تكن حياة أمينة جادة صادقة فاعلة معطاءة.. لا يفقد فيها الآدمى حبله المتين بالله عز وجل..

أرادنا القرآن المجيد ألاّ نتخذ من الدنيا متاعاً ولهواً ولعباً وزينةً وتفاخراً وغروراً.. ألاّ يطمس سعينا فيها على القيم العليا لمنهاج الحياة الجادة الرصينة والتي إليها حُسن المآب فى الآخرة.. ألاّ نضحى بالخالد الباقي طلباً لأعراض ومتع الدنيا الزائلة.. أن ندرك بذلك أن الحياة هى نعمة كبرى.. وهى نعمة لأنها ابتلاء وامتحان حقيقى للمسلم السوى ليحسن مآبه فى الآخرة..

فغلو وقيمة الحياة فى الإسلام ليس لأنها فرصة للهو واللعب والتباهى والتفاخر والعبثية.. فالإسلام لا يطلب الحياة للحياة، ولا تتساوى فيه كل حياة مع أى حياة.. الإسلام لا يحفل ولا يعتنى بالحياة العدمية التافهة الخالية من المعنى الجامع، التى تستغرق الآدمى فيها الشواغل الذاتية التافهة والمآرب الشخصية المحصورة فى النظر الضيق للسباق والرباب والمطالب والجنس والمال والأبهة والسلطان والتميز والتفرد.. هذه الصورة للحياة هى والعدم سواء.. لا قيمة لها فى الإسلام، وليست مقصد الحق سبحانه وتعالى الذى خلق الموت والحياة ليبتلينا ويختبرنا أينما أحسن عملاً.. الصورة الإسلامية للحياة لا توجد إلا مع وجود المعنى الجامع، وهو الله عز وجل.. والولاء لله عز وجل، فحين يتعلق الآدمى بربه، ويتجه إليه، ويستحضره فى حركته وسكونه.. فى سعيه وعطائه.. فى فكره وتكبره.. تسرى روح الله بهذا المعنى الجامع فى حياة الإنسان فى كلياتها وجزئياتها.. ومن البداية للنهاية.. فحياة المسلم السوى تبدأ من الله تعالى وتنتهى إليه، لذلك لا يحار المسلم السوى قط - بحياته.. ولا يعتريه قط أى

إحساس بالخواء أو التفاهة أو قلة جدوى حياته مثلما يشعر كثير من أبناء هذا الزمان في الحضارات التي طغت عليها المادية !! بدون القيم والمعنى الجامع - يفقد الآدمي البوصلة والسقف ويغشاه الإحساس بالعدمية واللا جدوى !!

هذه القيمة الحقيقية والجادة للحياة في الإسلام، تتوارى بغير قصد في خطاب الدعوة الإسلامي حين ينصب فقط في الموت والقبر ويحقر الحياة ويلتفت عن قيمة " الحياة " الجادة الغالية التي هي الأساس في الإسلام ومعراج المسلم السوى إلى السماء وإلى الحياة الأخرى.

حقيق بالمسلم أن يلتفت إلى معنى وقيمة وجدوى وغلو الحياة.. أن يدرك أنها الفرصة والاختبار والمحك الحقيقي لوجوده ذاته.. أن انتماؤه للمعنى الجامع وهو الله عز وجل مرهون بقدر عطائه وإخلاص نيته واستقامة عمله والتزامه بكل القيم السامية النبيلة التي رسمها الإسلام للحياة والأحياء.. هام للمسلم أن يعرف أنه حين تقوم القيامة وينزل الستار، فلن يكون في جعبته ما يتقدم به سوى كتابه هذا.. مقدار ما استطاع أن يسطره في هذه الحياة لتثقل به أو تخف موازينه.. وصدق عز من قائل :-

" فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةِ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةِ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةِ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةِ * يَا لَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةِ * هَٰكَذَا عَنِّي سُلْطَانِيَةِ " (الحاقة

(٢٩/١٩

بل نور الهداية وسلامة اليقين ! (*)

فى خفة واندفاع غير متبصر - رمت كلمات بابا الفاتيكان - رمت الإسلام ورسوله عليه السلام بأنهما جاءا بالسيف، وأنه به وبالعنف انتشر!، وهذه الكلمات المتجنية كلمات قديمة مكررة، لاقت على مدى القرون ردوداً مفحمة، استخرجت من كنوز القرآن المجيد والسنة النبوية ما يحضها ويثبت أن الإسلام دين هداية وإقناع، وسلام ورحمة ومحبة، منهجه الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن.. لذلك لست أريد أن أحاجي البابا أو سواه بما اعتدنا أن نحاجي هذه الدعاوى الباطلة به، وإنما أريد هنا أن أحاجي العالم بواقع الإحصائيات التى لا تكذب، والتى تؤكد أن الإسلام - بلا إرساليات ! ماضٍ فى انتشاره، تتزايد أعداد المؤمنين به فى تصاعد متنام إلى اليوم، برغم كل حملات التشويه وبث الكراهية ضد الإسلام والمسلمين. فإذا كان الإسلام ينتشر اليوم ويتزايد معتقوه، فهل تراهم يتزايدون اليوم بحد السيف؟!.. وأين هو السيف والمسلمون يعيشون زمناً كسيحاً يتعرضون فيه للهوان، وتنزل بهم نوازل الغزو والتدمير والإبادة؟!.. كان مقتضى كلمات زعيم

الكنيسة الكاثوليكية، أن نرى الآن تراجعاً وانحساراً للإسلام، بينما يقول الواقع إن الإسلام أخذ في الانتشار والازدياد، وفي أوروبا قبل انتشاره المشهود في آسيا وأفريقيا، بل وتزايد أعداد معتقيه في عقر ديار الولايات المتحدة رغم حملتها الشعواء على الإسلام والمسلمين !

هذه الحقيقة لا تشهد بها فقط إحصائيات الأزهر الشريف.. وإنما تشهد عليها إحصائيات الغرب ودوائر معارفه، ودراسات معاهده ومراكز دراساته.. تجمع كلها على أن الإسلام في انتشار متزايد، وعلى أن انتشاره بلغ حد إقلاق دوائر الغرب الكارهة للإسلام والمسلمين. فضحت به تعليقاتهم على دلالة الإحصائيات والدراسات على نحو لا مجال لإنكاره !

إحصائيات الأزهر الشريف لا تحصى كل من أسلموا، فهناك آلاف يسلمون خارج الأزهر، ومع ذلك توري الإحصائيات أن باحته قد شهدت - رغم الحملة الظالمة - إقبالاً متزايداً لافتاً على إشهار الإسلام، أقبل إليه رجال ونساء من كل فج عميق من شتى بقاع الأرض وقاراته الست ليشهروا إسلامهم.. تقول الإحصائيات ما بين عامي ٢٠٠٣ / ٢٠٠٥ أنه قد جاء إليه من القارتين الأمريكيتين من أسلموا من الولايات المتحدة ومن كندا والمكسيك والبرازيل وبيرو وشيلي والأرجنتين وبنما وفنزويلا وجامايكا وسلفادور وكولومبيا والمالديف وبوليفيا.. وجاء من أوروبا من أسلموا من روسيا وألمانيا وبريطانيا وفرنسا والنمسا وبولندا وإسبانيا والسويد والنرويج وسويسرا وبلجيكا والمجر وأيرلندا وسلوفانيا ومقدونيا واليونان ومالطة وهولندا وفنلندا والتشيك وسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا وكرواتيا ويوغوسلافيا والدانمرك وألبانيا والبوسنة والهرسك والبرتغال

وقبرص.. جاء من أسلموا من استراليا فى أقصى الأرض، ومن أقاصى
وأواسط وشمال وجنوب آسيا.. من اليابان والصين وسنغافورة وأوكرانيا
والهند وكوريا وسريلانكا وأندونيسيا وبيلا روسيا والباكستان ومنغوليا
وماليزيا ومانيمار وبنجلاديش والفلبين وتركستان وطاجستان وتايلاند
وكازاخستان وأذربيجان ومولدوفا وكمبوديا وليتوانيا وكوسوفا وأرمينيا
وهونج كونج وتركيا.. أما أفريقيا فلا توجد دولة من دولها إلا وحضر
منها من أسلموا، ومن بقاع تكاد تكون مجهولة.. أعداد من أسلموا -
إنثاءً وذكوراً، تدهش المتابع للحملة الضارية الموجهة للإسلام والمسلمين
!.. تقول الإحصائيات إن من أشهروا إسلامهم بالأزهر من الولايات
المتحدة الأمريكية ناهزوا ستمائة غير من أسلموا هناك.. ومن فرنسا
قراية مائتين، ومن ألمانيا ١١٦.. أغلبهم من الإناث، حتى سويسرا
التي لا يظن أحد أن فى أهلها من يهتمون بالإسلام، أسلم منها فى الأزهر
اثنان وسبعون سويسرياً منهم ٥٦ من الإناث.. ينظر الناظر فى
إحصائيات الأزهر فيدهشه أن يسلم من روسيا ٨١٣.. أما اليابان : بلاد
الشمس فى أقصى الأرض، فقد أسلم منها ٤٥ أكثرهم من الإناث.. ومن
الصين حيث لا يتصور أحد : أسلم منها ٣٦٨.. ومن بريطانيا قدم إلى
قاهرة المعز ٢٦٥ بريطانيا غالبيتهم من النساء ليشهروا إسلامهم فى
الأزهر الشريف ؟.. كنت أتمنى أن استطرده.. فالأرقام لافتة، تشهد بأن
موجة الإسلام صاعدة فى ازدياد رغم حملات الكراهية والافتراء، وأن
أعداداً من شتى البقاع يفارقون أوطانهم بأقصى الأرض من قارات الدنيا
الست، ليشهروا بالأزهر اعتناقهم الإسلام الذى تقول الإحصائيات
الأجنبية قبل الإسلامية، إن أعداد المؤمنين به فى تزايد مستمر، وجاوز

تعدادهم المليار وخمسمائة مليون مسلم.. بلا إرساليات وبلا حملات للتبشير !

يعرف المتابعون لدائرة المعارف البريطانية، وهى أشهر وأدق وأضبط دوائر المعارف العالمية - أنها تُصدر كل عام كتاباً سنوياً Year Book - بما يستجد من أخبار العالم.. فى الكتاب السنوى ٢٠٠٤ أن عدد المسلمين بمنتصف ٢٠٠٣ قد بلغ فى آسيا ٨٨٠ ٠٠٠ ٨٩٦ مسلم مقابل ٣٢٥ ٠٣٤ ٠٠٠ مسيحى، وأن تعدادهم فى أفريقيا بلغ ٠٢٠ ٠٠٠ ٣٤٤ مسلم لقاء ٠٠٠ ٦٤٠ ٣٩٤ مسيحى.. على أن أهم ما ورد به - البيان الإحصائى لأعداد المسلمين بالولايات المتحدة الأمريكية ... يقول البيان إن تعداد المسلمين بالولايات المتحدة عام ١٩٠٠ لم يزد عن عشرة آلاف، ولكن أعدادهم ارتفعت لتبلغ فى منتصف ١٩٧٠ مليون مسلم منهم مائتا ألف مسلم من السود.. وفى منتصف عام ٢٠٠٠ نرى طفرة لافتة زاد فيها عدد المسلمين إلى ٨٥٠ ٠٠٠ ٥ مسلم.. المدهش أن موجة هذا التزايد المتصاعد لم تتراجع أو حتى تتوقف تحت تأثير الحملة الشعواء الضارية التى شنت على الإسلام والمسلمين فى أعقاب " سبتمبر ٢٠٠١ .." يقول البيان الإحصائى للكتاب السنوى لدائرة المعارف البريطانية إن عدد المسلمين فى الولايات المتحدة قد زاد فى منتصف عام ٢٠٠٥ ليبلغ ٠٠٠ ٤٩١ ٦ مسلم بزيادة ستمائة ألف مسلم عن تعداد سنة ٢٠٠٠ !

يظل تفسير هذه الظاهرة أمراً محيراً للغرب.. كيف يزداد عدد المسلمين البيض والسود فى الولايات المتحدة الأمريكية هذه الزيادات اللافتة رغم الهجوم الضارى هناك على الإسلام والمسلمين، ورغم حملة التجنى الملاحقة للمسلمين فى خارج وداخل الولايات المتحدة !!

في كتاب Romania Factbook 2005، وهو متاح على شبكة الإنترنت، بيان لتعداد المسلمين في دول العالم، نرى فيه أن بالقارة الأوروبية حيث قوة الغرب - يبلغ تعداد المسلمين في النمسا ١٨١٠٠٠ مسلم، وفي بلجيكا ٣٦٩ ٠٠٠ مسلم، وفي فرنسا نحو ستة ملايين مسلم.. وقراءة أربعة ملايين في ألمانيا، وفي اليونان ١٥٨ ٠٠٠ مسلم، وفي المجر ٦٠٦ ٠٠٠ مسلم، وفي أيرلندا ٧٦ ٠٠٠ مسلم، وفي البلاد الواطئة قرابة مليون مسلم، وفي النرويج بأقصى الشمال الأوربي ٤٦ ٠٠٠ مسلم، وفي بولندا قرابة المليون مسلم، وفي رومانيا ٢١٦ ٠٠٠ مسلم.. أما روسيا فيبلغ عدد المسلمين فيها قرابة خمسة عشر مليون مسلم، وفي السويد بأقصى الشمال ٣٠٣ ٠٠٠ مسلم، وفي سويسرا ٢٢٥ ٠٠٠ مسلم، وفي بريطانيا زاد عدد المسلمين على المليون وبلغ ١ ١٦٩ مسلم، وفي يوغسلافيا بلغ عددهم ١٩% من جملة السكان.

تعتمدت التوقف عند الأرقام في أوروبا، ولم أتوقف عند الأرقام والنسب في بلدان آسيا وأفريقيا التي بلغ تعداد المسلمين في بعضها ١٠٠% من مجموع السكان، ففيما عدا الأندلس التي غادرها المسلمون من قرون، لم يقترب أي جيش أو قوات إسلامية من أي دولة أوروبية، ومع هذا نجد الإسلام قد وصل إلى أقصى الشمال الأوربي حيث البرد والصقيع، واللافت أن نجد أعداداً كبيرة للمسلمين في دول كروسيا وفرنسا وألمانيا وانجلترا والأراضي الواطئة، بلغت قرابة خمسة عشر مليوناً في روسيا، ومع ذلك لا نجد في إسبانيا حيث استمر الحكم الإسلامي قروناً - سوى ٤٨٠ ٠٠٠ مسلم بنسبة (١,٢ %)، وهي بالغة التواضع بالمقاييس إلى دول كروسيا (١٠%) وفرنسا (١٠%) وألمانيا (٣,٧%) والمجر (٦%)

ومالطة (١٤%) - الأمر الذى يؤكد بهتان الزعم الكاذب بأن الإسلام انتشر بالسيف !

الحجة البالغة أيضاً، أن تعداد المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية - حسب الكتاب الرومانى - قد بلغ نحو عشرة ملايين، وفى كندا قرابة النصف مليون مسلم، وهذا يعانق دلالة التعداد فى أوروبا، ويطرح تساؤلاً قاطعاً لا تجيب عنه كلمات بابا الفاتيكان : كيف انتشر الإسلام هذا الانتشار فى أوروبا وأمريكا، فضلاً عن الانتشار الهائل فى آسيا وأفريقيا - وفى دول وبقاع لم تقترب منها أى جيوش أو فتوحات إسلامية.. ما تفسير هذا المد الإسلامى إلا أن تكون عقيدة وأحكام الإسلام التى هدت وجذبت إليها هذه الملايين الغفيرة التى أقبلت طائعة مختارة إلى دوحة الإسلام رغم حملات القمع والكراهية التى لاحقت وتلاحق الإسلام والمسلمين !!؟

فى دراسة بحثية للمعهد البحثى المسيحى Christian Research Institute وهى متاحة على الإنترنت، أن الإسلام يزداد انتشاراً وقوة فى أمريكا، وأنه بات يمثل أقوى التهديدات أهمية للكنيسة الأمريكية، وأن المؤشرات تورى بأنه أسرع الأديان انتشاراً ونمواً فى العالم وفى أمريكا، وأن نسبة نموه وانتشاره فى الولايات المتحدة ما بين سنتى ١٩٨٩، ١٩٩٨ - قد زادت بنسبة هائلة، كذلك فى فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة، وأن المصادر المسيحية والإسلامية تتفق على تأكيد أن الإسلام هو أسرع الأديان والمذاهب انتشاراً الآن فى الولايات المتحدة، وأن الكتاب السنوى (٢٠٠٠) للكنائس الأمريكية والكندية أعطى مؤشرات مقلقة لزيادة المسلمين، وتتوقف الدراسة البحثية حائرة فى محاولة

استشفاف أسباب هذا التزايد السريع فى أعداد المسلمين، لتنتقل فى النهاية
عن جيمس دريتك James Dretke قوله : —

“ It is great thrill to see many Muslimes on our doorsteps. While we cannot easily gain entry in their countries.. God has brought them to ours “

" إنها لإثارة كبيرة أن نرى الكثيرين من المسلمين على أعتابنا،
وبينما لا نستطيع بسهولة أن ننال الدخول إلى أوطانهم - فإن الله قد أتى
بهم إلى أوطاننا !! "

لا يوجد بيد الإسلام والمسلمين سيف ولا مدفع.. لا فى الولايات
المتحدة الأمريكية ولا فى غيرها، وليس فى جعبتهم فى هذا الزمن الكسح
الذى يتعرضون فيه لما يتعرضون له - أى قوة يتساندون إليها فى نشر
الدعوة، إلا أن تكون قوة الدين والعقيدة، وعدل ورحمة ونور هداية ما
جاء به الإسلام الذى طفق ينتشر من أربعة عشر قرناً بالهداية وبالحكمة
والموعظة الحسنة.. لم يتوقف الغرب طوال هذه القرون عن محاربته
والتهجم عليه، ومع ذلك يتزايد انتشاره ولأن رغم ما يقع عليه وعلى
المسلمين من عدوان فى زمن التراجع والهوان ؟! - ما سر أن تتراجع قوة
المسلمين، بينما يتقدم الإسلام نفسه ويقبل عليه أهل الأرض طراً حتى فى
عقر الدولة الأمريكية المتحكمة فى أقدار العالم ؟.. تقول الحقائق الدامغة
إن البقاع الشتى التى يدخلها الإسلام ويقبل أبنائها عليه، لم تدخلها جيوش
إسلامية، ولا توجد بها إرساليات تبشيرية.. لم يجتذب هؤلاء المقبلين إلى
الإسلام إلا ما وجدوه فى واحته من توحيد يقبله العقل، وهداية تقود إلى
إيمان غامر، وعقيدة سليمة، وأحكام للمعاملات حكيمة ومنصفة، ورحمة
مرفرفة، وإنسانية فياضة تغمر الإنسان بالقيمة والحرية والعدل والكرامة،

وتعطى للحياة معنىً موصولاً بسقف ظليل وسلام وارف واحترام كامل
للإنسانية لا ينظر إلى عرق أو لون أو أصل أو مال أو جاه، وإنما
يحترم الإنسان ويصله بمناقبه وشمائله وسجاياه حيث كان !

الالتفاف بالدين

لهدم الدين ؟!!! (*)

الإسلام ممتحن هذه الأيام ببعض الشاردين من أبنائه أو المنتسبين إليه، مثلما هو مبتلى بأعدائه المعلنين والمتسترين.. يجاهر البعض باستهدافهم الإسلام، ويتخفى ويلتف البعض الآخر لضرب الدين من داخله، واعين قاصدين، أو مخدوعين مغررين !

لا يختلف مسلم على أن القرآن الحكيم هو كتاب الإسلام المبين، ومعجزته إلى الدنيا.. وحجة رسوله - ﷺ - إلى البشرية، ودستور المسلمين كافة في كل شئون دينهم ودنياهم.. معجز في بلاغته ورصفه وبيانه.. في جرسه ومعمارهِ الموسيقي ونظمه البديع وشحنته التي تملأ وتتغشى حنايا القارئ له.. معجز في إخباره بأحوال القرون السابقة على تنزيله، وفي إخباره عن وقوع حوادث في مستقبل لا يتأتى العلم بها إلا لعالم الغيوب.. ومعجز فيما اشتمل عليه من حقائق الكون وأسراره.. وفي اتساق عباراته ومعانيه، ودقة وشمول أحكامه وشريعته الجامعة التي يدرك

إعجازها المسلم وغير المسلم، ويفهمها العربى وغير العربى.. من يعرف لسان القرآن ومن لا يعرفه.. القرآن المجيد هو دستور المسلمين الجامع فى كل شئون دينهم ودنياهم.. فى العقائد، والعبادات، والأحوال الشخصية، والمعاملات، والعقوبات، والشئون الدولية.. ليس من شىء إلا وفى القرآن المجيد بيانه.. جعله سبحانه وتعالى هداية وبشرى للمؤمنين.. يهدى للناس هى أقوم، وفيه شفاء ورحمة.. ما فرط فيه سبحانه وتعالى من شىء : " مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ " (الأنعام ٣٨)

هذا القرآن المجيد لم ينزل به الوحي مباشرة إلى الناس، وإنما إلى رسول كريم اصطفاه الله لتلقيه وإبلاغ رسالته إلى العالمين.. الأنبياء هم حملة رسالات السماء، ومهمة رسول القرآن عليه السلام مستمدة من ذات القرآن.. يخاطبه رب العزة فى قرآنه الذى أمره باتباعه فيقول له : " يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ " (يس ١-٥).. وفى سورة الإنسان : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا " (الإنسان ٢٣).. لماذا؟!.. ليبلغ رسالته إلى الناس، ويهديهم ويرشدهم ويبين لهم.. " وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ " (النحل ٨٩).. ليقراه رسول القرآن على الناس على مكث ويبين لهم.. " وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا " (الإسراء ١٠٦).. فى حمل الرسالة وواجبات هذا التبیین يقول عز وجل : " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ " (النحل ٤٤).. " وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لَتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ " (النحل ٦٤)..

أغرب الغرابة أن يتخذ القرآن ذاته، على صراحة ووضوح ما أتى به عن تكليفه رسول القرآن عليه السلام بحمل رسالته إلى العالمين - مدخلا أو

سبيلا وعنوانا لتتحية السنة النبوية وإهدارها تحت مسمى : " القرآنيون " .. هذا اللفظ مختار بعناية مقصودة لخلق انطباع فيه مصادرة على المتلقين، بالإيحاء أن أصحاب هذا الفكر - أو الابتداع ! - يعظمون ويجلسون ويقدمون القرآن، وهو تعظيم وإجلال وتقدير لا يمكن أن يعترض أو يختلف عليه أحد، إلا أن المقصود به لديهم هو تحية وإهدار السنة النبوية بزعم أن القرآن المجيد فيه الكفاية والغناء. أجل. فيه الكفاية والغناء، ولكن دور سنة حامل الرسالة في بيان وتفصيل أحكامه، جزء لا ينفك عن رسالة الإسلام.. الانحياز للقرآن المجيد وتعظيمه وإجلاله وتقديمه، وهو المصدر الأول للإسلام - لا يعنى استبعاد السنة النبوية.. قولية كانت أو فعلية أو تقريرية.. هذا الاستبعاد للسنة النبوية، هو ما ترمى إليه دعوة المتسمين بالقرآنيين.. هذه الدعوة - والله تعالى أعلم بالمقاصد والنوايا ولا نكفر أحداً ! - دعوة تلتف بالدين لهدم الدين، وتتشح بالقرآن المجيد لتحية سنة رسول القرآن !!! الفصل أو الفصل بين سنة رسول القرآن والقرآن - يناقض القرآن ذاته، مثلما يناقض معنى "الرسالة" ودورها في البلاغ والبيان.. من (٣٧) عاما، تحديداً في يوليو ١٩٧٠، وقبل نفثى هذه البدعة، كتبت مقالاً لمجلة منبر الإسلام بعنوان " معاضدة السنة للقرآن ". هذه المعاضدة التى يرمى " القرآنيون " إلى تفتيتها وإهدارها بدعوى أنه لا حاجة إلى السنة أو السنة القولية مع وجود القرآن المجيد، هذه الدعوى ترمى إلى اختزال الدين وهدمه.. يسوقون لذلك تعلات وذرائع مغلوطة لا تصمد للبحث، ولكن الخطر أن هذه البدعة يمكن أن تتسلل إلى البسطاء أو أنصاف العارفين الذين لا يتعمقون الأمور أو اقتصر إلمامهم ببعض القشور دون أن تكتمل قاعدة علمهم بالدين ومصادره

وأحكامه، ولا يدركون معنى الرسالة واستحالة انفصامها عن سنة الرسول
الذى حمل بلاغها وبيانها وتفصيلها وقواعدها إلى الناس !
الدعوة إلى حذف السنة بعمامة أو السنة القولية بخاصة، دعوة ضالة
مغلوبة، تحذف ركنا أصيلا من أركان المصدر الإسلامى، وتتأقضى ذات
القرآن المجيد الذى تتوسل به لضرب دينه وهدمه !

رسول القرآن - عليه السلام - هو الذى حمل، كسفن كافة الرسالات
السماوية، رسالة القرآن المجيد إلى الناس.. لا تتصور الرسالة بغير
الرسول الذى تلقاها وأبلغها إلى الناس، ولا يتصور الإبلاغ بها مشمولاً
ببيانها بغير دور هذا الرسول فى أقواله وأفعاله وتقريراته.. ويتضح لزود
ذلك فى الإسلام بخاصة، أنه دين عالمى نزل للعالمين إلى يوم الدين،
واقترضت عالميته أن يكتفى فى بعض المواضع ببيان المجمال المناسب
لشئى العصور والأمكنة، وهذا من أسرار إعجازه، موكلًا إلى رسول
القرآن الذى لا ينطق عن الهوى - أن يبين ويفصل ويوضح، بياناً
وتفصيلاً يعاضد القرآن المجيد ولا يناقضه أو يخرج عنه، مقروناً بآيات
قرآنية صريحة تأمر باتباع الرسول وطاعته والأخذ بما يأمر به والانتهاز
عما ينهى عنه، دون أن تقيد هذه الطاعة الواجبة أو تخصصها بأى قيد
أو تخصيص !

فى ذات القرآن المجيد الذى يتشع به " القرآنيون " لتتحية واستبعاد
 وإهدار سنة رسول القرآن، وردت آيات بينات فى هذه الطاعة
وموجباتها.. " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ " (النساء: ٦٤)..
وفى سورة آل عمران : " قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ " (آل عمران ٣٢)..
" وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " (آل عمران ١٣٢).. وفى سورة

المائدة : " وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ " (المائدة ٩٢، التغابن ١٢) .. وفى الأمر بطاعته فيما يأتى به، والانتهاه عما نهى عنه : " وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا " (الحشر ٧) .. من أطاعه - عليه السلام - فقد أطاع الله : " مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ " (النساء ٨٠) .. " أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ " (محمد ٣٣) .

تعدد الأمر بطاعة رسول القرآن فى العديد من آياته : (النساء ٥٩، الأنفال ٢٤، الرعد ٣٨، غافر ٧٨، النور ٥٤، ٥٦ وغيرها) .. هـذا الأمر بالطاعة العامة، بغير تقييد أو تخصيص، قد اقترن بآيات أخرى تدل على معنى الأسوة والافتداء، أو تدل على وجوب اتباع ما يقضى أو يقول به .. معنى الأسوة يدل دلالة قاطعة على وجوب التأسى والافتداء بمنهج السنة، وجوباً عاماً لا يقتصر على سنة فعلية دون السنة القولية أو التقريرية، وإهدار هذه السنة هو إهدار لمعنى الأسوة والاهتداء الذى قال فيه القرآن الحكيم : " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ " (الأحزاب ٢١)، ولذلك فليس غريباً أن يجعل القرآن من الرضاء بحكم رسول القرآن شرطاً للإيمان لا يتم بغير تمامه واكتماله .. ترى فى سورة النساء دعوة صريحة إلى رد الأمور إليه عليه السلام، لا تكتفى بما ورد بالآية (٨٠) من أن من يطع الرسول فقط أطاع الله، وإنما توجب الآية (٨٣) رد الأمور إليه وتبين أنهم لو ردوها إليه " لعلمه الذين يستنبطونه منهم " .. ثم ترى فى الآية (٦٥) من سورة النساء دور النبوة فيما يشجر بين الناس وما يقتضيه من أقضية أو أحكام أو أقوال جعل القرآن المجيد من قبولها والعمل بها آية من آيات طاعة الرسول بل شرطاً من شروط الإيمان ..

نقول الآية الكريمة : " فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرِ
بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا "
(النساء ٦٥).

الدعوة إلى إهدار سنة رسول القرآن هي دعوة مصادرة لذات القرآن
المجيد، ندرك خطرهما حين نعلم أن السنة في الاصطلاح الشرعى هي ما
صدر عن النبى عليه السلام من سنن قولية - ومنها تتكون معظم السنة، أو
فعلية مثل أدائه الصلاة بهيئاتها وأركانها أو مناسك الحج، ومن أحاديثه
عليه السلام التى اشتملت على مثل هذه التوجيهات النبوية : " صلوا كما
رأيتمنى أصلى "... " خذوا عنى مناسككم "... ومن السنة التقريرية، وهى
ما أقره عليه السلام مما شاهده أو صدر عن بعض أصحابه من أقوال أو
أفعال، سواء بسكوته وعدم إنكاره لها، أو بإفصاحه عن مرافقته عليها.

والسنة المحمدية بأقسامها الثلاثة.. القولية، والفعلية، والتقريرية..
حجة على المسلمين.. تعد مكملة للقرآن الكريم، ومعضده له.. ومصدرا
من مصادر التشريع الإسلامى بعد الكتاب العزيز مباشرة.. وهى تكتسب
هذه الحجية ما دامت مقصوداً بها التشريع والافتاء، ونقلت إلينا بسند
صحيح يفيد القطع، أو الظن الراجح بصدقه.. فلا يعد من سنة الرسول
عليه الصلاة والسلام ما كان يأتيه من تصرفات وأعمال عادية فى مجال
حياته اليومية وأمور معاشه، ما دام لم يقصد بها أن تكون تشريعاً للمسلمين
أو قدوة يحتذونها.. وليس من شك أنه قد زاد من أهمية السنة المحمدية أن
المصطفى عليه الصلاة والسلام أجاب على مدى ثلاث وعشرين سنة
على عدد لا يحصى من أسئلة صحابته وغيرهم ممن أخذوا الدين عنه،
وآمنوا برسالته.. تارة بما يلهمه الله تعالى به، وتارة بما يؤديه إليه

اجتهاده النبوى.. هذه الإجابات المتنوعة فى موضوعاتها المحكمة الجامعة فى مبادئها النبوية الرشيدة، قد صارت مصدراً خصباً ومفيداً لفهم الإسلام فى مبادئه وأصوله، وفى شتى فروعها التى تتصل بحياة الناس، وعلاقاتهم، وأمور دينهم.. ودنياهم..

وإذا كانت السنة المحمدية لها هذه المكانة والأهمية التى اكتسبتها بقيمتها الذاتية.. فإن البراهين الأخرى على حجيتها ولزوم اتباعها، ما دام مقصوداً بها التشريع والاقتداء، عديدة وقاطعة.. أولها هذه الآيات البيانات التى عرضناها، والتى يحتثنا سبحانه وتعالى فيها ويأمرنا بطاعة الرسول والإيمان بنبوته.. وثانيها أن هذه السنة المحمدية ما هى فى حقيقتها إلاّ تبليغ لرسالة أمره الله عز وجل بتبليغها.. " وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ " (النجم ٥-٣).

حجية السنة التى تريد دعوة " القرآنيون " استبعادها وإهدارها، جزء أساسى من الدين.. هى التى بينت - قولاً وفعلاً - فرائض الصلاة والصوم والزكاة والحج.. لا مرجع سواها فى بيان هذه الفرائض التى هى أركان الإسلام.. وهى فى أحيان أخرى جاءت مفصلة ومفسرة لما جاء فى القرآن مجملاً، أو منشئة ومثبتة لحكم لا ينطق فيه رسول القرآن عن الهوى - مثل تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، أو تحريم الحمر الأهلية وسباع البهائم تفصيلاً لما ورد فى القرآن المجيد فى قوله تعالى : " وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيَحْرَمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ " (الأعراف ١٥٧).

حذف السنة من المدونة الإسلامية، هو هدم للإسلام.. وأكثر منه مغالطة التذرع بمدى ثبوت السنة لإهدارها.. فالسنة النبوية قد جمعها أئمة كبار سجلوا فى كتب الصحاح رواياتها ورواتها تفصيلاً دقيقاً فيما انبنى

عليه علم الحديث الذى أقام بقواعد صارمة مصفاة بالغة الدقة والإحكام لا يمر منها الحديث الموضوع، وأول معاييرها الدقيقة المدققة ألا يتعارض الحديث مع القرآن، فإن تعارض - دل ذلك على أنه موضوع ومنسوب كذبا إلى رسول القرآن عليه السلام.

لا نكفر أحدا ولا نتهمه فى نواياه، ولكننا نريد للمسلمين أن يعوا أن السنة هى والقرآن الكريم معا متعاضدان فى إقامة الدين، وأن الدعوة تحت أى ستار لتتحيثها أو استبعادها هى فى الواقع اختزال ضرير وهدم للدين يتناقض مع معنى الرسالة، ودور حاملها الذى كان التجسيد الحى والتطبيق الواعى لأحكام الشريعة، والمشعل الوضاء والمنار الهادى لأحكام الدين، بل إن هذه البدعة تتناقض مع ما أورده ذات القرآن الذى تتشع به البدعة انتساحا مغلوطا.. وتصادر على رسول القرآن المجيد الذى قال فيه : " وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا " (الأحزاب ٣٦) .. وكيف تهمل أو تجنب أو تستبعد سنة رسول القرآن الذى قال فيه الحق تبارك وتعالى : " يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُنِيرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا " (الأحزاب ٤٥، ٤٦) صدق الله العظيم.

الدقة والإتقان

مهجة العمل فى الإسلام (*)

فى عالم اليوم، الذى تنامى فيه الإنتاج فى كل لون، تناميا هائلا من حيث الكم والنوع والكيف، بات الإتقان والدقة عصب هذا الإنتاج ومفتاح ما يفرضه قانون المنافسة على الجميع، سواء فى طلب الجودة بعامة، أو فى أفضليات التسويق المحلى والخارجى.. لا يقتصر طلب الدقة والإتقان على عالم الصناعة أو الإنتاج المادى بعامة، بل يكاد يتفق الناس اليوم.. عاملهم وباطلهم.. على أن " الإتقان " و " الدقة " هما قوام كل عمل مادى أو فكرى أو أدبى.. بدونهما يفقد العمل المادى عناصر جودته وإتقانه وتميزه، مثلما يفقد العمل الفكرى والأدبى روحه وجدته وطرافته.. ربما لهذا الإتفاق كانت كلمة " الدقة " ومشتقاتها من أكثر الكلمات شيوعا فى زماننا !

هذا " المطلب " : الإتقان والدقة، سجية إسلامية تأتى فى إطار منظومة كبرى تحترم العمل والعاملين.. العمل الطيب هو حجة الإسلام إلى

الدنيا التى أراد لأبنائه أن يكونوا فيها بعملهم فى مكان الريادة تعبيراً عن قيمه الأصيلة وإسهاماً مثمراً فى عمارة الدنيا وإثراء الحياة ونفع الإنسان.. لم يقبل الإسلام من المسلم أى عمل من قبيل تسديد " الخانات "، وإنما نهجه إلى قيمته والنفات الخالق عز وجل إليه، فورد بالقرآن المجيد : " وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ " (التوبة ١٠٥) .. تلفت هذه الآية أنظار المؤمنين إلى أن عملهم مراقب ومرئى ومشهود.. من الله تعالى ومن رسوله ومن المؤمنين.. فيدل القرآن بذلك على أن المنزلة عنده سبحانه وتعالى هى بالعمل للدنيا والآخرة : " وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ " (المطففين ٢٦) .. هذا التنافس قوامه الإخلاص والإجادة.. فكان ﷺ - يقول لأصحابه : " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه " .. الإتيان هو روح العمل ومهجة الإسلام، وهو المدخل للإجادة والدقة التى يكاد يتفق عليها الناس عاملهم وباطلهم !

ولكن !.. ما هى الدقة، وما هو الأداء الدقيق صنفاً كان أو تعبيراً، وهل فى مقدور الإنسان العادى أن يكون دقيقاً فى غير حرفته أو مهنته أو فى غير تخصصه أو فنه ؟!

يبدو أن " الدقة " هى أصلاً المطابقة بين تصورنا الداخلى للموضوع والصورة التى نقوم بأدائه بها، وبين نموذج خارجى استوحيناه أو مفترض اتباعه اختياراً أو جبراً، تصوراً وأداءً.. فالدقة تحمل دائماً اهتماماً بالضبط وبالانضباط وبالحساب والمسئولية - ولذلك فلا توصف آلام المريض بالدقة، أو يوصف بها غضب المشتري لسوء حالة المبيع، أو حزن الوالد على رسوب ولده فى الامتحان، أو استياء الناس من غلاء الأسعار، أو ازدحام الطرقات فى المدينة، أو عدم نجاح الحكومة فى

مكافحة تجارة المخدرات أو فشلها في حل مشكلة المجارى ! هذه صور لا توصف بذاتها بأنها دقيقة، وإنما المراد أن يعالج كل منها بدقة، سواء من جانب الطبيب أو الخبير أو المدرس أو الاقتصادي، أو من جانب الاختصاصيين فى مكافحة المخدرات وغيرها مما يتولاه أهل الاختصاص.. لأن هؤلاء جميعاً هم الموكول إليهم العمل والمطلوب منهم فى أدائه - أن يلتزموا الحساب والدراسة والضبط والانضباط والمسئولية !

نعم، من حق الإنسان العادى أن يضيق بما يؤدى إليه بغير دقة وإتقان.. ومن الوارد أو المحتمل أن يتألم وأن يغضب وأن يحزن وأن يستاء، وأن يعبر عن ذلك علناً، لأنه فى النهاية هو الذى يكتوى بعدم دقة أداء الفنيين والاختصاصيين أو بسوء تشخيصهم أو سوء علاجهم وتدبيرهم أو قلة تبصرهم للعواقب أو ضيق أفقهم أو قصور وتخلف معلوماتهم وأدواتهم ومعداتهم. ولكن لا ينبغى له أن يتجاهل الفارق بين العادى وبين الفنى المتخصص أو المحترف أو صاحب المهنة أو الحرفة أو الفن. فالإنسان العادى يحتكم عادة إلى خبراته بشئون الدنيا والحياة وإلى معلوماته العامة، وشكواه مهما بلغت من الحق لا تعتبر تشخيصاً طبياً أو هندسياً أو فنياً أو اقتصادياً أو قانونياً أو دستورياً للمشاكل، ولا يمكن أن يُبنى عليها علاج لمتطلبات أو لمشاكل أو معضلات الأفراد أو الأمة أو الدولة أو للمشاكل الدولية !

إنما قد تطلب الدقة من الإنسان العادى فى كثير مما يعترض حياته، فيكون مطالباً بالتزام الدقة فى اتباع الأنظمة وتطبيق التعليمات الواجبة الاتباع، وهذه الدقة تمضى فى سلاسة وسكون بلا ضجيج.. لا نسمع لها صوتاً، لأنه لا يصحبها سمعة أو شهرة مما يجرى وراءه

الناس طلبا للصيت أو حبا في الظهور.. كما لا يصاحبها قيادة أو زعامة محتملة أو قريبة الاحتمال مما يرنو إليه معظم الناس، بل يصحبها في أحيان كثيرة التعرض - إذا أفلتت الدقة - لأضرار تتنوع تبعاً لما أعوزته الدقة فيه، وقد تبلغ به حد التعرض للجزاءات الإدارية أو للعقوبات الجنائية.. لا يستغنى الإنسان العادى عن الدقة فى كل شئون حياته، ويدفع ثمن مفارقتها إذا ما خولفت - مثلاً - تعليمات تعاطى الأدوية بدقة فى مواعيدها الدقيقة المقررة، أو خولفت تعليمات تطعيم الأطفال فى أوقاتها المحددة فى السنوات الأولى من أعمارهم!، أو كما يحصل عند مخالفة الإرشادات الفنية المتعلقة بالمحاصيل والمواشى والدواجن والنحل وغير ذلك من الخسائر والأضرار !!

لا تقتصر " الدقة " مثلاً لا يقتصر " الإتقان " - على العمل أو الإنتاج المادى، فدقة التعبير " مطلب " أساسى أيضاً فى العلوم والآداب والفنون، بل هى مطلوبة فى الحديث وفى الكتابة، يعترض هذه " الدقة " ما قد يدور فى أخلاد البعض أنه حر فيما يقول أو يكتب من قيود الضوابط أو المسؤولية، وهو ظن ظاهره الصحة على اعتبار أن الإنسان يمتلك حرية التعبير كتابة أو شفاهة، ولكنه ليس صحيحاً على إطلاقه، لأن التعبير كتابة أو شفاهة باب واسع يصب فى روافد متعددة، منها ما يمس الشئون العامة التى تهم المجموع، ومنها ما يمس حياة شخص أو أشخاص من حقهم صيانة حيواتهم الشخصية من الاقتحام والتلصص، أو حماية سمعتهم وعرضهم ومالهم من الإيذاء من رذاذ سوء التعبير متعمداً كان أو غير متعمد.. الدقة مطلوب أساسى حين تمس الكتابة أو القول حياة الأفراد أو الجماعات أو حياة المجتمع بعامه فى حقوق أفرادِهِ وحقوق مجموعِهِ !

ليس كثيراً على الإنسان أن يبذل قدراً معقولاً من الاحتياط فى كتابته أو حديثه فى أمثال تلك الأمور الجادة المؤثرة فى حيات الناس وقوام المجتمع، وليس كثيراً أن يتعرض الجانح الشارد والمشتط للمساءلة حين لا يحتاط لحقوق وكرامات المجتمع والناس، وحين يجاوز المألوف فى الترخص إلى الجموح والشطط وقلة الانضباط التى قد توصف عندئذ بعدم الدقة أو بالتشهير أو بالمساس بالشرف والاعتبار أو بالطعن على النظم المقررة أو بانتهاك الآداب أو بترويح الأخبار الكاذبة أو الشائعات أو الأفكار الهدامة !

فموضوع الدقة المطلوبة فى الكتابة أو الحديث هو الاحتياط الواجب العقل - من الوقوع فى الأخطاء المؤذية للغير المفترض فى كل فرد أن يتحاشاها ويتجنب الوقوع فيها، صيانة لحقوق وكرامات الآخرين، وانصياعاً لضوابط المساءلة التى تقوم على إيجاد توازن لازم وحتمى ومطلوب بين الكلمة منطوقة أو مكتوبة، وبين مسئوليتها.. المقاييس فى هذه الأمور معيارية كلها، وقد يدق ويصعب التفريق بين المباح وبين غير المباح أو المحظور فى بعض الصور بالنظر لتغير الأذواق والأخلاق والمثل تبعاً لتغير الزمان أو المكان، أو لتطور الجماعة فكرياً ومادياً وشيوع اتجاهات جديدة فيها يجب أن يحسب حسابها فى توقع وعى والتزام الأفراد لتلك المعايير !

الدقة وإتقان العمل واجب عام لا يتخصص بعمل دون عمل، ولا بسلوك دون سلوك، ولا بتصرف دون آخر.. وإنما هو طبع عام وسجية مانحة تعطى ثمارها فى كل ما يؤديه الإنسان من عمل ويلتزم فيه واجب الجادة والدقة والإخلاص والإتقان.. هذا الواجب العام لا محل

لتخصيصه بلا مخصص، ولا لتقييده بلا مقيد.. وما لنا نقيده ونحاصره
بينما التزامه كفيل باستقامة الأمور وتعطير الحياة بقسمات الكمال والجلال
والجمال.. سبحانه وتعالى الذى خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملا
وأكثر جادة وإخلاصا وإتقانا فى عمارة الحياة !

هل من تطبيع مع المصريين ؟! (*)

غريب مفعج حتى النخاع، أن نتنادى علانية أو نتوارى خفية، بالتطبيع مع الإسرائيليين الذين يشنون حملات الإبادة، ويحصدون الأرواح، والزرع والضرع، ومعها البنى التحتية والفوقية، مع الجدارات العازلة، وحملات تشنيت الشعب الفلسطيني، وتعقيم العرب بعامة، بينما لا نلتفت إلى تطبيع العلاقات مع شعبنا المصرى ؟! - هل التفت أحد إلى أن شعبنا أحوج للتطبيع معه من زمر الأعداء وأنصاف الأعداء ؟!.. هل تأمل أحد فى حالة الاحتقان التى طالت معاناة الشعب من بثورها فانطلقت الأنات مع الإضرابات والاعتصامات والاحتجاجات نتنادى ألا من تطبيع معنا : نحن شعبكم !.. إخوانكم أو آباءكم أو أبناءكم ؟!.. هل نظر أحد إلى حرمان الشعب المصرى من معظم حقوقه الدستورية ومعها الإنسانية فإذا أفلتت أناته أو اختلاجاته، عاجلناه بمعالجات أمنية ثقيلة، ومحاكمات عسكرية بقوانين وإجراءات لم توضع إلا للمجتمع العسكرى ضبطاً وربطاً وتنظيماً لقوات عسكرية قوامها يختلف كل الاختلاف عن المجتمع المدنى.. عن العامل والفلاح، وعن الموظف والمهنى، وعن أساتذة الطب والهندسة

والتجارة والصيدلة والزراعة والبيطرة الذين تنتزعهم من وقت لآخر من دواوينهم ومصانعهم، ومن جامعاتهم وكلياتهم وطلبتهم لندفع بهم فى دفعات متكررة إلى غير قاضيهـم الطبيعى الذى أوجب الدستور الذى به نتغنى أن يمكن المواطن - كل مواطن - من اللجوء إليه.. إلى قاضيه الطبيعى !؟

ألسنا ندرك أن القاضى الطبيعى هو آخر الملاذ والحائط الأخير للمواطن إزاء طغيان السلطة أو تجاوزها لحدود القانون الذى نص ذات الدستور على خضوع الدولة له وأنه أساس الحكم !؟

وكيف يهون علينا أن نتحدث علانية أو نتوارى احتياطاً، عن تطبيع العلاقات مع إسرائيل والإسرائيليين، بينما العلاقة بشعبنا قد احتدمت واحتقنت وتأججت وفارقت كل مألوف فى علاقات الشعوب بنظمها وحكامها.. نعم من حق كل نظام أن يؤمن نفسه، وأن يحتاط لأمانه وأن يلاحق كل من يعيث به أو يهدده، ولكننا نحن المصريين حكاما ومحكومين قد ارتضينا دستوراً يحكم علاقاتنا.. علاقة السلطات ببعضها، وضوابط أدائها، وعلاقتها بالشعب الذى تتبع منه كل الحقوق التى منها تستمد كل السلطات شرعية وجودها وشرعية تشكيلها وضوابط وحدود أدائها !

كانت الدساتير فى القديم السابق، منحة من الحاكم، فصارت فى العالم المتحضر ميثاقاً تفرضه الشعوب وتمنحه لنفسها لتقيم وتحدد به نظام حكمها وضوابط سلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية من ناحية، وتقيم التوازن من ناحية أخرى - وهى الأهم - بين الشعب ونظام الحكم، فى إطار منظومة متكاملة - أقامها الدستور المصرى - تكفل احترام حقوق المواطنين مرعية بمبادئ سيادة الشعب مصدر السلطات، وسيادة القانون وخضوع الدولة له، ومساواة جميع المواطنين لدى القانون فى الحقوق والواجبات

بلا تمييز بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة، مع كفالة الحرية الشخصية وصونها وعدم المساس بها، وحفظ كرامة الإنسان وحمايته من وطأة العدوان أو التهديد به، وصيانة حرمة وحماية الحياة الخاصة، وكفالة حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية، فضلا عن كفالة حرية الرأي والتعبير عنه، وضمان حرية الصحافة والطباعة والنشر ووسائل الإعلام، مع حق الاجتماع الخاص بلا إذن ولا إخطار، والاجتماعات العامة والتجمعات ما دامت في حدود القانون، فضلا عن حق تكوين الجمعيات والاتحادات والنقابات، وعلى أن يكون ذلك كله محكوما بسيادة القانون الذى جعله الدستور المصرى أساس الحكم فى الدولة (م ٦٤)، ونص على خضوع الدولة له خضوعا مقرونا باستقلال القضاء وحصانته (م ٦٥)، وتحت ضمان أكبر فى صيانة حق التقاضى للناس كافة، وحق اللجوء إلى القاضى الطبيعى (م ٦٨)، مع كفالة حق الدفاع بالأصالة والوكالة، وعدم إقامة الدعوى الجنائية إلا بأمر من جهة قضائية وفى إطار مجموعة من الضوابط تكفل حماية المواطنين من أى تجاوزات للسلطة.

لا يلزم بالضرورة أن تكون من جماعة الإخوان المسلمين، أو من المتفقين مع فكرهم، أو المتعاطفين معهم - لكى ترى حقهم، إذا اتهم أحد منهم، فى ألا يمثل إلا أمام قاضيه الطبيعى.. هذا الحق إذا سحب من الإخوان اليوم، فسيسحب من غيرهم غداً.. الحق هنا لا يتعلق باتجاه سياسى أخطأ أم أصاب، فللسياسة ميدانها، وللعدالة محرابها.. لا يجوز الخلط بينهما.. قديما قال الأستاذ مكرم عبيد فى مرافعته عن النحاس : "إن السياسة والعدالة ضدان لا يجتمعان. وإذا اجتمعا لا يتمازجان.

والواقع أنهما مختلفان في الطبيعة والوسيلة والغرض. فالعدالة من روح الله والسياسة من صنع الناس. والسياسة توازن بين شتى الاعتبارات، والعدالة تزن الأمور بالقسطاس. وكذلك يختلف الغرض منهما: فالعدالة تطالب حقاً والسياسة تبغى مصلحة سواء أكانت تلك المصلحة حقاً أم باطلاً! غير أن أخطر ما في السياسة أنها ترى من حسن السياسة أن تخلع على المصلحة رداء الحق تلبسه دواماً وأن تخدع الناس عن ظلم السياسة فتصوره عدلاً لازماً!!... هذا شر ما يخشى من السياسة، ولذلك فليس أشد خطراً على نظام الدولة وأخلاق الشعب، من أن تتخذ المنازعات السياسية شكل الدعاوى القضائية، فتدخل السياسة هيكل القضاء متباكية متمسكة بأعتابه وتتجنى على العدل باسم العدل منتحلة اسمه متشحة بجلبابه! وقد عودتنا السياسة أن تقلب الأوضاع فتتباكى وهي الجانية وتشتكو والناس منها شاكية!.. "

إن الخلاف أو الاختلاف السياسى - لا يجوز مهما اشدت، أن يقوض مبادئ العدالة أو يخرج عن حومتها.. الجنوح فى أشد وأخطر صورته لا تعالجه الدول إلا بالقانون. لا تملك الدولة - أى دولة - أن تسير الجانحين - إن جنحوا - فتجنح هى الأخرى فى التعامل معهم. المجرم قد يقتل، ولكن الدستور والقانون يحميانه من التعذيب أياً كان قدره، ومن التهديد أياً كانت صورته، بل ومن الوعد والوعيد. والجانح قد يرتكب أبشع جرائم الاغتصاب أو الاختلاس أو الارتشاء أو السرقة أو النصب، ومع ذلك لا تمتد إليه يد العقاب إلا بعد محاكمة دستورية قانونية منصفة يوافق ظاهرها باطنها.. فى ضوابطها تقول المحكمة الدستورية العليا، فى العديد من أحكامها: " إن افتراض براءة المتهم، لا يعدو أن يكون استصحاباً للفطرة

التي جبل الإنسان عليها، وشرطاً لازماً للحرية المنظمة يكرس قيمها الأساسية التي لا يتصور أن تنفصل الجماعة عنها. وهو كذلك وثيق الصلة بالحق في الحياة، وبدعائم العدل التي تقوم على قواعدها النظم المدنية والسياسية جميعها " .. " إن أصل البراءة يعتبر بذلك جزءاً لا يتجزأ من محاكمة تتم إنصافاً باعتباره متسانداً مع عناصر أخرى تشكل مقوماتها، وتمثل في مجموعها حداً أدنى من الحقوق اللازمة لإدارتها، ويندرج تحتها أن يكون لكل من المتهم وسلطة الاتهام، الوسائل عينها التي يتكافأ بها مركزاهما سواء في مجال دحض التهمة أو إثباتها، وهي بعد حقوق لا يجوز الحرمان منها أو تهيمشها. وقد أقرتها الشرائع جميعها.. إن الدستور يكفل للحقوق التي نص عليها في صلبه الحماية من جوانبها العملية وليس من معطياتها النظرية. وأصل البراءة قاعدة أولية تفرضها الفطرة، وتوجبها حقائق الأشياء ". وبغير ذلك - " ينهدم أصل البراءة الذي هو من الركائز التي يستند إليها مفهوم المحاكمة المنصفة التي كفلها الدستور، تقتضيها الشرعية الإجرائية، ويعتبر إنفاذها مفترضاً أولياً لإدارة العدالة الجنائية ويتطلبها الدستور لصون الحرية الشخصية في مجالاتها الحيوية، وليوفر من خلالها لكل فرد الأمن في مواجهة التحكم والتسلط والتحامل " !!

لا يقبل المنطق، ولا تسيع العدالة، أن تبدأ إجراءات دعوى - أيا كانت - في القضاء الطبيعي العادي، تباشرها ابتداء نيابته العامة، أدوناً وضبطاً وتحقيقاً، وتبدأ المحاكم في نظر طلباتها، ثم تسحب القضية من أمام القضاء العادي - مساساً باستقلاله - لتحال إلى القضاء العسكري الذي جعل أصلاً للعسكريين أو لما يقع من جرائم على ممتلكات القوات المسلحة

وأسرارها أو فى ثكناتها. المادة / ٦ / فقرة ٢/ من قانون الأحكام العسكرية لا تبيح هذه الإحالة، وهى مادة مطعون بعدم دستوريتها - بدعى منظورة - لمخالفتها المبدأ الدستورى بحق كل مواطن فى اللجوء إلى قاضيه الطبيعى (م/٦٨ دستور)، فضلا عن أن المادة بفقرتها تتحدث عن إحالة " جرائم بنوعها ولا تتصرف إلى قضايا بعينها أو أشخاص بذواتهم، وهو ما تجرى به الإحالات خلافا لقرارات سابقة التزمت بأن تكون الإحالة بجرائم بنوعها - كجرائم التجنيد - لا قضية بذاتها. وفى اعتقادى أن سحب قضية من أمام القضاء العادى والطبيعى القائم بنظرها وإحالتها إلى القضاء العسكرى، تأخذ من القضاءين وتعطى دلالات لا يستطيع أحد أن يتحاشاه. وإن تخرج من الإفصاح بها، ثم إن ذلك يأخذ من النظام نفسه ولا يعطيه. ويحسب عليه أمام الخارج والداخل أنه بعد أكثر من نصف قرن من قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ والمناداة بالعودة إلى الشرعية الدستورية - يعود بالمدنيين إلى المحاكم العسكرية وقانونها، ويعدل عن نص دستورى - عن القاضى الطبيعى - لا أحسب أن أى منطق، ولا حتى حكم - يمكن أن يبرر العدول عنه أو إهداره، أو يسيغ أن يقف المدنيون أمام المحاكم العسكرية بينما قضاؤنا العادى الشامخ يملأ مصر طولا وعرضا، وهو صاحب الاختصاص الأصيل ولم يتخل عنه، وركن النظام والعدالة الركين. ظنى أيضا أن السحب من القضاء الطبيعى العادى والإحالة إلى العسكرى - يسترجع حساسيات نجحت القوات المسلحة بأعمالها الأصيلة الكبرى فى إزالتها من لدى المدنيين وإقناعهم بأنه لا تفضيل ولا خصوصية وإنما هى درع الوطن وواقيته، ذات هذه المعانى هى التى حدث بالقائد الأعلى إلى العدول - لمشورة صادقة أبديت - عن إحالة ما سمي بقضايا أندية

الفيديو إلى القضاء العسكرى، واستبقائها أمام القضاء العادى.. وهى معانٍ
أعتقد أن النظام أحرص على استبقائها صيانة لقواتنا المسلحة وحفاظا عليها
درعاً للوطن وحامياً له وابتعادا بها عما لا شأن لها به !

يستوجب التطبيع مع المصريين ألا نتواطأ بالقانون على القانون..
فالتواطؤ بالقانون هو استقواء بسلطة تغلب التشريع من تعبير طبيعى عن
احتياجات ومصالح وحقوق المجتمع، إلى استقواء (غير طبيعى) عليه
بتواطؤ يفتعل أغلبية فى داخلها هشة مدفوعة برياح الزلفى أو المصانعة
أو الاتقاء !.. التطبيع قوامه احترام حقيقى متبادل، وتوازن حقيقى مصون
بين الحقوق والواجبات.. أساسه احترام العقل الجمعى للأمة وعدم الالتفاف
بشتى السبل عليه !

أخطر ما يقع فيه القصاص السياسى - إن جاز التعبير - تكرار
المحاكمة عن ذات الفكر أو عن ذات تهمة الانضواء فى تنظيم أو اعتناق
فكر.. فالتكرار هنا يصطدم بعدم جواز نظر الدعوى لسابقة الفصل فيها،
ذلك أن اعتناق فكر أو الانضواء فيه، يشكل " حالة " ولا يشكل أفعالا
مستجدة.. حالة صاحب الفكر المعتقد له، أخطأ فيه أم أصاب، هى "
حالة " ليس مقبولا أن نعاود من وقت لآخر محاكمته عنها.. تقول
المحكمة الدستورية العليا (٢٠٠١/٦/٢ - فى الدعوى ٢١/١١٤ ق)
إن القانون لا يعاقب على أفكار أو خواطر أو اتجاهات أو معتقدات
أو أمنيات، وإنما يعاقب على نشاط وسلوك أفعال تشكل " وقائع إجرامية "
محددة لها قوام زمنى ومكانى ونشاطى.. المحاكمات التى تشن من وقت
لآخر على ذات الأشخاص لذات التهم تشكل فى واقعها حملات قمع

وتصفية تنتشج بالعدالة وهى أبعد ما تكون عنها، وتؤدى إلى التهاب واحتقان أجدر بنا أن نطبع إزاءه العلاقات مع شعبنا !

إجراءات المحاكمة جزء لا يتجزأ من شرعيتها، فالمحكمة كسطة حكم تفصل فى الاتهامات المعروضة عليها بأمر الإحالة، ولها أن تغير وصف واقعة التهمة أو تعدلها، شريطة ألا يشكل ما تجريه إقامة لتهمة أخرى غير واقعة التهمة الواردة بأمر الإحالة.. علة إباحة تغيير الوصف أو تعديله، أنه لا ينطلق من واقعة غير الواقعة التى أحيلت بها الدعوى. فالدعوى تحال إلى المحكمة "بوقائع" لا بأوصاف، ومن ثم يجوز للمحكمة أن تغير وصف التهمة أو تعدلها ما دمت عن الواقعة الواردة فى أمر الإحالة، ولذات هذه العلة يعتبر قضاء المحكمة فى شأن "واقعة" محالة إليها، أيا كان وصفها، فصلا فى الواقعة بكل كيوفها وأوصافها المحتملة فى القانون، ولا يجوز من ثم إعادة نظرها أيا كان الحكم السابق بالبراءة أو بالإدانة، أما إذا رأت المحكمة وجود "واقعة" أخرى فى الأوراق أو كشفتها التحقيقات والمرافعات، أو متهمين غير أو زيادة عما شملهم قرار الإحالة، فإن إقامة الاتهام عنها بالمحكمة محظور صراحة بنص المادة ٣٠٧ من قانون الإجراءات الجنائية. ومحظور أيضا على المحاكم العسكرية بنص المادة ١٠ من قانون الأحكام العسكرية التى اتخذت من قانون الإجراءات الجنائية قانونا عاما فيما لم يرد فيه نص فى القانون العسكرى.. ومن ثم فإن المحكمة لا تملك فى هذه الحالة إقامة الاتهام - عملا بقاعدة الفصل بين سلطتى الاتهام والحكم، وكل ما لها - إذا كانت محكمة جنائيات - أن تتصدى طبقا للمادة ١١ إجراءات جنائية بأن تحيل ما صادفها من وقائع أخرى إلى النيابة لتجرى

شئونها فيه، وإذا أعيدت الدعوى سواء برفع الاتهام أو الاتهامات الجديدة، أو برفض رفعها، تحال القضية إلى دائرة أخرى حالة كون الدائرة الأولى قد أبدت رأياً يدخل فى وظيفة الاتهام، فيمتنع عليها والأمر كذلك أن تجلس مجلس الحكم وتقضى فى الدعوى.

من أكثر من ثلاثين عاماً، أعلن الرئيس السادات انتهاء ما أسماه الشرعية الثورية، وبداية الشرعية الدستورية، بيد أنه على عكس ذلك رأينا انفتاحاً يتزايد على الإجراءات الاستثنائية التى باتت تحتاج إلى تطبيع لازم.. زادت حالة الطوارئ عن ربع قرن، وزادت المعتقلات ومعها إجراءات استثنائية اتسعت معها إحالة المدنيين إلى المحاكم العسكرية.. يقال إنه يلزم " للتطبيع " مع المصريين وضع قانون للإرهاب بديلاً عن إلغاء حالة الطوارئ، مع أننا سبق من أربع سنوات أن تذرنا لإلغاء أحد نوعى - وليس كل - محاكم أمن الدولة، لنضيف حزمة ثقيلة ضد الحريات فى قانونى الإجراءات الجنائية والعقوبات ! تذرنا بهذه الفرصة فأخذنا السلطات الاستثنائية الواسعة المعطاة للنيابة العامة فى قانون محاكم أمن الدولة (١٠٥ / ١٩٨٠) - وزدنا عليها بأثقال كبيرة ومؤثرة على الحريات والضمانات، ونقلناها بالزيادات والانتقال إلى صلب قانون الإجراءات الجنائية، فتحول الاستثناء إلى أصل، والمؤقت إلى دائم، ولم تعد الزيادات التى قررت آنذاك (٢٠٠٣) تسمح بمزيد من محاصرة الحريات والضمانات.. ومع ذلك، فما نحن نعيد استخدام ذات الذريعة السابق استخدامها، فنشترط إصدار ما أسميناه قانون الإرهاب لنرفع حالة الطوارئ ونطبع العلاقات مع المصريين !

حالة الاحتقان المتزايدة وانعكاساتها في ملاحقة الصحفيين بالحبس بدعاوى مرفوعة من غير ذوى صفة وعلى خلاف القانون، وفي إضرابات العمال والموظفين والطلبة، وفي الاعتصامات، وفي تجمعات المعارضة.. تورى بمحاذير بل ومخاطر استمرار حالة اللا تطبيع مع الشعب.. الحالة الراهنة تحتاج إلى تأملات عميقة لها أهلها غير من. تهرأت رؤاهم بفعل الجمود والزلفى. خذ التشريع مثلاً. بقى التشريع حتى في عهد المؤكدة بعيداً عن الحزبية، يكفيك أن تراجع تشكيل لجان وضع القانون المدنى أو القانون الجنائى أو المرافعات المدنية أو الإجراءات الجنائية قبل ١٩٥٢، لترى أنها جمعت أهل العلم والفقه، ولم تكن محصورة قط فى الحزب الذى يحكم.. حتى لجنة الثلاثين لوضع دستور ١٩٢٣ فى عهد الملك المستبد فؤاد الأول، جمعت فى تشكيلها شتى التيارات والطوائف والأحزاب، تعبيرا عن مجمل الأمة.. العملية التشريعية حق الأمة بأسرها، نقضى عليها وعلى كل آمال الإصلاح إذا حصرناها فى الحزبية أيا كانت أغلبيتها حقيقية أو مصطنعة.. التشريع رؤية علمية اجتماعية اقتصادية سياسية تلتقى بقدرة قانونية فقهية متمكنة مالكة لأدواتها ومن قبل ذلك تجردها..

تطبيع العلاقات مع المصريين، يستوجب احترام الحق الدستورى لكل منهم فى إبداء رأيه ما دام فى حدود القانون، فإذا جاوز فى إبدائه إلى سب أو قذف، فلا تحرك الدعوى الجنائية ضده إلا من المجنى عليه صاحب الحق فى الشكوى لا سواه، ولا تقبل ممن يتلحفون على خلاف نص القانون بأنهم مستهم أوجاع من أضرار حقيقية أو مفتعلة من المساس بالرموز!.. تطبيع العلاقات مع الشعب يستوجب عدم إقحام أو استئراج القضاء إلى

خصومات الرأى أو خصومات السياسة، والحفاظ عليه فى برجه المنيع حصنا للجميع.. هذا التطبيع يستوجب احترام حق الجميع فى مناذر إعلام الدولة.. فإعلام الدولة حق للشعب قبل أن يكون حقاً للحكومة، فلا يُحاصر ذوو الرأى أو يحال بينهم وبين التعبير سواء فى الإعلام أو الاجتماع بل والإضراب ما دام فى حدود الدستور والقانون.. هذا التطبيع يستوجب ألا يلاحق أحد لمجرد رأيه مهما اختلف اتجاهه أو ميله السياسى.. احترام أدب وحق الحوار، والترفع عن اغتيال شخصية من لا يرضينا رأيه أو موقفه !

لا أحد يقر السب والقذف والإهانة، ولكن لا أحد أيضاً يمكن أن يقر الخروج على قواعد المشروعية فى مساءلة من عساه يخطئ أو يجنح من الصحفيين. جرائم السب والقذف تدخل فيما يسمى " جرائم الشكوى " .. منصوص عليها بالمادة ٣ إجراءات جنائية على سبيل الحصر، يجمعها أنه لا يجوز تحريك الدعوى الجنائية عنها إلا بشكوى من ذات المجنى عليه أو وكيله الخاص !

هذا الحق فى الشكوى، هو حق شخصى للمجنى عليه لا سواء، لا يمكن أن يستعيره منه أو ينوب عنه فيه إلا وكيل خاص موكل منه، وهذا الحق لا ينتقل بالميراث، بل وينقضى الحق فى الشكوى طبقاً للمادة ٧ إجراءات جنائية بوفاة المجنى عليه فلا يحل محله ورثته مادام لم يستخدمه حال حياته.

فتحريك الدعوى الجنائية التى حركت مؤخراً ضد الصحفيين عن السب والقذف - لا يجوز تحريكها إلا من المجنى عليه شخصياً أو بوكيل

خاص مفوض بذلك !.. هذه هى القواعد الطبيعية واجبة الاتباع، والخروج عنها تجاوز للقانون، وتشجيع غير واع على تجاوزه.. الاجترار على القانون يعرض الجميع للخطر، حاكمين ومحكومين.. سيادة القانون - نص الدستور - أساس الحكم فى الدولة، يجب عليها قبس غيرها - أن تلتزم باحترامه.. فالمحكوم صاغر - شاء أم أبى - للقانون.. قيمة سيادة القانون تأتى فى خضوع الدولة له واحترامه.. هذا الخضوع هو مناط المشروعية وهو أساس تطبيع العلاقة بين الحاكمين والمصريين المحكومين !

سيادة ما أسميه ثقافة الهدير، وتبادل الصخب والبذاءات فى كثير من الأحيان، أثر من آثار الاحتقان، وغيبة أدب الحوار.. هذا الأدب مسئولية مشتركة بين الجميع.. المعارضين والمؤيدين. انفلات لغة المعارضة وإن كان غير مقبول - إلا أنه رد فعل لضيق وعجز وفقدان أى أمل فى التغيير بل والإنصاف، أما تجاوزات المؤيدين، ومنهم من وقع فى وهدة ذت الصخب والبذاءات - فهى فعل غير مبرر لأنه قادر مريد.. امتلاك القرار والتنفيذ يغنى رفاق السلطة عن بذاءة التعبير أو ملاحقة كل من يختلف فى رأى بأبشع النعوت والألفاظ.. هذا " ألبان " .. سبا لقامة بالغة العلو فى الصحافة المصرية والعربية بل والعالمية لمجرد أن آراءها لا تعجب، وذلك " عبيط " .. تعقبا على حديث مهم لمسئول سابق إلتزم العقلانية والاعتدال والأدب والموضوعية، وغير ذلك من نعوت كانت صحافة السلطة فى غنى عن استخدامها احتراماً لحق وأدب الاختلاف.. الأدهى من ذلك أن يضطر من عهدنا فيه سلفاً أدب الحوار إلى الدخول فى سباق مع آخر فى انفلات الألفاظ وسيل الشتائم مخافة أن يسبقه لآخر فيحتل مكانه فى مؤسستهما الصحفية.. هذا يعنى أن النظام ترك رجاله يعتقدون أن

الأسبقية لصاحب الباع فى شتم وسباب المصريين المعارضين !!...
معالجات الأطراف جميعا قد ساقطنا إلى حالة " استنفار " تبادر إلى الهجوم
ولا تترفع عن البذاءات التى صار من المدهش أن تفتح لها شاشات
التليفزيون الرسمى للدولة مستقوية بنماذج لا تجد بأسا ولا غضاضة فى
السباب والشنائم وبأقذع الألفاظ.. هذا الغليان المنفلت مسئولية الدولة قبل
أن يكون مسئولية مؤيدين أو معارضين ضاق صدرهم فجمحت عباراتهم !
سيبقى المجتمع غير مطبع العلاقات، محكوما بمنطق الاستقواء، ما
غابت عنه حرية الأحزاب تشكيلا وممارسة، وساد منطق أضعف ما
سواك بدلاً من أن تقوى نفسك فى منافسة شفافة يسودها الأمان وأنب
الاختلاف.. لا أمل فى فض الاشتباك وتطبيع العلاقات ما بقيت الحياة
السياسية محكومة بمنطق ووسائل الاستقواء والإقصاء !!

يستوجب تطبيع العلاقات مع المصريين، احترام حقهم فى الحياة..
فى لقمة عيش متاحة، ومياه نظيفة، وسقف يقيهم غوائل البرد ولوافح الحر
ولا يضطرهم للالتحاف بالعراء... يستوجب هذا التطبيع عدم الالتفاف
حول الدعم آخر بقايا خلاص ذمتنا أمام الفقراء الذين اكتسحهم الفقر
وأمسك بهم الجوع بينما لا نتبنى إلا اقتصاداً يغدق فقرا على الفقراء
ويحaby الموسرين والأغنياء والأقوياء.. المساواة الحقيقية بين المواطنين
أولى أمارات ودعامات التطبيع مع الشعب.. مساواة فى الكرامة الآدمية
وأىضا فى حقوق المواطنة، وفى تكافؤ الفرص.. فى التعليم والعمل
والصحة.. يستوجب هذا التطبيع أن نكفكف مشاعر التعساء فلا نطاردهم
على شاشات الإعلام بمشاهد مستفزة للثراء الفاحش والأفراح الباذخة

والمناظر التى تشمت - دون أن تدري ! - بأوجاع المهمشين فى العشوائيات وقاع المدينة والمجتمع !

صعب ومحبط وموئس، أن يشعر المواطن بالغربة فى وطنه، وأن تحتقن علاقات أطرافه، ويغيب الفهم والإحساس المتبادل لدى كل بالآخر. هل تحتاج قوى الوطن المختلفة إلى مصالحة يطمئن فيها كل طرف أن له حقا فى وطنه كالآخرين، وأنه فيه موفور الكرامة والعدل والمساواة والأمان؟!.. ظنى أن افتقاد ذلك نذير خطير يحسن بالعقلاء - جميع العقلاء - أن يتداركوه، وأن يعودوا بنا إلى حيث كنا قد تعودنا فى وطننا العزيز، لتمضى مصر المحروسة واثقة الخطو فى طريقها متطلعة كما كانت لصناعة الحياة والكرامة لجميع المصريين !

الدفاع عن النفس

وأصل القضية ! (*)

تتفاوت حظوظ إدارات الدول من الفطنة، مثلما تتفاوت حظوظ الأفراد ! والفطنة أو الفطنة أوسع من الذكاء.. هي الحنق والمهارة وجودة استعداد ذهن لإدراك ما يرد عليه، مستعملا كافة قدراته وملكاته من ذكاء وفهم وانتباه واستبصار، يتزايد نصيب الفرد منها - وكذا إدارات الدول - كلما اتسع رصيد العقل من تغذية المحيط، ومن توّقد الذكاء وحقيقة الفطرة، هذه الفطنة لازمة لحسن الاستخلاص والتقدير، ولازمة أيضا لوحدة النظر الذي تدل ازدواجيته أو افتقاده المنطق على غياب أو قصور أو خفوت الفطنة أو الفطنة. من الفطنة عدم اللعب في المبادئ والأصول، لأن هذا اللعب عمره قصير، إن كسب جولة، فمآله إلى انكشاف محقق، وإلى اضطراب في المفاهيم والسلوك يصعب رتقه ويؤدي باللاعب إلى نتائج قد تلتف عليه، وتصيبه من حيث أراد أن يصيب الآخرين، أو تخذله فيما أراد فيه الانتصار لنفسه أو لحلفائه.. تذكرت هذه المعاني وأنا أراقب مندهشاً

تحدث الولايات المتحدة والمنضوين في أعطافها عن " الدفاع عن النفس " في مقام تبرير الإبادة الوحشية التى تشنها إسرائيل على الفلسطينيين في قطاع غزة.. غريب حتى النخاع إقحام نظرية " الدفاع عن النفس " في تبرير جرائم الحرب التى ترتكبها إسرائيل في القليل الباقي من فلسطين !! طوال قرون من السجل الأسود للإمبراطوريات الغربية التى تقاسمت احتلال العالم، وانتهاك أوطانه وشعوبه، لم تتبس أمريكا ولا السائرون في أعطافها بشيء عن حق هذه الأوطان وشعوبها في الدفاع عن نفسها إزاء المخازى التى ارتكبتها إمبراطوريات الاحتلال التى تتشدق الآن بحقوق الإنسان !

أين كانت نظرية الدفاع عن النفس منذ بداية الاستعمار الإسرائيلي الاستيطاني لفلسطين، المقترن بحرب التفرغ والإبادة التى تتوالى مشاهددها أمام أمريكا والعالم منذ ما قبل ١٩٤٨ وحتى الآن ؟!.. أين كانت نظرية الدفاع عن النفس والوطن إزاء موجات الهجرة اليهودية الصهيونية إلى فلسطين ؟! لم ترفع أمريكا والغرب شعار دفاع الفلسطينيين عن وطنهم، ولا عن أنفسهم ودمائهم التى سالت في مذبحه دير ياسين سنة ١٩٤٨، ولا رفعوه - هذا الشعار ! - حين أغارت إسرائيل على غزة وقتلت من قتلهم من الجنود المصريين في فبراير ١٩٥٥، ولا في العدوان الثلاثى على مصر وغزو أراضيها في أكتوبر ١٩٥٦، ولا في عدوان إسرائيل على مصر في يونيو ١٩٦٧، ولا في احتلال إسرائيل بهذه الحرب العدوانية أراضي ثلاث دول عربية فضلا عن احتلال البقعتين البقيتين من الوطن الفلسطيني، لم تتحدث أمريكا وأتباعها عن حق الدفاع عن النفس عند استيلاء الإسرائيليين على الجنوب اللبناني عام ١٩٧٨، ولا في مذبحه

صابرا وشاتيلا سبتمبر ١٩٨٢، ولا في مذبحة قانا التي نصبته إسرائيل
لبنان - أبريل ١٩٩٦ - وضربت فيها، فيما ضربت، مركز قوات حفظ
السلام للأمم المتحدة تعقبا للأطفال والشيوخ الذين لاذوا به من حمم النيران
الإسرائيلية، ولا عند محاصرة إسرائيل لياسر عرفات في مقره في رام الله
في ديسمبر ٢٠٠١، ولا عندما شنت غاراتها من الجو والبحر على
الأراضي الفلسطينية المحتلة في بنابر ٢٠٠٢، ولا عند حملة الإبادة التي
شنتها مئات الدبابات الإسرائيلية وآلاف الجنود الذين اقتحموا مقر عرفات
في رام الله في مارس ٢٠٠٢، ودون أن تبالي بقرار مجلس الأمن الذي
تعمدت أمريكا أن يخلو من الارتباط بالفصل السابع من ميثاق الأمم
المتحدة كيما تستطيع إسرائيل أن تضرب به عرض الحائط.. لم تتفضل
الولايات المتحدة والمطويون في أعطافها بإعلان أن من حق الفلسطينيين
والعرب بعامة الدفاع عن أنفسهم إزاء حملات الإبادة الإسرائيلية المتعاقبة
وجرائم الحرب التي لم تقف فيها عند حد ..! كل ما تفضل به بعض
الأوروبيين والأمريكيين هو الاحتجاج والتظاهر على الوحشية الإسرائيلية
والاعتداء على الرئيس عرفات !! ولكن أمريكا الدولة لم تعلن احتجاجاً،
ولا لوححت لإسرائيل بشيء عن حق العرب والفلسطينيين في الدفاع عن
أنفسهم إزاء هذه الإبادة ..! ولا حركت أمريكا وأتباعها ساكناً إزاء قتل
إسرائيل لـ ٩٠٠ مدني في مخيم جنين، ولا استجابت الإدارة الأمريكية
لنتيجة استفتاء الرأي العام الأمريكي التي أظهرت أن أكثر من ٦٠%
يؤيدون قطع المساعدات الأمريكية عن إسرائيل إذا لم توقف فوراً
عدوانها على الفلسطينيين الذين لم تتفضل الإدارة الأمريكية بالإفصاح عن
أنهم في موقف الدفاع عن النفس !! ولا أشارت أمريكا لهذه النظرية

إزاء استمرار إسرائيل في تهويد القدس وإقامة المسنمرات على الأرض الفلسطينية المحتلة!.. ولا حركت أمريكا ساكناً لدفع إسرائيل إلى احترام اللجنة التي أوفدها كوفي عنان سكرتير الأمم المتحدة لتقصي الحقائق في مخيم جنين وما حاق به من خراب وتدمير وإبادة وصفها الصليب الأحمر بأنها زلزال مدمر!.. ولما تجرأ مجلس الأمن وأصدر قراره ١٥٤٤ بإدانة إسرائيل عن اعتداءاتها على المدنيين لآمنين في قطاع غزة وفي رفح في مايو ٢٠٠٤، أثبتت الولايات المتحدة إلا أن تشذ عن العزم أجمع، وعن كامل أعضاء مجلس الأمن، فتمتنع عن التصويت حتى لا تمس مشاعر إسرائيل!..! أكثر من هذا أقدمت عليه أمريكا فلم تبد أي بادرة احترام لحكم محكمة العدل الدولية في يوليو ٢٠٠٤ بهدم الجدار العازل، ولا أبدت أي اعتبار لردود الأفعال الإنسانية ولا لبيان الاتحاد الأوروبي، ولا لقرار الجمعية العامة بأغلبية ساحقة بوجوب إذعان وتنفيذ إسرائيل لحكم المحكمة الدولية!.. لم تتذكر أمريكا شيئاً عن القانون الدولي، ولا استحضرت أو اهتز لها جفن عن حق الدفاع عن النفس إزاء حرب الإبادة الوحشية التي غزت بها إسرائيل لبنان في يوليو ٢٠٠٦!

لم تخرج الولايات المتحدة، والدائرون في أعطافها، لتقول للعالم إن مقاومة الشعوب لاحتلال أوطانها دفاع عن النفس، ولا إن مقاومة الفلسطينيين لاغتصاب وطنهم وتفرغهم وإبادة شعبه - دفاع عن النفس، ولم تخرج وأتباعها بنظرية الدفاع عن النفس إلا لتبارك بها إبادة إسرائيل للفلسطينيين في قطاع غزة!.. لو تظننت أمريكا لما رفعت هذا الشعار الذي يلتف من حيث لم تقصد ليرتد عليها وعلى إسرائيل ويعيد العالم إلى أصل القضية التي كاد يطمرها النسيان!.. الدفاع عن النفس في المجال

الدولى، تكاد تحكمه ذات المبادئ التى تحكم الدفاع الشرعى بعامه.. خلاصته أنه حق يقرره القانون الدولى، يبيح به للمعتدى عليه استخدام القوة لصد عدوان مسلح، يشترط أن تكون لازمة لدرئه ومتناسبة مع قدره، وعلى أن يتوقف فوراً بمجرد أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدوليين. بهذه المبادئ والمعايير التى ارتضاها المجتمع الدولى فإن فلسطين الوطن، وفلسطين الشعب، كانا ولا يزالان فى حالة دفاع شرعى عن الوطن والنفوس منذ بداية الغزو الاستيطانى الصهيونى لأرض فلسطين وحتى الآن. فعل الاعتداء غير المشروع، ارتكبته وترتكبه إسرائيل ولا تزال ماضية فيه على قدم وساق لإبادة الشعب الفلسطينى ومحو فلسطين من خريطة العالم ! من الاستخفاف بالعقول وضرب المبادئ ضرباً يحول العالم إلى غابة - أن تترك أمريكا كل هذه المشاهد المتتالية لحرب الإبادة الإسرائيلية الجارية منذ أكثر من نصف قرن على فلسطين وشعبها، ثم تصف المقاومة بأنها إرهاب، والدفاع عن الأوطان بأنه اعتداء، ويصاب منطقها بالعمى الضريع حين تصنف جرائم الحرب التى ترتكبها إسرائيل ضد المدنيين العزل، بأنها دفاع عن النفس، وتجهض المشروع العربى المقدم لمجلس الأمن لوقف العدوان الإسرائيلى ! من شروط الدفاع عن النفس أن يتجه إلى مصدر العدوان إن كان هناك عدوان، وأن يلتزم بالتناسب وبالتأقيت، وإلاّ بات جريمة حرب صريحة جرمها القانون الدولى، ووضع الإبادة الجماعية والجرائم الإنسانية على رأس قائمة جرائم الحرب، وأقام المجتمع الدولى المحاكم الدولية الخاصة لتعقب أمثال هذه الجرائم ليتوجهوا بإنشاء المحكمة الجنائية الدولية الدائمة للمساءلة والحساب عن جرائم الإبادة والجرائم ضد الإنسانية وجرائم

الحرب وجريمة العدوان. كل ذلك تمارسه إسرائيل على الواسع من أكثر من نصف قرن، بيد أن آفة المجتمع الدولي أن القوة تحكم القانون، وأن مقاليد هذه القوة بيد الولايات المتحدة التي لا تتفطن وهي ترفع لإسرائيل شعار الدفاع عن النفس، أنها تعيد العالم إلى أصل القضية الفلسطينية وتذكره بأن الجميع تواطأوا على حرمان الشعب الفلسطيني من حقه المشروع في الدفاع عن النفس والوطن !

اقتصادنا :

المخاطر والمحاذير! (*)

لا أدري هل هي ساعة النحس المشاع مقدمها يوم الجمعة التي أطلعتني على سيل من الكوارث بدت كالضربات القاضية، أم أن الغطاء قد أزيح فجأة عن بصر المشرف على الرحيل فصدق فيه قول القرآن المجيد " لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ " .. صفعني - أجل ! - مانشيت ومضمون المنشور بالصحف (الجمعة ١١/١) عن آلاف من شبابنا المهاجرين من أتون الضيق والإملاق وقلة الحيلة وانعدام الأمل في مصر، ولكن الداهية هي إلى أين ؟!.. يقول التقرير الذي كشفه إحصاء دقيق قامت به صحيفة " كوريير إنترناشيونال " الفرنسية، إن ثمانية آلاف مصري يعملون في " الجدار العازل " في إسرائيل، وفي المستوطنات الإسرائيلية التي تتصافر مع الجدار العازل في محاصرة الشعب الفلسطيني وتفريغ الوطن الفلسطيني السليب من بنيه، وتصديره إما إلى المجهول أو إلى الدول العربية التي يقاوم بعضها فتلتقى حوائط صد الدخول مع موجات الطرد - في وضع الفلسطيني الشريد الطريد بين شقى الرحى .. استعمار استيطاني طارد، ومحيط عربي رافض ! ما الذي ألجأ شبابنا إلى الهجرة

إلى إسرائيل وإلى قبول هذا الدور الوضع الحقيقى الذى يخون الحقوق القومية وينزع المواطن المهاجر من كل مشاعر الانتماء إلى وطنه الذى ألجأته قتامة الحياة فيه إلى قبول هذا الممر الذى قالت الأمثال فيه : " إيش رماك على المَر " ! - قال : " اللى أمرَ منه ! ". ولكن ترى ما هو الواقع المَر بل الأمر الذى ألجأ آلاف هؤلاء الشباب - كما يقول التقرير الإحصائى - إلى قبول هذا الهوان والخدمة التى تضرب آمالنا القومية فى الصميم، وإلى الرضوخ لعيشة الحيوان وقبول النوم هناك فى اصطبلات الخيول وحظائر الماعز فى يافا والجليل والطيبة - هل تذكرونها ؟! - والى تحمّل المهانة وقسوة المعاملة وملاحقات وضربات المتطرفين الصهاينة مع النوم فى الحظائر مع الأغنام والخيول والمواشى ؟!

كيف ولماذا يتحملون هناك - مع هذا الهوان الذى ما بعده هوان - محاصرة أدائهم لشعائر صلاتهم، ومطاردات وملاحقة الشرطة الصهيونية، والأمراض المعضلة التى جعلت تمسك بهم فى هذه الظروف اللا آدمية ! فضلا عن الابتزاز والضغوط التى يواجهونها من أصحاب الشركات لفرض شروطهم التى تلغى آدميتهم وتجبرهم على النزول بأجورهم إلى آخر الحدود الدنيا ! الأدهى أن يصرح الأمين العام لاتحاد نقابات عمال مصر " أن ظاهرة تواجد العمالة المصرية فى إسرائيل ليست جديدة " !! - يا أطاف الله ؟! لا أقول ماذا فعلت نقابات العمال، وإنما أتساءل ماذا فعلت الحكومة لتوفير فرص عمل تقى هذه الآلاف المؤلفة من شبابنا فى مصر من غول البطالة وتعاسة الفاقة وهلاك الفقر، وتقبيح ذل قبول هذا الهوان بين هجرة عشوائية مدفوعة بعصابات تجار الوهم التى لا تصادف رحلتها إلا الغرق فى اليم، أو الضياع هناك لمن

يفلت من الغرق فيقابلة مجتمع رافض لافظ لا يلبث أن يرده إلى الوطن
حسيراً كسيراً محبطاً بعد أن خسر الجلد والسقط والمال الذى استدانه
وأسرته للبحث عن متنفس يلتقط فيه رزقه بعد أن أجاعته بلده؟! فإذا
تحاشوا أخطار الغرق فى اليم، لم يجدوا أمامهم إلا أن يقبلوا ببيع المواطنة
والانتماء ويطفشوا إلى أرض الأعداء، ويسهموا بسواعدهم فى إقامة جدار
عازل على أرض فلسطين ضد أصحاب الوطن السليب، ويعملوا فى
مستوطنات تكرر الاحتلال الاستيطانى الذى يمكن الإسرائيليين من طرد
الفلسطينيين وتفرغ وطنهم تماماً من أبنائه! ماذا أقول؟

هل هانت مصر حتى يطفش شبابها إلى إسرائيل، أو تهرب بناتها
ونسأوها للعمل خادما وغير ذلك من لزوم الشيء فى المحيط العربى؟!
من المغالطة والتبسيط أن نلقى هذا الهم الثقيل على وزارة العمل أو على
نقابات العمال. هذه المسئولية مسئولية الدولة بأكملها، الوزارات والأجهزة
ومرافق التعليم والعمل والزراعة والصناعة والسياحة والتجارة والثقافة
والإعلام. كل أولئك.. ونحن جميعا - مسئولون عن الارتفاع بالتعليم
والتثقيف، وعن استيجاد فرص عمل حقيقية تحقق للوطن طموحاته وآماله
فى الرقى، وتخلق فرصاً للعمل تكفكف غول البطالة، وتقى أبناءنا من أتون
هذا الطوفان الضريع الضال!! لن تتأتى فرص العمل ما لم نقم علاقة
سببية واعية فاهمة بين حاجتنا فى كل باب من أبواب العمل
والمشروعات، وبين أنواع وصنوف ودرجات التعليم العام والفنى
والصناعى والحرفى والزراعى قبل العالى، والتوسع فى التدريب الفنى
والتقنى والحرفى لإمداد الورش ومراكز الإنتاج والمصانع بما تحتاجه. هذه

مهمة الدولة ومعها المجتمع بأسره، ولكن لماذا لا تقوم الدولة بواجباتها على النحو الذى يكفى ويقينا من كل هذه الرمضاء !

وجدت الجواب فى الطامة الكبرى التى طالعنتى بصحف ذات يود الجمعة والأيام التالية فيما كشف غطاءه رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات أمام لجنة الخطة والموازنة بمجلس الشعب، فالمؤشرات المدعومة بالأرقام التى أعطاها، هى أجراس إنذار فوري بأننا تجاوزنا مرحلة الخطر إلى مشارف الانهيار. تحدث المستشار رئيس الجهاز بلغة الحقائق والأرقام فحذر - بعد المجاملات - من أن " الفجوة " المتزايدة فى الموازنة بين الاستخدامات والموارد التى كانت ٣٤ مليار جنيه فى ٢٠٠٠/٦/٣٠، قد بلغت الآن ٧٤ مليار جنيه فى ٢٠٠٧/٦/٣٠، وشر البلية أنها لا تزال فى صعود مستمر، كذلك الارتفاع غير المبرر فى أسعار السلع والخدمات بما فيها السلع المنتجة محليا طبقا لتقرير الجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء، أما إقامة المشروعات فى مصر، فقد شن عليها المستشار رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات هجوماً عاصفاً، وكذلك على سلبيات الاستفادة من القروض والمنح، وقال إن ٩٠% من مشروعات الدولة تفتقد الدراسات الأولية والدراسات الميدانية، والباقي يشوبه عدم كفاية وعدم دقة أو سلامة الدراسات، وكذلك غياب الدراسات الاقتصادية.. وألقى قنبلة من العيار الثقيل حين صرح بأن الجهاز منذ تولى رئاسته أرسل لمجلس الشعب أكثر من ألف تقرير على مدار السنوات الثمانى الماضية، ومع ذلك لم تتغير هذه الظاهرة السلبية الخطيرة، سواء فى مشروعات الجهاز الإدارى للدولة، أو فى مشروعات القطاع العام أو مشروعات قطاع الأعمال العام. لم يوارب المستشار رئيس مجلس الدولة السابق، فصرح

بأن ما رصدته وترصدته التقارير يشكل جرائم إهمال تؤدي إلى إهدار المال العام وتستوجب المحاسبة والمساءلة، وأن هناك مشروعات كثيرة أثبتت تقارير الجهاز عدم وجود أى دراسة لها أصلاً، وأن الحكومة تفتقد الجدية - هكذا قال ! - فى أى مشروع، ولا يوجد معالجة أو حساب أو عقاب للمتسببين فى ضعف الأداء، ينسحب ذلك على الحكومة المركزية، وينسحب أيضاً على الهيئات والمؤسسات التى تصب فى مصلحة الدولة، وأضاف أن مستحقات الحكومة التى لا تحصلها أو تتراخى فى تحصيلها قد وصلت فى ٢٠٠٧/٦/٣٠ إلى ٩٩,٨ مليار جنيه - هل هذا معقول ؟! - وأن رصيد هذه المتأخرات كبير وأن بعضها مستحق على الجهاز الإدارى وشركات القطاع العام وعلى بعض المؤسسات الصحفية، أما بخصوص الدين الداخلى فقد وصل - فيما أبدى ! - إلى معدلات مخيفة تتذر بأخطر العواقب، فبلغ صافى الدين الداخلى على الحكومة وهيئاتها الاقتصادية العامة فى (٢٠٠٧/٦/٣٠) ٦٣٧ مليار جنيه - هل هذا معقول ؟! مقابل ٥٧٣ مليار جنيه فى العام السابق، أى بزيادة قدرها فى عام واحد ٦٤ مليار جنيه. معنى ذلك أننا نتراجع وأن الدين يزداد زيادات فلكية متتابعة ولا يتقلص أو حتى يتوقف عند الحد الخطير بل بالغ الخطورة الذى وصل إليه !!

وانتقد المستشار رئيس الجهاز إقامة مشروعات ليست ذات جدوى.. مثل إقامة ترعة على مدى ٥٢ كيلو متراً، وفى نفس الوقت حفر ترعة أخرى ملاصقة وموازية بذات طول ٥٢ كيلو متراً !! محذراً - بلا موارد ! - فى أجراس الإنذار التى أطلقها من أنه يرفض استخفاف الحكومة بتقارير الجهاز المركزى للمحاسبات، هذا الاستخفاف الذى جعل

الأرقام تتزايد ولا تتقلص أو حتى تتوقف عند الحد بالغ الخطورة الذى وصلت إليه !!!

الأدهى والأمر، هو رد فعل الحكومة الذى لاحقته به - بعد أن فرغت من كتابة المقال - أنباء يوم الاثنين التى نقلت غطرسة ومصادرة الحكومة وتعاملها مع الموقف بلا أى تقدير للمسئولية ! لاحظت فى رد فعل الحكومة على ما أوضحه وبينه كبير محاسبيها المستشار رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات، وهو لا يرقى إليه أى شك فى ولائه للنظام الذى اختاره وعينه، ولا فى حرفيته وأستاذيته، ولا فى نزاهته، ولا فى صدق توجهه للمصلحة العامة.. ولكن بدلاً من أن تتأمل الحكومة وتدرس وتتدارس فيما تضمنه تقرير الجهاز وأبداه وشرحه رئيسه، وتتفجع بملاحظات التقرير المتجردة من أى غرض إلا مصالح مصر، إذ بممثل الحكومة الدكتور يوسف بطرس غالى يتعامل مع المستشار رئيس الجهاز بصلف وعدوانية، ويتمادى - بلا حجة ! - ويفرط منه لفظ غير لائق دعا رئيس الجهاز إلى مطالبته بالاعتذار الذى بدا أنه عزَّ عليه وعلى بعض من أشاروا إليه بالإحجام عنه، مما اضطر الدكتور سرور رئيس المجلس إلى حذف الكلمة الشاردة التى صدرت من الوزير فى حق رئيس الجهاز من مضبطة الجلسة. الأخطر أن يلوح الدكتور غالى - على ما نقلته شاشات التلفزيون - بما تصور أنه إحراج أو إفحام أو إخافة للرجل الذى حمل مسئوليته بصدق وأمانة، فطفق الدكتور غالى يومئ بأن ما ينتقده الجهاز هو انتقاد لسياسة الحزب الوطنى والدولة التى يرأسها رئيس الجمهورية ! هذا الأسلوب الذى اختاره السيد الوزير غريب جداً على لغة الحوار فى المصالح العليا للبلاد، بل على أى حوار، والأغرب أن يصدر من الدكتور

بطرس ابن الثقافة الأمريكية وخريج تعليمها الأمريكي العالى، بينما هم هناك لا يحملون الأمور بهذا المحمل، ولا يناقشونها بهذا الشكل، ولا يضعونها قط فى هذا الإطار الذى أراده السيد الوزير إحراجاً أو إفحاماً أو إرهاباً للمستشار الجليل رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات ! معنى ذلك أننا نصادر ونصد أنفسنا عن معرفة أخطائنا، ونحول بيننا وبين تشخيصها والتفكير فى سبل علاجها والإقدام على هذا العلاج غير هيايين ما دمنا نستهدف مصالح البلاد !

هذه النذر فى أزمتنا الداخلية المتفاقمة، وفى طفشان شبابنا إلى إسرائيل والعمل فيها ضد مصالحنا القومية، هى نذر بالغة الخطر، تورى بأن " الداخل " عجز عن أن يهيئ لبنية مجتمعاً قابلاً للعيش فيه فى أمان وعدالة ومساواة، عامر فى رَحْمِهِ - ظاهراً وباطناً - بفرص عمل معقولة متاحة تهيئ للأجيال المقبلة فرصاً كريمة فى تناولهم لحياة معقولة تحقق لهم على الأقل مطالبهم الدنيا، ناهيك بما يجب أن تتيحه لطموح الطامح منهم الراغب رغبة موضوعية متسلحة بالقدرات والإمكانيات فى المزيد من الصعود والترقى بإنتاجه وبحيائه على السواء. بيد أن تراكمات الإهمال واللامبالاة مع تواضع أو إهمال أو قعود الإدارة عن تنظيم شئون المجتمع تعليماً وتثقيفاً وتدريباً، ثم توفير مشروعات جادة مدروسة دراسة حقيقية فى الصناعة والزراعة والتقنيات والتجارة والأشغال العامة، تنهض بحق الدولة، وتوفر لأبناء المجتمع وشبابه المتطلع إلى بدء ثم بناء حياته فرصاً حقيقية وعادلة لا يتميز فيها أبناء السراة والأغنياء والأقوياء - على عامة أبناء الشعب، ولا تتصعد فيها إلا الكفاءة المعطاة بعيداً عن المحبات والأحساب والأنساب والخطوات. نضوب أو انعدام أو صعوبة توفير

وسيادة هذه المعايير هو الذى يوهن الانتماء للوطن، ويدفع بزبدة بنيه إما إلى الوقوع فى براثن تجار الوهم الذين يدفعونهم إلى الهلاك أو المجهول، أو إلى قبول المر الأمرّ والهوان المذل بخدمة مشروعات الإسرائيليين لمزيد من عزل وتطفيش وطرد الفلسطينيين وتحويل الاحتلال الاستيطاني إلى استيلاء تام على وطن من شعبه وتشتيته شريداً طريداً يتلمس مأوى وبلداً آخر يقبله أو لا يقبله.. ليستمر شتاته ويصبح الفلسطيني تائهاً ضائعاً مضيقاً بعيداً عن أرضه ووطنه، وتحبل الأرحام بعناقيد الغضب وتراكمات الثورة والانتفاض، بينما تزداد إسرائيل توسعاً وقوة، ويزداد المحيط فيما حولها ضعفاً، فى إطار مخطط طويل يجرى متتابعاً أمام أنظارنا التى تغشاها ضباب ثقيل لم تعد معه قدرة على رؤية ما تحت أقدامنا - فهل تفتننا إلى حالنا المتردى الذى يزداد تردياً، وانتبهنا إلى حقيقة ما نمضى إليه مساعدين باللا وعى على تحقيق ما يراد بنا دون أن نفطن إلى نذر الخطر وجسامة المحاذير !

فى برىطانىا :

سماحة الدين، وتعصب العلمانية ! (*)

فى محاضرة ألقاها روان ويليامز كبير أساقفة كانتربرى، نقلتها هيئة الإذاعة البريطانية " بى. بى. سى "، لم يزد فيها على الإشارة إلى أن الإفصاح لبعض أوجه الشريعة الإسلامية فى بريطانيا " أمر لا مفر منه "، وأنه يحسن بالبريطانيين أن يتعاملوا مع الشريعة الإسلامية بذهن منفتح، قاصرا دعوته على المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق والمسائل المالية. ومع هذا، فلم يكد رئيس الأساقفة يبدى دعوته بالغلة الاعتدال والموضوعية، حتى قامت الدنيا فى بريطانيا ولم تقعد، وبرغم توضيحاته وتأكيديه على موقعه على الإنترنت أنه لم يقترح أبدا إيجاد نظام قانونى إسلامى مواز للقوانين البريطانية، وأنه استهدف بدعوته تخفيف بعض المشكلات الواسعة المحيطة بحقوق الجماعات الدينية التى تعيش داخل دولة علمانية، وهو ما سبقت إليه مصر من قرن من الزمان بالنسبة للأحوال الشخصية لغير المسلمين، إلا أن هوجة الاحتجاجات والانتقادات البريطانية العنيفة على دعوة رئيس أساقفة كانتربرى لم تهدأ فى بلاد الدعوة إلى

احترام حقوق الإنسان، وألصقها ما تعلق بأحواله الشخصية من زواج وطلاق وميراث، وتأججت موجة هذه الاحتجاجات العنيفة وسط الحكومة البريطانية، وشارك فيها وزير الثقافة ووزيرة الداخلية، ودخل الحلبة زعيم حزب المحافظين المعارض، وبعض الوزراء السابقين، والمدير الوطني لجماعة الصوت المسيحي، وهدد الإنجلييون الأستراليون بشن حرب على دعوة كبير أساقفة كانتربري الذي لم يحمه موقعه الكنسي الكبير من دخول بعض رجال الكنيسة إلى حلبة الاحتجاج والتكير عليه، بينما طالب ممثل حزب الاستقلال البريطاني في عضوية برلمان الاتحاد الأوربي صاحب الحملة الأخيرة على حقوق الإنسان في مصر - طالب باستقالة الدكتور روان ويليامز رئيس الأساقفة من منصبه، متهمًا إياه بأنه " لا يفقه مهمته " " وغير جدير بمنصبه كبيراً لأساقفة كانتربري، ولا يستحق - هكذا ! - أن يكون عضواً في مجلس اللوردات البريطاني .. بلغت الاحتجاجات والانتقادات البريطانية حداً من التطرف والعنف أدخل كبير الأساقفة في حالة صدمة عبر فيها عن دهشته الشديدة جداً لردود الأفعال المعادية التي أعقبت دعوته، وعن استيائه الشديد من " التفسير الهستيرية " لدعوته انتهى لم تستهدف سوى تشجيع ورعاية التلاحم الاجتماعي بضرورة إعطاء مسلمي بريطانيا البالغ عددهم ١٧ مليون مسلم، حرية اختيار التعامل في المسائل المدنية، مثل قضايا الزواج والطلاق أو المسائل المالية، بموجب إجراءات وفق الشريعة الإسلامية أو وفق النظام القانوني الحالي، فلا ينبغي أن يكون المسلمون مضطرين للاختيار بين بدائل قاسية بين الولاء الثقافي للمعتقد الديني أو للدولة التي يعيشون فيها !

ما ثار عليه البريطانيون المتشحون بحقوق الإنسان، مأخوذ به في مصر المتهمة بالطائفية من قرابة قرن من الزمان في كل ما يتعلق بمسائل الأحوال الشخصية لغير المسلمين.. يحتكمون برغم الغالبية الإسلامية - لقوانين شريعتهم، وأقر النظام القانوني في مصر، وأيدت محكمة النقض، وجوب تطبيق لائحة الأحوال الشخصية للأقباط الأرثوذكس الصادرة عن بطريركية الأقباط الأرثوذكس وأقرها المجلس الملي العام بجلسته في شئس سنة ١٦٥٤ (قبطية) الموافق ٩ مايو ١٩٣٨ م.. لم تجد مصر الإسلامية بأساً من معاملة غير المسلمين بمقتضى شريعتهم في الزواج وما يتعلق به، وفي الطلاق، وفي المهر والجهاز، وفي ثبوت النسب، وفيما يجب على الوالد لوالديه وما يجب له عليهما، وفي النفقات، والولاية الشرعية، وفي الغيبة، والهبية، والوصية، وفي الميراث. لم يهب أحد من أبناء الإسلام المتهم بالعنف والتطرف للاعتراض على ما تعارفت عليه مصر من عشرات السنين وإقرارها تطبيق تشريعات الأحوال الشخصية لغير المسلمين. أين هوجة الاحتجاجات البريطانية العنيفة من هذا التسامح المصري والإسلامي الذي عاش به النسيج المصري رغم كل أعاصير الدس وافتعال ما يثير الاحتقان ؟ !

السلطات المدنية هي التي أقرت في مصر معاملة غير المسلمين في أحوالهم الشخصية، طبقاً لشريعتهم، وهو إقرار قديم جداً، ومنذ أمد بعيد، عاودت مصر الدولة التأكيد عليه، وتدریس مادته في كليات الحقوق بالجامعات المصرية، بمناسبة إلغاء المحاكم الشرعية والمجالس الطائفية الموازية التي كانت تفصل في مسائل غير المسلمين، وأقرت السلطات المصرية لائحة البطريركية للأقباط الأرثوذكس، وتبعتها لاحقاً بالتصديق

على اللائحة الداخلية للمجلس الإنجليى العام فى مصر، وتعاملت مصر الدولة ومصر الناس بأغليبيتهم المسلمة، مع هذا الملف تعاملأ بالغ الساحة والعقلانية، ولم يعترض المسلمون ولا رجال الدين وشيوخ الأزهر، ولم يقل أحد - مثلما يقول الإنجليز اليوم ! - إن ذلك تجزئة أو ازدواج فى النظام القانونى المصرى العام، ولم يقل أحد - مثلما يقول الإنجليز اليوم ! - إن من لا يرتضى تطبيق النظام المصرى العام فى أحواله الشخصية المحكومة عقلا ومنطقا - بعقيده ودينه وشريعته - عليه أن يغادر مصر وأن يبحث لنفسه عن مكان آخر يعيش فيه !

من اللافت للنظر فى بريطانيا، أن التسامح الدينى شع وصدر من رجل دين يشغل منصب رئيس أساقفة كانتربرى، وأن يضيق ويتصلب ويتعصب أصحاب السلطة المدنية والعلمانيون الذين تصاعدت حملتهم الهستيرية ودخلت فى أبعاد تأثير الاحتقان بين الأديان، وتجاوز فى هستيريتها ما أبداه رجل الدين الذى لم يقل ما يبرر مسارعة رئيس الوزراء البريطانى إلى التشديد على ضرورة تطبيق القانون البريطانى بالاستناد إلى القيم البريطانية، مع أن رئيس الأساقفة لم يتطرق إلى شىء من ذلك الذى انفعلى عليه رئيس الوزراء ومن جرى مجراه ! الفارق فى تقديرى بين سماحة رجل الدين وتعصب الساسة والعلمانيين، أن الأديان فى أصولها تقوم على التسامح، ولا تتحدث بلغة المصالح وهدافها ومآربها. الأمر مختلف فى إطار السياسة والاقتصاد، فقوامهما ولغتهما المصلحة، وكثيرا ما تضيق المصلحة بالمبادئ فتعطىها ظهرها وتجايفها ولا تجد بأسأ فى محاربتها ظاهراً وباطناً، إن لم تستطع مواجهتها التفت حولها ! ذات هذه الحقيقة عبر عنها الأزهر الشريف بلسان وكيله فى ترحيبه ببادرة كبير

أساقفة كانتربري وما تعطيه من جو التسامح الدينى وفرص الحوار الموضوعى العقلانى بين الأديان، وهو موقف ليس غريباً عن هذه الكنيسة التى ألقى رئيس أساقفتها السابق محاضرة من نحو عشر سنوات بالأزهر الشريف شفت عن روح التفاهم والإخاء والتسامح بين الأديان، بينما نرى تصريحات متحسبة للمسلمين الذين اكتتوا هناك في الغرب بفويا الشريعة الإسلامية التى أخذت تحاصرهم بمشاعر وتصرفات عدائية، فلا تزيد ردود أفعالهم عن التعبير عن الامتنان لاهتمام رئيس أساقفة كانتربري بالمسلمين في بريطانيا وقضاياهم، أو الترحيب الحذر بها وبما تمثله من دعم الاحترام والتسامح بين العقائد والأديان، بينما يبدو المجلس الإسلامى هناك أكثر حذراً وحرصاً على إعلان رفضه فكرة قيام نظام قانونى مزدوج في بريطانيا.. هذا الرفض تبدو فيه لغة السياسة، لأن صاحب الاقتراح نفسه لم يدع إلى نظام قانونى مزدوج في بريطانيا، وإنما دعا فقط إلى معاملة المسلمين هناك بمقتضى إجراءات شريعتهم فيما يتعلق بأحوالهم المدنية مثل قضايا الزواج والطلاق أو المسائل المالية.

هذا الانفعال البريطانى يفارق العقل والمنطق، فالعالم كله شرقاً وغرباً يقر بأن ما اتصل بالأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث ووصية وغيره، مستمد لدى معظم الخلق من شرائع عقائدهم، ولا تزال تعقد في الغرب، وفي بريطانيا، زيجات كنسية يفضلها المتدينون هناك على الزواج المدني، فلا يفعل المسئولون، ولا يهتاج العلمانيون، ولا يدعى أحد أن هذا ازدواج يأباه النظام البريطانى، إقراراً بحقيقة تعلو العلمانية ونقريها الأديان كل للآخر، بأن ما اتصل بحالة الإنسان المدنية الشخصية، نابع من عقيدته، لا يملك أحد - بذات منطق العلمانية وإقرارها للحرية -

أن يصادر عليه، متروك له - دون سواء - أن يختار المدني أو الكنسي.
أما الاحتجاج بأن المسلمين أقلية في بلاد الإنجليز، فهو احتجاج يناقض كل
ما يدعو إليه الغرب ويدافع به عن حقوق الأقليات. لا يملك من يتابع
المشهد الإنجليزي إلا أن يرفع القبة احتراماً لرجل الدين ومنطقه، وأن
يدهش ويتولاه العجب من علمانية تدعى الحرية واحترام حقوق الإنسان،
بينما تضبط متلبسة بتصلب وتعصب ضرير يملأون الدنيا صياحاً بالكذب
بأنه حال المسلمين !

الإسلام وحملات الإساءة ! (*)

لم يمض على عضويتي لمجمع البحوث الإسلامية إلا ثلاث سنوات، ومع ذلك عرض علينا خلالها كثير من الهجمات الجائرة المفتتة على الإسلام ورسوله عليه السلام، معظمها آتية من الخارج، من الدانمارك أو بابا الفاتيكان أو غيرهما من بلدان الغرب، إلا أن أقلاما مسلمة، ومن داخل مصر، ساهمت في هذا الغناء تحت تعلة التتوير، وماهو بتتوير ولكنه تسخيم لوجه الإسلام في وقت تأتية رياح الاقتتات ظالمة جهولة من كل باب. لقد شاركت وناقشت، وصغت فيمن صاغوا كثيرا من بيانات الشجب والاحتجاج، وكثيرا من عبارات الدعوة إلى التعقل والإنصاف، فلا هذه نفعت، ولا تلك أجدت، واستمرت حملات الخارج، وانفلاتات الداخل، دون أن ترعوى أو تقتصد أو تفهم المخاطر والمحاذير في هذا المساس الغشوم بسقوف الأديان !

والحملة المشنونة بالغرب وأمريكا على الإسلام، لا تقتصر على إيذاء مشاعر المسلمين، إنما هي تصب في صميم حياة المسلمين هناك، وأعدادهم ليست قليلة ولا هينة، بل بالملايين العديدة كما هو حاصل على

* الأهرام ٢٠٠٨/٣/٦، ٢٠٠٨/٣/٢٠، ٢٠٠٨/٤/٣

سبيل المثال فى كل من أمريكا وروسيا وفرنسا وألمانيا وغيرها. فتعداد المسلمين فى الولايات المتحدة قد قارب سبعة ملايين مسلم، ونحو ستة ملايين فى فرنسا، وخمسة عشر مليوناً فى روسيا، وقرابة أربعة ملايين فى ألمانيا، وقرابة المليونين فى بريطانيا، وزيادة عن المليون فى البلاد الواطئة، وكذا فى بولندا، ونحو ٢٠% من جملة سكان يوغوسلافيا قبل الثفتيت، غير المسلمين وهم بمئات الألوف وتقترب أحياناً من المليون فى باقى الدول الأوروبية غير دول الأمريكتين. الصورة المغلوطة التى يصورون بها الإسلام هناك، تخلق متاعب عديدة للمسلمين المضطرين للتعامل مع الأنظمة ومع المجتمعات التى يعيشون فيها فى القارة الأوروبية أو الأمريكتين. حملات الكراهية وتشويه الإسلام فى هذه الدول لا تمس فقط مشاعر المسلمين هناك، إنما تحيل حياتهم وسط هذه المجتمعات اللافتة إلى جحيم موصول ! وظنى كذلك أن المتطرفين الذين يعطون المادة لحملات مهاجمة الإسلام، لا يلتفتون إلى قدر الأزمات والمصاعب التى يتسببون فيها بأعمال طائشة لا طحن لها، بينما هى تنحصر من صورة الإسلام والمسلمين بعامه، وتسبب لجالياتنا الإسلامية العديد من الأزمات والمصاعب وتجعل من حياتهم جحيماً وسط محيط بات يتوجس منهم أو يصطنع الأسباب لمجافاتهم ثم للفظهم وطردهم من هذه البلدان التى كانوا فى السالف عنواناً جاذباً فيها للإسلام.. ودالاً فى الوقت ذاته على جور وافتئات الصورة الكاذبة التى ظلوا يحشدون بها الكتب فى الغرب ضد الإسلام على مدار قرون، فلما جعلت الصورة تتعدل لصالح الإسلام والمسلمين، تردت الحركات الشاذة والمتطرفة ببعض الأعمال الجامحة

التي يأبأها الإسلام نفسه - فى إعطاء الفرصة لرد الحاضر إلى ما كانت عليه الكراهية للإسلام وزيادة !

المسلم فى الشرق والغرب، ابن البلد أو وافد أو مهاجر فى البلد الذى فيه يعيش، يرى الإسلام كما يعتقد هو ويؤمن به، وبوسعه أن يعرف كم هو جائز وغير صحيح أن تحسب الأعمال المتطرفة الضالة على الإسلام. فهو يعرف كيف أن الإسلام نهى عن العنصرية، واعتنق التسامح والمساواة، وأقام شريعته على شخصية المسئولية بحيث لا يسأل الشخص إلا عما يفعل، ولا يحاسب على فعل أو عمل غيره. أينما ولى المسلم يرى حقيقة الإسلام فى مصادره الإسلامية المكتوبة قرآنا وسنة وسيرة وأثراً، أو مسموعة فيما يتلقاه من تلاوة ترددها الإذاعات المسموعة والمرئية، أو دعوة رشيدة لا يعدم الوصول إليها، إلا أن الأجنبى غير المسلم لا يطلع ولا يرى شيئاً من ذلك، فكل هذه الروافد غير موجهة إليه، وهو لو صادفها لا يستطيع لحاجز اللغة أن يلم بها، وتكاد رؤيته للإسلام أن تكون محصورة فى المشهد المتطرف الشاذ الذى لا ينتمى للإسلام ولا يصوره أو المسلمين ولا ينصفه أو ينصفهم. حادث تفجير واحد، فى مدريد أو لندن، أو فى الرياض أو الأقصر - يحتل للأسف معظم الصورة التى يفهمها الآخرون للإسلام والمسلمين، وهيهات أن تقنعهم بخطبة عصماء أو بيان شجب، أن هذا من فعل متطرفين مغالين وليس من الإسلام.. يساهم فى ضياع الصدى أنهم يتكلمون لغات غير لغتنا، ولا يفهمون بالتالى خطابنا ولا بثنا ولا دعوتنا، بينما تلح عليهم ميديا عالمية معظمها أحول يحكمه الهوى - بأن هذا هو الإسلام، ويجتزئون كلمة فى آية، يخرجونها من السياق، ليقولوا امسك هذا هو القرآن - أليست تقول الآية : " ترهبون به

عدو الله وعدوكم " - إذن هذا هو الإرهاب، ومصدره ومنبعه، لا تعيهم الآية، ولا يعينهم سياقها، ولا حقيقة مقصدها، وإنما يتسقطون لفظاً من هنا وأخرى من هناك ليقولوا إرهاب الإسلام أو فاشية القرآن، في الوقت الذي يصابون فيه بالعمى الضريع عن رؤية مقاطع كاملة مليئة بالدماء والتفيل والتحريق في العديد من أسفار العهد القديم، ولا ما فيه من إساءة واتهامات وإهانة للأنبياء. الميديا الإعلامية العالمية مغرضة ولا شك، ولكننا نحن المسلمين ندمهم بالمادة المغذية في بعض سلوكياتنا الغربية الغارقة في مظهر شكلي فقط وعافاه الزمن، وابتعادنا عن جوهر الإسلام والتشوين على صورة المسلم الحق الذي هو عنوان الإسلام وآيته إلى الدنيا، بينما يلاحقنا المتطرفون ويلاحقون العالم بأعمال عبثية تضرب ضرباً عشوائياً على غير سنن ومبادئ الإسلام لتحسب في النهاية على المسلمين وعلى الإسلام !

هذا المشهد لا يقبل أن نغسل أيدينا منه بالولولة، ولا بالآهات، ولا ببيانات الشجب، ولا بالخطب العصماء. هذا المشهد يحتاج إلى محورين كبيرين بالغى الأهمية : مراجعة النفس مراجعة شاملة المظهر العاد والسلوكي للمسلم بعامه، وموجات التطرف والمتطرفين وأثرهما المدمر بخاصة، وخطاب للآخر معنى به وموجه إليه بلغته هو حيثما هو لا بلغتنا نحن. وظنى أننا مفرطون حتى النخاع في مراجعة النفس، وفي مناسبة ولغة خطابنا للآخرين !

على أنه يخطئ التشخيص من يظن أن الحملة الغشوم المطلقة الآن على الإسلام - طارئ جديد، فتاريخ الغرب في الكبر على الإسلام، وسوء فهمه والتهجم عليه وعلى رسوله الكريم - أمر قديم، يستطيع من يريد

تقصيه أن يراجعه فى العرض الوافى جدا الذى أوردته الراهبة السابقة :
 كارين أرمسترونج فى كتابها الضافى : " محمد " الذى ترجمه الدكتوران
 محمد عنانى وفاطمة نصر . والمؤلفة إذ تتبع هذه الحملة الغشوم على
 الإسلام عبر قرون، تؤكد أنها تحققت من أن تلك الأحقاد دافعها المفاهيم
 المغلوطة والأساطير المختلفة، ثم هى وراء ما يتبناه الغرب من مواقف
 إزاء " الآخر " وهذا الآخر - فيما تصرح - هو الإسلام ! تقر الراهبة
 السابقة - أن لديهم فى الغرب تاريخاً طويلاً من العداء للإسلام، وبأنه راسخ
 الجذور مثل عدائهم للسامية، ولكن الكراهية القديمة للإسلام تواصل
 ازدهارها - فيما تقول - على جانبي المحيط الأطلسى، ولم يعد يوجد
 وازع - والكلام لها - يمنع الناس من مهاجمة ذلك الدين حتى ولو
 كانوا لا يعرفون عنه إلا القليل. تعزو المؤلفة هذا العداء الحاضر إلى أنه
 لم يحدث قبل ظهور الاتحاد السوفيتى أن واجه الغرب تحدياً يساوى
 التحدى الذى يمثله الإسلام. تزداد هذه الصورة جلاء لدى من يستصفى
 ويستقطن كتاب " صدام الحضارات " لصمويل هنتجتون، وهو ما تتبأ به
 العقاد من أكثر من نصف قرن فى الكثير من كتاباته.. إن عداء الغرب
 القديم للإسلام يحمل الآن بذور ودوافع وأغراض السياسة التى أقلقها
 ولا يزال تقدم الإسلام واتساعه.. أو على حد ما ورد فى الدراسة البحثية
 التى نشرت مؤخراً للمعهد البحثى المسيحى Christian
 Research Institute وهى متاحة على الإنترنت، وتؤكد أن الإسلام
 يزداد انتشاراً وقوة فى العالم، وأنه بات يمثل أقوى التهديدات أهمية للكنيسة
 الأمريكية، وأن المؤشرات تورى بأنه أسرع الأديان انتشاراً ونمواً فى
 العالم وفى أمريكا، وأن نسبة نموه وانتشاره فى الولايات المتحدة ما بين

سنتى ١٩٨٩، ١٩٩٨ - قد زادت بنسبة هائلة، كذلك فى فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة، وأن المصادر المسيحية والإسلامية تتفق على تأكيد أن الإسلام هو أسرع الأديان والمذاهب انتشاراً الآن فى الولايات المتحدة، وأن الكتاب السنوى (٢٠٠٠) للكنائس الأمريكية والكندية أعطى مؤشرات مقلقة لزيادة المسلمين، وتتوقف الدراسة البحثية حائرة فى محاولة استشفاف أسباب هذا التزايد السريع فى أعداد المسلمين، تنتقل فى النهاية عن جيمس درينك James Dretke قوله : -

" It is great thrill to see many Muslimes on our doorsteps. While we cannot easily gain entry in their countries.. God has brought them to ours "

" إنها لإثارة كبيرة أن نرى الكثيرين من المسلمين على أعتابنا، وبينما لا نستطيع بسهولة أن ننال الدخول إلى أوطانهم - فإن الله قد أتى بهم إلى أوطاننا !! "

سنظل متخلفين عن مواجهة الحرب الشرسة الضالة على الإسلام والمسلمين ما دما تعاملنا معها برد الفعل لا الفعل. من المهم أن نستوعب دوافع وأبعاد ووسائل وأساليب هذه الحملة ثم نتعامل معها بمنطق الفعل فى إطار رؤية شاملة وخطة مدروسة وبرنامج تفصيلى وأدوات وآليات فاعلة.

* * *

رأيت بنفسى كثيراً من الرسوم الكاريكاتيرية المنشورة بالدانمارك التى تسيء إلى رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم، وظنى من واقع ما لاحظته فيها من إسفاف مسف، وتطاول شنيع، واستهزاء مغرق فى السفالة - أنها تقصد قصداً إلى إثارة وإهاجة المسلمين، ودفعهم إلى ردود

أفعال مغموسة بالغضب الذى تثيره بداهة هذه الإساءات البالغة المنحطة.. يعرف المتطاولون بالرسوم المسيئة على رسول الإسلام وعلى الإسلام، أنهم لا يضربون فى المليان، ولا يقدمون حجة على الإسلام أو شيئاً ذا قيمة، وإنما هم يستهزئون ويسخرون ويسفون، ويعرفون أن هذا كله لا قيمة ولا طحن له - فماذا يريدون؟! يريدون بالقطع إثارتنا.. ظننى أن أغلط أنواع رد الفعل هو الانفعال. هذا الانفعال هو المطلوب على الجانب الآخر ليكون شاهداً على المراد. أننا ظاهرة صوتية بانفعالات همجية لا تقدر حرية رأى وحرية التعبير.. هكذا يقولون!.. نؤثر الغضب والثورة والضجيج على المناقشة والحوار. بعضهم يقول إن الدانمارك - مثلاً - علمانية غير متدينة، وأن الغرب بعامة لا يجد بأساً من التوغل فى الأديان. ألم يخرجوا فيلم "الإغواء الأخير للمسيح" "The last temptation of Christ" صوروا فيه المسيح فى مشاهد جنسية مع مريم المجدلية على أنها مخايل راودته وهو على الصليب، وجعلوه أباً لابنة من مريم المجدلية فى فيلم "شفرة دافنشى" "The Davinci Code"، وجسدوا جلده وتعذيبه وصلبه فى فيلم "آلام المسيح" "The passion of Christ"؟!.. فلماذا إذن يهتاج المسلمون على رسوم كاريكاتيرية؟!..

يتجاهلون بذلك أنهم هم الذين كتبوا وأخرجوا وصوروا هذه الأفلام، ويتجاهلون أن هذه الأفلام التى هم صانعوها - لا تسخر ولا تهين أو تستهزئ، بينما الرسوم الكاريكاتورية محض قلة أدب واستهزاء ولغو لا يرد عليه بمنطق أو بحجة أو بحوار!

ومع ذلك فأغلط ما نفعله أن نتعامل مع هذا الإسفاف برد الفعل الهائج، لأننا بذلك نعطي قيمة لغناء لا قيمة له، مثلما روجنا بردود أفعالنا الغاضبة أعمالا هابطة لا قيمة لها مثل رواية آيات شيطانية ! الحصاد النهائي أو الحساب الختامي لردود أفعالنا العنصرية إنما يصب لصالح ما يريده ويستهدفه المسفون المسيئون ! نفع في هذا الخطأ رغم أن ديننا حض على عدم الالتفات إلى اللغو والترهات، ووصف المؤمنين في القرآن الكريم بأنهم : " إذا مروا باللغو مروا كراماً " .. وبأنهم : " إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً " .. لقد ترقّع رسول القرآن عن مجارة أو إعواء أى قيمة لترهات وإساءات ودعاوى ولغو وتطاول الكافرين، فما زلنا نرفعه إلا قيمة وثباتاً، وزاد الإسلام رسوخاً وانتشاراً ..

يكفى أن نلتفت لما يحدث في الولايات المتحدة لنعرف أن الإسلام أكبر من كل حملات الإساءة .. فبرغم أنهم يشنون الغزو والحملات الغشومة ضد الإسلام تحت دعاوى الإرهاب، فإن الإسلام يزداد هبات انتشاراً، وتورى إحصائيات الكتاب السنوى لدائرة المعارف البريطانية أن المسلمين يتزايدون بكثرة في الولايات المتحدة رغم حملات الكراهية التي لا تتوقف هناك. يكفيك أن تعرف أن المسلمين كانوا عشرة آلاف فقط سنة ١٩٠٠، ثم وصلوا إلى مليون مسلم في ١٩٧٠، وأنهم زادوا سنة ٢٠٠٠ إلى ٨٥٠ ر ٥٠٠ مسلم، ثم زادوا في منتصف عام ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٠ ر ٤٩١ مسلم، وتقدر أعدادهم الآن بقرابة عشرة ملايين .. هذه الزيادات دليل مؤكد على أن الحملات الكاذبة المغلوطة لا تنال من دين عامر بمبادئه وقيمه وأحكامه، مثلما لم ينل كل تهجم الكفار ودعاوهم الكاذبة من مقام القرآن المجيد، حجة الله وحبله المتين.

الإسلام ورسوله قرة عين المسلمين، لا يعينهم حول الأحوال ولا عوار الأعور الذى لا يستطيع أن يرى أو تتحرف لديه الرؤية بعماء أو بانحراف عدسة رؤيته المحدبة أو المقعرة أو المنكسرة. لن يضير الإسلام أن ينكره ناكر، ولن يذوى القرآن لعمى ضرير أمسك بتلابيب عميان أو مغرضين، ولن تختل قيمة ومقام ومكانة رسول القرآن لأن قلم أو ريشة سفيه تطاولا عليه. سيبقى الإسلام رغم كل شئ معماراً لقلوب وحنايا وعقول المؤمنين به، وسيبقى قرآنه المجيد دستورهم الهادى مهما اتهموه بالفاشية أو الإرهاب، فقيمته فيه لا فيما يغالط به المغالطون، وسيبقى رسول القرآن قدوة وأسوة للمسلمين وهداية ومنارة للدين فى العالمين. لا ينبغي إذن أن نجزع، وإنما علينا أن نفهم، وأن نترك رد الفعل إلى الفعل الذى يحيط بالمخطط ومراميه، ويتخذ له على مهل وأناة، وحكمة وبصيرة، ما يرد عن الإسلام والمسلمين كيد الكائدين !

من مزايا الخروج من موقف الدفاع، وعدم الاكتفاء برد الفعل على رسم مسيء أو تهجم وقح، أن نلتقط الأخبار والحالات والشواهد الإيجابية لنكرسها أو نبرزها بإلقاء الأضواء عليها، أو جعلها موضوعاً للمناقشة واستخلاص دلالتها. من هذه الحقائق الإيجابية ما دلت عليه إحصاءات الغرب نفسه، والأمريكان، أن الإسلام يتقدم بقوة ويزداد الإقبال عليه فى الغرب، واللافت أن يحدث ذلك فى الولايات المتحدة حيث تشن إدارتها حملة شعواء على الإسلام والمسلمين !

لست أدري لماذا يتوارى وباختزال داخل الصفحات الداخلية لصحفنا - خبر دخول ثانى مسلم إلى الكونجرس فى التاريخ الأمريكى. الخبر المختزل المتوارى، يقول إن الناخبين الأمريكيين اختاروا الشاب المسلم

أندريه كارسون (٣٣ عاما) لعضوية الكونجرس عن ولاية إنديانا
فى انتخابات خاصة بعد وفاة جدته جوليا كارسون التى كانت ممثلة
الولاية، وأنه سبقه انتخاب مسلم آخر لعضوية الكونجرس عن ولاية
مينيسوتا. هذا الخبر المزدوج الذى لم نحسن تصديره واستقصاء دلالاته !

تأتى أخبار انتخاب السيناتور الجديد المسلم، مع ارتفاع معدلات
الإسلام فى أمريكا، وسابقة انتخاب المسلم الآخر - شهادة للإسلام بأنه
جاذب يعطى النموذج لحسن وكمال الخلق والسلوك. ولو كان دين عنف
وإرهاب لما قدم هذه النماذج، ولما اعتنقوا الإسلام أصلاً ! قارن مثلاً
محمد على كلاًى الملاكم الأعظم فى تاريخ الملاكمة، هذا البطل الأسطورة
الذى إعتنق الإسلام وتسمى بمحمد على، قارنه بغيره من الملاكمين لترى
الفارق الكبير فى المعدن والسلوك.. يشهد لمحمد على كلاًى بأنه صار
بالإسلام نموذجاً لرياضى على خلق رفيع وإنسان يفيض إنسانية وصاحب
رسالة وعطاء لأوجه البر والخير ودعم مجتمع الفقراء، بينما غيره من
الملاكمين أبطال أيضاً ولكن فى الجنوح والمخدرات والاغتصاب والقمار..
لا يخرج بعضهم من السجن إلا ليعود إليه بعد أن بدد على جنوحه مئـت
الملايين !

لا أدرى لماذا لا نكتف علاقاتنا بالمسلمين فى شتى بقاع الأرض،
ونقيم وإياهم جسوراً تكشف وجه الإسلام الصبوح، بدلاً من الملصقات
والشعارات والأعلام التى جعلت تتزايد حاملة السيوفين المتقاطعين إلى
جوار المصحف أو اسم الجلالة، مع أن الهلال يغنى فى التعريف بالإسلام،
وكعنوان له، بدلاً مما يوحيه أو يتحبه السيف لصيادى الإساءة ليقيموا من
حولها مناحة باتهامات الإرهاب أو بالرسوم المسيئة ؟!

صورة المسلم الصحيحة التى صارت الآن تملأ شتى بقاع الأرض، هى أبلغ رد على حملات الإساءة والتجنى على الإسلام مهما علت موجتها وتتوعدت أساليبها ورسوماتها وصورها.. هذه النماذج الإسلامية تحمل فى بساطة ويسر رداً مفحماً على التهجم الجائر على الإسلام والمسلمين أجدى من الدفاع ومن كل ردود الأفعال الغاضبة المتشنجة التى تأخذ منا ولا تعطينا.. قيمة ما يقال أو يجسد هناك - أنه آت منهم وبلغتهم.. آية ناطقة لديهم لا تكلفنا سوى الالتفات إليها وإيرازها فى إطار رؤية وخطة شاملة وآلية مؤهلة قادرة متصلة تتابع إيضاح الإسلام لنا وللعالمين.

* * *

رأينا أن حملات الإساءة للإسلام، والتهجم عليه وعلى رسوله الكريم، لا تمس المشاعر وكفى، وإنما هى ضمن خطة مدروسة منظمة لبث الكراهية للمسلمين، والعدوان عليهم فى أوطانهم تحت ذرائع مختلفة، كما حدث فى العراق ومن قبلها فى أفغانستان، ومن قبلهما فى البوسنة والهرسك.. غير ما تورى المقدمات بأنه يدبر ضد سوريا وإيران، فضلاً عن الانتهاكات والمؤامرات الجارية فى لبنان، وحرب الإبادة فى غزة وباقي فلسطين.. ويدخل هذا المخطط فى اعتباره - حصار الأقليات الإسلامية وخنقها فى أوروبا والأمريكيتين، وإحالة حياتها إلى جحيم يلجئها إلى الانكماش أو المغادرة.. هذا الهجوم الجهول على الإسلام، يجاوز فى ضلاله وتوحشه كل ما سبق أن تعرض له الإسلام والمسلمون فى السالف من هجمات ضالة ساهم فيها كتاب وفلاسفة وملوك وأباطرة وجيوش !

خطأ بالغ مواجهة هذا المخطط بردود أفعال هنا وهناك، متفرقة شاردة موزعة غير مترابطة، مغموسة بالغضب والانفعال، تعطى مادة لمزيد من الافتئات على المسلمين ودينهم، بأكثر مما ترد عنهم إساءات المسيئين وكيد وتدبير الكائدين. الرؤية الشاملة المطلوبة لمواجهة هذه الحملات - يجب أن تتسع لنا، ماذا علينا في سلوكنا وفي صورتنا أن نصحه ونلتزمه، وأن نتجه أيضا للأغيار.. من ساءت أو حسنت مقاضدهم، فالخطاب المتجه إليهم، وأساليب التعامل معهم، تختلف بلا شك عن وسائل وأساليب التعامل مع أنفسنا وإخواننا في ديارنا.

مع أن الدنيا من نصف قرن لم تكن كالحال الآن الذى فيه تزايدت الحملات على الإسلام، إلا أننا نرى كتابا فردا : عباس محمود العقاد، يضع كتابا (الهلال ديسمبر ١٩٦٦)، مادته وعنوانه : " ما يقال عن الإسلام "، لا يتشجع ولا يهتاج وإنما يتأمل ويتقصى كتابات الغربيين فيما يكتبونه عن الإسلام كتابة تتفاوت تبعا للبواعث والنيات أضعاف التفاوت الذى مرجعه لقدر الدراية والمعرفة.. منهم من ينحرفون عن الصواب اضطراراً أو اختياراً بباعث من التعصب، ومنهم من يخدمون السياسة الغالبة على دولهم، فيصطنعون لغة الدعاية ضد الإسلام اصطناعاً، ومنهم طلاب معرفة حسنت نواياهم ولكن لم تسعفهم معرفتهم وأدوات بحثهم، ومنهم ولو قليلون ينشدون رأى خالصا لوجه الحقيقة العلمية.. ولكنه رأى مشوب بالقصور الذى لا مفر منه لمن يكتب عن الأدب فى لغة غير لغته فضلا عن أن يكون من غير أهل الأدب فى لغته.. ' يضيق العقاد بشيء من ذلك، وإنما يستعرضه ليقول لنا إنه من حقنا - بل واجبنا - أن نعرف ما يقال عنا، وأن نعرف كل قول من تلك الأقوال بقيمت.

وقيمة من يصدر عنه، ليس فقط لنرد عليها ونوضح وجه الخطأ أو الصواب أو القصور فيها، بل لأننا نستطيع أن نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها كما ينظر إليها الغرباء عنها، وعرفنا مبلغ الصدق والفهم إن كان، ومبلغ الخطأ فيما يعتقدون فينا أو يظنون عن هوى أو جهالة !

وجوب الالتزام بالفعل لا برد الفعل، يستوجب أن يتضافر عليه المسلمون والدول العربية والإسلامية بعامّة، لا للغضب من وقت لآخر على رسم أو قصة أو رواية أو فيلم، ولا لمعاداة الغرب أو غير المسلمين، فالإسلام يمد يده إلى الدنيا بالسلام، واسمه منحوت من السلم والسلام، والسلام هو تحية الإسلام، وقرآنه المجيد يحض على السلام ويدعو إليه، فهو مهجة وروح الإسلام.. تحية الله للمؤمنين هي تحية سلام : " تحيتهم يوم يلقونه سلام " . (الأحزاب ٤٤) .. ومستقر الصالحين دار أمن وسلام : " والله يدعو إلى دار السلام " (يونس ٢٥) .. " لهم دار السلام عند ربهم " (الأنعام ١٢٧) .. وأهل الجنة لا يتحدثون بغير لغة السلام : " لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما " (الواقعة ٢٥ ، ٢٦) .. ورغم ما لاقاه الرسول الكريم يقول له القرآن المجيد " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها " . (الأنفال ٦١) ومع هذا نترك هذا الرصيد لنتخذ من السيفين المتقاطعين رمزا للإسلام مع المصحف أو اسم الجلالة، مقدمين بلا وعى المادة التي يتصيدونها لإقامة مناخة حولها أن الإسلام يحض على العنف والإرهاب !

تضافر المسلمين إزاء هذه المفتريات ليس للبغي والعدوان، وإنما لتوفير آلية مهياة بالمال وبالعلم وامتلاك اللغات، لبث صورة المسلم

والإسلام الصحيحة إلى الدنيا بلغاتها.. إلى الغير قبل الذات، بالبث المرئى والمسموع، وبالكتاب والمجلة والجريدة، وبمظهر سلوك المسلم ذاته، لبزوا الإسلام كما هو لا كما يتوهمون أو يتصورون أو يغالطون.. ليعرفوا أن هذا الإسلام دين سماحة وإنسانية وإخاء، تتسع واحتة لغير المسلم كما تتسع للمسلم، لا عصبية فيه للعرق أو للدين، يحترم جميع الرسل والأنبياء، قوامه العقل والحكمة والموعظة الحسنة، يقدس الروح حتى فى الحيوان، ويوقر العلم والعلماء، والعمل والاجتهاد، ويدعو إلى عمار الحياة، ويتخذ من المسلم صحيح الإسلام عنوانه ورسالته إلى الدنيا. لا عذر للمسلمين ولديهم المال والإمكانيات — لا عذر لهم أفراداً وجماعات وأماً ودولاً فى التقاعس عن إنشاء هذه الآلية. ربما كانت متوفرة فعلاً فى هذا المؤتمر أو ذاك، أو هذه الهيئة أو تلك، ولكن ينقصها الالتفات والدعم المالى والبشرى، والاستمرار فى بث صورة الإسلام الصحيحة إلى الدنيا، ليعرف من لا يعرف حقيقة الإسلام، وليضيق الخناق على من يرمون الإسلام والمسلمين عن غرض أو عداة !

غاية هذه الآلية أن نبسط للدنيا، لنا وللآخرين، أن الإسلام دين عالمى يتجه إلى العالمين، أمس واليوم وإلى يوم الدين.. وأن هذه الخاصية قد أوجبت أن يكون ديننا مفتوحاً يتجه بدعوته وهدايته إلى الناس كافة، بلا تفرقة لعرق أو جنس أو وطن، وأن هذه الغاية تستوجب بداهة أن يكون ديننا جاذباً محبباً لا طارداً ولا منفراً، ومحال وهذه غايته أن يميل إلى العنف أو الإرهاب، فكلاهما ينفر لا يحبب ولا يجذب، أو أن يتوسل إلى ما يريده من انتشار وهداية بالسيف أو الإكراه.. فلا إكراه فى الدين فى الإسلام، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة هى غايته وسجيته،

والمساواة والإسماح والعدل دستوره.. لا يعطى ظهره للأديان السابقة، وإنما يجعل قرآنه المجيد من الإيمان بهم جزءاً لا يتجزأ من الإيمان بالإسلام، لذلك تحدث بأجمل الحديث عن كافة الأنبياء والرسل، وكرمهم أجمل تكريم، ومن سوره ما أطلق عليه أسماء الأنبياء بل والأولياء السابقين وعائلاتهم، كسورة آل عمران، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، ومريم، والأنبياء، ولقمان، ويس، ونوح.. لا يجد المسلمون بأساً ولا حرجاً من التسمي بهذه الأسماء، فترى فيهم أسماء نوح، وهود، ويوسف، وإسحق، ويعقوب، وعيسى، وموسى، ويحيى، وشعيب، وأيوب، وهارون، وزكريا.. دين يحترم العقل ويجعل التفكير فريضة فيه، ويحترم العلم والعمل، ويقدر الروح حتى في الحيوان، ويقيم سننه على العدل والإسماح والمساواة، وعلى منظومة متكاملة من السجايا والشمائل التي تتجه في مجملها ومغزاها إلى رعاية الأغيار أمانة وصدقاً وعطفاً ورحمة وإخلاصاً ووفاء بالمواثيق والعهود. هذه هي حقيقة الإسلام الذي سيبقى للآلية المتضافرة أن تتدبر كافة الوسائل لتوصيلها إلى المسلمين حتى لا يتطرف منهم أحد أو يجنح عن صحيح الإسلام، وإلى الأغيار حتى يفهموا هذا الدين الحنيف حق فهمه، ولو فهموه لما تطاولوا على رسوله هذا التطاول المؤسف !

لو التزمنا بأسلوب الفعل وأدائه، لتابعنا بكل السبل حملة مدعومة بالحجة لحض المجتمع الدولي ومنظماته الدولية على تجريم ازدراء الأديان.. التجريم الذي يتفق مع ما يجب للأديان من احترام، ويستبعد مخاطر التذرع بحرية الرأي والتعبير للإساءة إلى الأديان والأنبياء !

من المهم أن يدرك المجتمع الدولي أن الجميع سوف يدفعون ثمنها فادحا إذا استمرت هذه الحملات المهيمنة للأديان وجرى التقارع بين ابنائها بأسلوب الفعل ورد الفعل، فتطول المحاجاة والإساءة كافة الأديان، بينما هي سقوف البشرية التي تضبط ما لا تستطيع القوانين والنظم ضبطه، وتقوم من السلوك ما قد لا تكفى الأساليب الوضعية لتقويمه، لأن الأديان تخاطب مناطق في الوجدان والضمير لا يستطيع غيرها أن يخاطبها أو أن يكون مؤثرا فيها. ماذا سوف تجنى البشرية يوم يفلت العيار فيرد كل طرف على الآخر بضرب دينه والتغول عليه للانتصار للنفس ورد هجوم المتهجم إلى نحره؟!.. لن تستطيع أى قوة أن تسيطر على حرب الأديان إذا اشتعلت، ولن يهدأ للبشرية بال أو يتوفر لها أمان لو صارت الأديان مادة في هذه اللعبة الحمقاء الكفيلة بتدمير كل شيء ما لم يتداركها العقلاء ويجرم المجتمع الدولي وبعقوبات رادعة ازدراء الأديان !

نحن والإسلام وعيون الآخرين ! (*)

أُتيح لى فى مجمع البحوث الإسلامية، أن أناقش الترجمة العربية المحققة والمعلق عليها بمعرفة الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ لكتاب " محمد : مؤسس الدين الإسلامى، ومؤسس الإمبراطورية الإسلامية الذى وضعه بالإنجليزية جورج بوش الجد الأعلى (١٧٩٦ - ١٨٥٩)، وصدرت طبعته الأولى سنة (١٨٣٠) بعنوان : The life of Mohamed; founder of the religion of Islam, and of the Empire of the Saracens .. والطبعة المترجمة التى راجعتها، قد تضمنت النص الإنجليزى عن الطبعة الإنجليزية الثانية وفى مقابلها الترجمة العربية متضمنة التحقيق والتعليق، حالة كون المؤلف : الجد الأعلى للرئيس جورج بوش الأب، يكتب بقاموسه الذى وإن تخلص تناوله لرسول الإسلام من كثير من المفاهيم الخاطئة، إلا أن الكاتب - بالبداية - ليس مسلم العقيدة، ولا هو إسلامى الهوى، بل تقلت منه قصدا أو

عفوا، تعبيرات تفصح عن عقيدته ولا تتفق مع عقيدة المسلمين في رسول القرآن عليه السلام. فهو من البداية، وفي العنوان، يحرص على استخدام لفظ " مؤسس " " Founder "، ويستخدم في العديد من المواضع كلمة " الدعي " " Imposter " وصفا لرسول القرآن عليه السلام، قاصدا بذلك، وإن استخدم أحيانا وصف " انبى " أو " الرسول " - استحضار أو إسباغ معنى الصناعة البشرية على دين هدايته من السماء، ولذلك فإن المترجم المحقق المعلق، يحرص في تقديمه للترجمة الشاملة للنصين الإنجليزى والعربى على أن يبين أن من أغراض ترجمة هذا الكتاب، التصدى لمزاعم المؤلف، وافتراءاته على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وتقنيد هذه المزاعم والرد على تلك الافتراءات أولا، وثانيا معرفة الفكر الدينى الذى يسود برأس الحفيد الأدنى الرئيس الأمريكى الحالى وقلبه، كما ساد من قبل رأس أبيه الرئيس الأسبق، والمتوارث عن فكر دينى لآل بوش متغلغل فيهم منذ سنوات بعيدة !

ومن أغراض هذه الترجمة على حد ما أورده تقديم الناشر، الكشف عن المصادر الأساسية للكراهية والحقد والعنصرية التى يمارسها تيار متطرف فى فكر الغرب الأمريكى ضد الإسلام، يصف العرب والمسلمين بالتطرف، ويشن عليهم حملة ظالمة !.. وقد تساءلت وفت مناقشة الترجمة الكاملة للكتاب، ولا زلت أتساءل، ما الحاجة إلى هذه الترجمة إلى العربية حتى وإن حملت ما حملته من تعليقات وتعقيبات تكشف الفكر الملبوس والحقد الدفين لدى المؤلف الأمريكى الراجع إلى قرابة مائتى عام. إن الترجمة إلى العربية لا تخدم الخطاب الدينى الإسلامى أو العربى، فالمسلم الناطق بالعربية يفهم ويعرف دينه من القرآن المجيد والسنة النبوية ومن

السيرة والأثر وكافة المصادر والمؤلفات الإسلامية، وليس بحاجة إلى استحضار الأغلاط والافتراءات الأمريكية أو الغربية ثم التعقيب أو الرد عليها، ربما يهتم بذلك الخواص المتصدون للدعوة الموجهة إلى الأغيار، ولكن هؤلاء لديهم علمهم ومعرفتهم وأدواتهم لتحصيل ما كتبه المؤلف بالإنجليزية، والتعقيب عليه هناك لا هنا، وبلغة هؤلاء الأغيار لا بلغتنا العربية. ربما أغرى المترجم المحقق المعقب - وكما قال في تقديمه - أن بالكتاب إقراراً من المؤلف بإشارات وردت عن النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - في بعض أسفار العهد القديم، ولكن المؤلف يغالط في دلالتها فيتصدى المترجم للتعقيب عليها، ليثبت خطأ مخالفته التفسير الصحيح لهذه البشارات، وليمسك على المؤلف أنه هو ذاته قد أورد آيات أخرى من العهدين القديم والجديد، مؤكداً أنها تشير إلى ظهور النبي محمد وانتشار دعوته. ولكن هل تبرر هذه الجزئية ترجمة الكتاب كله إلى العربية، وألا يكفي انتقاء ما سلم به المؤلف من إشارات والتعقيب عليه في مقال أو فصل في كتاب، وهل يحتاج هذا الاستدلال إلى ترجمة ضخمة بلغت بالنصين الإنجليزي والعربي (٦٦٥) صفحة لكتاب بالإنجليزية يناهض الإسلام ورسوله، كتبه بوش الجد الأعلى من قرنين من الزمان ؟!

إن المؤلف بوش الجد الأعلى، سجل في تقديمه للكتاب بنصه الإنجليزي - أن دافعه للتصدى لما كتبه التأثير الضخم الذي أحدثه ما أسماه بالدين (المحمدى) بصرف النظر عن كونه - فيما يقول - ديناً صحيحاً ..! وإنه لكون هذا الدين قد وقع على رأس الكنيسة المسيحية، واهتم به كثيرون - بوصفه هرطقة مسيحية على حد قوله، أى مذهباً مسيحياً غير صحيح، أو خرافة وثنية، فإنه من هنا، وبنص عبارة المؤلف بوش الجد الأعلى : " فقد

كان قدر هذا الدين أن يرتبط بكل العقائد الفاسدة التي أفسدت الإنجيل. وبقدر ما نفصح هذه النبوة ونكشفها أو بقدر ما نكشف الادعاء الحالي "Present posture" الموجود على ظهر الأرض، كلما عجلنا بسقوط الخداع Delusion، وعجلنا بتأصيل الحق، وزاد اهتمامنا - بعمق - بهذه المناطق التي طالت فيها سيادة هذا الدين " !!

لست بداهة أتخفظ على التصدى والتعقيب الذي أورده المترجم على الفكر الملبوس في هذا الكتاب للمؤلف جورج بوش الجد الأعلى، والحق أن المترجم المحقق المعلق قد قام بجهد موفور في التصدى لكتابات المؤلف الضالة والتعقيب عليها، وليس هدفى هنا أن أستحضر ما افترى به المؤلف على الإسلام ورسوله وتصدى له المترجم ورد عليه، فذلك التصدى واجب، والرد اللازم، ولكن السؤال هو إلى أين وبأى لغة يجب أن يتجه التصدى والرد ؟! وهل يحتاج ذلك إلى هذه الترجمة الضخمة للكتاب كله، وألا يجزئ فيه مقال أو فصل في كتاب - بدلا من الترويج (غير المقصود) لهذا الكتاب الملىء بالضلالات الذي وضعه - سنة (١٨٣٠) - جورج بوش الجد الأعلى ؟! ظنى أن الأولى والأجدر، بالمبالغ الطائلة التي أنفقت على إعادة نشر الكتاب مترجماً، أن ينهض المترجم وهو قادر مالك لأدواته، على تسطير ما يريده بالإنجليزية تعقيباً على ضلالات هذا الكتاب، وتلمس السبل والوسائل لبثه إلى قراء الإنجليزية، سواء في أمريكا أو في غيرها من البلدان الناطقة بالإنجليزية.

ظنى أن خطابنا الدينى يكاد يغفل الأغيار الأجانب، الناطقين بغير العربية، إغفالاً تاماً، فلا يحدثهم ولا يكتب إليهم بلغاتهم، بينما نرى كاتباً فرداً كعباس العقاد، يتصدى وحده ومن أكثر من نصف قرن، إلى كتابات

الغرب عن الإسلام ورسوله متناولا كلاً منها بما يستوجبه تبعاً لنواياها أو لمادتها، رأيناها مستشهداً في كتابه " عبقرية محمد " بما كتبه العالم الأوروبي ماركس دودز Marcus Dodds في كتابه محمد وبودا والمسيح : " Mohamed , Budda and Christ ، ورأيناها يورد كثيراً من الاستشهادات أو التعقيبات على كتابات الغرب، الإيجابية والسلبية، ويناقشها مناقشة واعية متمكنة في كتبه أمثال : ما يقال عن الإسلام، وحقائق الإسلام وأباطيل خصومه، وعقائد المفكرين في القرن العشرين، والإنسان في عقيدة القرآن إزاء العقائد الأخرى أو المذاهب الإنسانية، والإسلام دعوة عالمية.

التصدى لحمالات الإساءة لرسول الإسلام والإسلام، لا ينبغي أن ينحصر في ردود أفعال أو التزام الدفاع، مثلما لا يلزمه الإفراط في الخطاب إلى المسلمين، فالمسلمون يعرفون دينهم وقدر ومكانة رسولهم الكريم، وينزلانها منزلة العقيدة الهادية التي بها يؤمنون. التصدى لهذه الحملات يستوجب خطاباً موصولاً إلى الأغيار، بأسلوبهم وبلغاتهم وبالمنطق الذي يفهمونه هناك، لكشف بهتان ما ران عليه اعتيادهم منذ قرون، وجلاء حقيقة براءة الإسلام والمسلمين مما يرام إلصاقه بهم من أعمال متطرفين لا تنتمي بل تناهض جوهر وحقيقة الإسلام.

يحتاج هذا الخطاب إلى جمهرة من العلماء المجيدين للإنجليزية والفرنسية والإسبانية وغيرها من لغات الغرب، وإلى آلية حاضنة، تتوفر لها الإمكانيات، والروح والإخلاص، لتنهض بهؤلاء العلماء والمفكرين على هذه الرسالة العظيمة التي ليس حسبها فقط أن ترد عن الإسلام ما يفتري به عليه، وإنما تبصر العالم وتقي البشرية مما يمكن أن يحيق

بالجميع يوم تدخل الأديان فى معترك المناجرات، ويتعدى ويتصارع
ويتقاتل حولها أبناء الأديان !

براءة الأديان..

من مغالطات التفاسير، وأغراض السياسة ! (*)

جذور العداء في الغرب للإسلام، أبعد كثيرا من رسم مسيء أو شريط فيديو قائم على تلفيق مشاهد منتقاة على آيات قرآنية مجتزأة ومنتزعة من سياقها، بل هو أعرض حتى من لغة وأغراض ومآرب السياسة، وضارب إلى أعماق سابقة في التاريخ على الحروب الصليبية، وما أشرنا إليه في كتاب جورج بوش الجد الأعلى : محمد مؤسس الإمبراطورية الإسلامية، وله كتاب مغلوط آخر عن رؤيا حزقيال - مجرد طفح لعداء قديم جذوره ضاربة في الغرب لمئات السنين ومنذ بداية انفتاح الإسلام على العالم الذي بدأت موجاته منذ منتصف عهد الراشدين، واتسعت دوائر تأثيره مع الدولة الأموية ثم العباسية، ومثلت الأندلس الإسلامية ما اعتبرته أوروبا رأس جسر لديانة جديدة كان الخوف منها على المصالح قبل الدين الذي اتخذه أرباب المصالح وشاحاً لمعاداتها، مثلما اتخذ من بعد ستارا للحملات الصليبية !

ليست الغاية من البحث في الجذور التحريض على مقابلة العداء بالعداء، فذلك فضلا عن مجافاته لروح الإسلام، محض رد فعل يعيبه ما

* الأهرام ٢٠٠٨/٥/١٥، ٢٠٠٨/٥/١

يعيب كل ردود الأفعال من تشنّج وصخب ضرير يعطى فرصة للمزيد من المغالطة والتحيف على الإسلام والمسلمين. مقصدي هو محاولة الفهم توطئة لتعامل عاقل لا غاضب. حدثتك سلفاً عما قدم به العقاد لكتاباتهِ فيما يقال عن الإسلام من أهمية أن نفهم كيف تبدو في عيون الأغيار، المتجنّين قبل المعتدلين والمنصفين، لأن رؤية النفس في مرايا الآخرين تدل على زوايا وأركان ربما مرت أو فانت علينا بحكم الاستسلام للعادة والاعتياد. ثم إنه لا مناص لمن يريد التصحيح من سلوك سبل الإيضاح والإقناع، حتى وإن التوت النوايا هناك، لأن صدق ووضوح الحقيقة يجرّج المغالط بينما يريجه الغضب والانفعال الذي يلويه ليتّخذهُ دليلاً على ما يريد الاتهام الجائر به !

كان من أغراض التعرض لكتاب جورج بوش الجد الأعلى الصادر سنة (١٨٣٠) بعنوان : " محمد مؤسس الدين الإسلامي، ومؤسس الإمبراطورية الإسلامية، - الكشف عن بعض مصادر وجذور الكراهية والعداء للإسلام في فكر الغرب الأمريكي بعامة، وفي العرق الممدود في تراث وعقول وفكر أسرة بوش منذ جدها الأعلى، الذي كتب أشنع ما كتب عن العرب والمسلمين والنبى محمد - ﷺ - في الولايات المتحدة.. فهو عنده " دعى " و " مدع " و " مؤسس " ديانة، وليس " رسولاً نبياً "، وهو والإسلام - هكذا يرى ! - أكلوبة كبرى غزت العالم بالّعنف والسيف والخديعة، وبلغ من تطاوله أن وصف رحلة الإسراء والمعراج بأنها تصورات وخيالات صبيانية، وأن محمداً - ﷺ - خدع السذج من أتباعه بهذه القصة الملحمية الغبية، وأن ما فيها من سخف - على حد تعبيره ! - أدى

إلى تخلى عدد من أتباعه عنه، وأن صديقه أبا بكر هو الذى خلصه - هكذا
! - من هذه " الورطة التعسة " !!

على أن هذا الكتاب على ما فيه من تطاول آثرت لاعتبارات وطنية
كثيرة - أن أكفى القارئ عناء الاطلاع على ما فيه من غثاء وتهجم وقح
على رسول القرآن عليه السلام - فإنه لم يكن كل ما كتبه هذا الجد الأعلى
المجبول على كراهية الإسلام ورسوله، فله كتابات أخرى في ذات
السياق، أخطرها والأكثر كشفا عن مراده ومراد هذه الفلسفة الملبوسة..
كتابه الذى ترجمه للعربية أيضا وحققه وعلق عليه الأستاذ العلامة
الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ. صدرت طبعته الأولى
بالإنجليزية في نيويورك سنة (١٨٤٤) بعنوان :
- The Vally of vision Or The Dry Bones of Israel revived
أى " وادى الرؤيا : إحياء رميم عظام إسرائيل .." ترجمه ونشره الدكتور
عبد الرحمن عبدالله الشيخ بعنوان : " وادى الرؤيا : في تفسير رؤيا
حزقيال أو إحياء عظام بنى إسرائيل. هل يتحول اليهود للمسيحية كشرط
لعودة المسيح " ؟!

فى هذه الفقرة الأخيرة بالعنوان العربى، يتمحور غرض وهدف
مؤلف الكتاب الذى يناهض فكره كثيرون من كتاب الغرب الأمريكى
والأوروبى، وكذا البابا شنودة الثالث بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة
المرقسية في ندوة عقدت في نيويورك ناقض فيها هذا التفسير المغلوط
لرؤيا حزقيال وغيرها من الرؤى، ونشرت في جريدة الأهرام في
٢٦/٨/٢٠٠٣.

في كتابه : " محمد مؤسس الدين الإسلامى ومؤسس إمبراطورية
المسلمين " يتبنى جورج بوش الجد الأعلى، أن محمدا - ﷺ - هو " إنسان

الخطية " الذى يظهر ويستعلى قبل المجيء الثانى للمسيح عليه السلام !، ويعتبر بوش " الارتداد " الذى يسبق هذا المجيء الثانى للمسيح - هو انتشار الإسلام، ويعتبر جلوس " إنسان الخطية " في هيكल الله - هو فتح المسلمين للشام وللقدس خاصة حيث الهيكل.. ويتوقع وظائفه الدينية عند بداية كل ألفية مجيء المسيح ثانية وعودة المسلمين إلى المسيحية ودخول اليهود في المسيحية !

تتضح أغراض جورج بوش الجد الأعلى، في ملحق كتابه الأول " محمد مؤسس الدين الإسلامى والإمبراطورية الإسلامية " - التى ضمت فيما ضمت تفسيره المغلوط الملبوس لرؤيا دانيال ورؤيا يوحنا اللاهوتى، كما تتجلى في كتابه الثانى : " وادى الرؤيا.. إحياء رميم عظام إسرائيل "، الذى ضم تفسير بوش الجد لرؤيا حزقيال، وهذا الكتاب من أبرز محطات الصهيونية الأمريكية الداعية إلى ضرورة العمل من أجل تجميع يهود العالم في فلسطين وتدمير " إمبراطورية السارازان " !. و " السارازان " هو الاسم الذى كان يطلقه الصليبيون وأوربيو القرون الوسطى على العرب والمسلمين، وكان الرومان يطلقونه على بعض رعاياهم تحقيراً لهم !

تتضح أغراض السياسة، في الملحق الأول الذى أضافه جورج بوش الجد الأعلى لكتابه عن " محمد " - ﷺ -، فيعتسف فيه تفسيراً غريباً ومغلوطاً لنبوءتى دانيال ويوحنا اللاهوتى. يبدأ بنبوءة دانيال الواردة بالعهد القديم الذى امتد وضعه قرابة ألف عام، واستغرق جمعه نحو ألف عام أخرى من سنة ١١٠٠ - ٢٠٠ ق م. ينتزع منه بوش رؤيا لدانيال الذى ذكرت دائرة المعارف الكتابية أن وضع سفره في القسم الثانى للأسفار

القانونية في الكتاب المقدس العبرى - كان على الأرجح لأنهم لم يعتبروه " نبيا "، بل كان بالحرى " رائيا " أو " حكيمًا " (ج/٣ - ص ٣٨٨) ..

ويذكر سفر دانيال نفسه أنه كان واحداً من النسل الملكى في يهوذا، ومن الشرفاء الذين أخذهم نبوخذ نصر (٦٠٥ ق.م) إلى بابل. بيد أن بوش يمشى مع الرؤيا أو الحلم الذى رَوَى دانيال أنه رآه (الأصحاح ٨ : ٨ - ٢٦)، تحدث فيه عن " تيس " و " قرن عظيم " و " قرن صغير "، ورواية رآها في المنام، ليسحبها بوش أكثر من ١٥٠٠ سنة ويجتزها من الأسر البابلى ليطبّقها على الإسلام ورسوله، وألف سنة أخرى ليطبّقها على الواقع المعاصر .. ويتجاهل في تفسيره الغريب كل منطق، ويخالف وقائع التاريخ، ليفقز إلى نبوءة أغرب من الخيال، أن المسلمين بعد إزاحة حكامهم المتسلطين، سيتركون دين " الدعى " محمد - كذا ! - إلى الدين الحقيقى ! يفسر الرؤيا أو المنام بأن القرن الكبير الأول (قرن الكباش) هو مملكة الإسكندر، وأن القرن الصغير يشير إلى الدين المحمدى - هكذا يفضل تسميته ! وأن " فخر الأراضى " أو " زينة الأراضى " مقصود بها أرض يهوذا أى فلسطين، وأن شاهد صدق النبوءة - حسب تفسيره - أن " الدعى " العربى - كذا ! - حصل على درجة من التوقير مساوية لما يحظى به يسوع المسيح، بل ورفع نفسه عليه درجة حين جعله مجرد نبى واحتفظ لنفسه وللقرآن بمكانة أوفر. الدين الإسلامى في تفسيره هو : .. هرطقة محمد .. ينسب إليه فى اجتراء غشوم أنه - ﷺ - أطاح بالطوقس السابقة وبرموزها ومذابحها .. وأن ما تنبأ به القديس بولس عن " رجل الخطية " يشير إلى ما أسماه " الخداع المحمدى " !! ولذلك الغرض يلوى بوش الآيات القرآنية الواردة على لسان يوسف

عليه السلام فينسبها إلى لسان " محمد " .. ليطلق عليه أنه - ﷺ - هو
مؤلف القرآن " !!

* * *

بذات الملحق الأول لكتاب " محمد مؤسس الدين الإسلامى "، ينتقل
بوش الجد الأعلى من سفر دانيال في القرن السابع قبل الميلاد، إلى رؤيا
يوحنا اللاهوتى الذى كتب إنجيله في أرجح الروايات بعد أكثر من تسعين
عاما من رفع السيد المسيح. أما الرؤيا التى تصدى الواعظ بوش
لتفسيرها على هواه، فضمن رسائل يوحنا اللاهوتى بالعهد الجديد (
الأصاحاح ٩ : ١ - ١٩) .. ورد بها نفخ ببوق، وكوكب سقط من السماء
إلى الأرض، وهابوية أعطى مفتاحها للنجم الساقط.. يصعد الدخان من
بئرها وأتونها العظيم، ويخرج منها جراد على الأرض شكله كشكل الخيل
المعدة للحرب، على رؤوسها أكاليل، ولها أذنان شبه العقارب، ولها ملاك
الهابوية، والويل الواحد مضى، يأتى بعده ويلان، ثم نفخ املاك السادس
بالبوق، وانفك أربعة ملائكة لكى يقتلوا ثلث الناس، والخييل والجالسون
عليها لهم دروع نارية تخرج النار والدخان والكبريت من أفواهها !

يلوى بوش الجد الأعلى هذه الرؤيا ليسحبها على الإسلام والعرب،
فهم الجراد وزعيمهم (محمد) هو المبيد ! .. والكوكب الذى سقط من
السماء وأعطى مفتاح الهابوية يرمز دينيا لظهور " الدعى " العربى - كذا
!! .. أما سقوط النجم قبل ظهوره فيشير إلى شخص " آريوس " وغيره من
الهرطقة وارتدادهم عن الحق الذى جازتهم العناية الإلهية عنه بظهور

الإسلام : " ذلك الدين المدمر المخادع " !!! لا يدع بوش الجسد الأعلى
سبيلا لتزييف التاريخ والحقائق إلاّ سلكه ليستقيم له التفسير المغلوط الذى
تبناه !

هذا التفسير رأينا من يسحبه على غزو العراق، فتصدى لهذه
الترهات الدكتور القس أندريه زكى في مقال نشره الأهرام ٢ مايو ٢٠٠٣،
كشف فيه القس ابن الكنيسة الشرقية هذه المغالطات والأراجيف، فقال : "
من الناحية اللاهوتية تقتصر هذه الحرب إلى أسانيد لاهوتية تدعم مبرراتها..
فاللجوء إلى نبوءات سابقة قد تحققت عبر التاريخ، ولم يعد لها مكان في
مستقبل الإنسانية - أمر خطير، واستدعاء هذه النبوءات في ظروف تاريخية
معاصرة، لا يخدم سوى الجماعة التى استدعتها. ويجهض المعنى الحقيقى
لهذه النصوص النبوية ويفرغها من واقعها التاريخى وخلفيتها الاقتصادية
والسياسية والاجتماعية إلى محاولة استخدام النص الدينى في ظرف
تاريخى مغاير، يجهض البعد التاريخى لهذا النص، ويحرم قراءه من
الاستفادة من خبرته التاريخية. ومن الجانب الآخر. فإن استدعاء الله في
هذه الحرب. هو أمر مثير للتساؤل. إن إعادة تفسير النصوص بعيدا عن
سياقها، واستحضار كل طرف للإله وفق رؤياه هى توجهات ذات صبغة
دينية تستخدمها الجماعات والشعوب بهدف اختلاق شرعية لحرب تقتصر
إلى بعد أخلاقى ورؤية إيمانية.. هذه الحرب تقتصر إلى مبررات أخلاقية
ولاهوتية " !

بيد أن استحضار الإله، وسبقه إلى ما يريد، بل والمصادرة عليه -
هو ديدن الواعظ مدرس العبرية جورج بوش الجد الأعلى.. ففى كتابه
الثانى : " وادى الرؤيا، فى تفسير رؤيا حزقيال أو إحياء رميم عظام

إسرائيل .. ينتقل المؤلف خطوات واسعة ليرسم برؤيا أو منام حزقيال حلم تجميع اليهود في أرض فلسطين تمهيدا وانتظرا للمجيء الثاني للسيد المسيح عليه السلام.. الرؤيا في سفر حزقيال بالعهد القديم، الأصحاح ٣٧ : ١ - ١٤ .. أما حزقيال نفسه فكان معاصراً للأسر البابلي، وتذكر دائرة المعارف الكتابية (جـ ٣ ص ٧٢ وما بعدها) - أنه حزقيال الكاهن (بن بوزي) وأنه أخذ إلى السبي البابلي من أكثر من ٢٥٠٠ سنة.. وأن نبوءاته بدأت في السنة الخامسة من سبي يهويا كين الملك (حزقيال ١ : ٢) واستمرت حتى السنة ٢٧ من السبي (حزقيال ٢٩ : ١٧)، أى تنبأ في الفترة ما بين (٥٩٣ - ٥٧١ ق. م) وأن السبي الذي أخذ إليه حزقيال سنة ٥٩٧ ق. م كان حادثاً عميق الأثر في مصير الشعب الإسرائيلي وفي علاقات حزقيال الشخصية. واختلفوا في نبوءاته، فلاحظ البعض أن عددها كبير جداً وشديدة التعقيد، ولا تعبر عن خبرات واقعية، وإنما صور أدبية، ولم يقبل آخرون هذا التنظير واعتبروه خطيراً، بينما نقلت دائرة المعارف الكتابية عن معاصريه أنهم عرفوا له قدره من الناحية الجمالية على الأقل، وأنه كثيراً ما يوصف اليوم بأنه : " من أعظم الشعراء " " رائع الخيال " تبدو قوته في صورته المجازية ."

ما علينا. اختار جورج بوش، الجد الأعلى، الرؤيا المروية بسفر حزقيال ٣٧ : ١ - ١٤. وهي تصور عظاماً يابسة بغير عذ في بقعة غير محدودة المكان، جعله الرب يرى كيف يجمعها بقدرته لتتقارب عظمة عظمة، وكيف كساها سبحانه عصباً ولحماً وجلداً، وكيف هبت عليها - فيما يروى حزقيال - روح من الرياح الأربع فتحيا - وأن هذه

العظام التي انتصبت جيشاً عظيماً جداً جداً، هي جملة شعب إسرائيل، ليعلموا حين تفتح قبورهم أن الرب قد تكلم وفعل.

هذه الرواية تكاد تقابل - فيما عدا الشطر الأخير المقسم لشعب إسرائيل، ما رواه القرآن المجيد في سورة البقرة.. يقول تبارك وتعالى : " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (البقرة ٢٥٩).

ويلحظ القارئ للآيات القرآنية، أنها لم تورد أسماء لأماكن أو أشخاص، وأن العبرة المستقطرة منها تنصب على قدرة الخالق عز وجل على إحياء الموتى - أى موتى، وأن المثل المضروب لمن أميت مائة عام ثم أحياه الله هو لبيان كيف تمثلت أمامه قدرة الله تعالى وهو يرى كيف صار حماره عظاماً ولم يصب طعامه وشرابه عفن، ويرى كيف يضم الله تعالى بقدرته هذه العظام البالية ويكسوها لحماً، لتبين له وللناس كيف أنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.

أما رؤيا حزقيال التي اختلفت صياغاتها العبرية عن اللاتينية عن اليونانية عن العربية عن الإنجليزية بسبب قدم العهد القديم الذى وضع على مدى قرابة ألف عام وجمع فى نحو ألف عام أخرى من ١١٠٠-٢٠٠ ق.م، ووردت على نصه العبرى ترجمات مترابكة متعددة، فإن التفاسير والنقاسد قد اختلفوا فى شأن الرؤى العديدة والمعقدة التى رواها حزقيال، واختلفوا

أيضاً في شأن هذه الرؤيا.. أما تفسير بوش الجد الأعلى فيلسوى هذه الرؤيا لرجل بنى إسرائيل الموجهة أساساً إلى اليهود المسيبيين في بابل (في القرن السادس قبل الميلاد) موسية ومبشرة بالخلاص من السبي البابلي، وهو ما أكدته البابا شنودة الثالث في حديثه للأهرام ٢٦/٨/٢٠٠٣، بيد أن بوش الجد الأعلى يخالف كل معقول ليسحب هذه الرؤيا على العصر الحاضر بعد ما يزيد على ٢٥٠٠ سنة.. يتخذ منها وغيرها، سلماً لتفسيرات سياسية لرسم خريطة الكرة الأرضية على هواه !

وكما يلفق بوش الجد تفسيراً مغلوطاً لرؤيا حزقيال ونبوءة إشعيا.. تبشيراً بالتجمع اليهودي في فلسطين، يعود إلى ذات النمط التلقيني المغلوط في نبوءات إرميا الذي عاصر نبوخد نصر وأطلق نبوءاته في فترة اتسمت بالخراب والسقوط في يد بابل سنة ٥٨٦ ق. م، بيد أن بوش الجد الأكبر ينتزع أحاديث إرميا من سياقها وظروفها ومن الخلاص من السبي ليربطها بدولة يبشر بأنها ستقوم في فلسطين بعد أكثر من ٢٥٠٠ سنة.. بينما نرى الباحث مونجمري وات يشهد بأنه قد صار بين رجال الدين بالفاتيكان من أدرك - بعد البحث العميق - أن محمداً - ﷺ - هو نبي مرسل من الله على نحو ما، وأن القرآن الكريم وحى إلهي بشكل أو بآخر، ولينكشف الغطاء عن الفكر الملبوس الذي تبناه الواعظ مدرس العبرية جورج بوش الجد الأعلى في كتابيه !

ليس صعباً على أى مراقب أن يربط بين هذا الفكر القديم الملبوس، وبين عبارات قيل إنها أفلنت من الحفيد بغير عمد - عن حرب صليبية جديدة، وبينها وبين سياسات تتجسد كل يوم في اتجاه لا تخطئه عين، ولا يمكن أن تعزى لانفلاتة غير مقصودة، فآية هذا القصد - المشاهد الجارية

فى إطار مخطط شامل ىنفذ على خطوات بدءاً من أفغانستان، وتنشئة
بالعراق، وتثليثاً بخطوة أخرى لم يعد التدبير لها خافياً، ضمن رؤية منسوبة
لإدارة ما ىسمى بالمحافظين الجدد أو السلفية المسيحية الصهيونية التى
تبشر بأن من أمارات المآء الثانى للمسيح، تحول اليهود إلى المسيحية،
وتجمع الجميع فى فلسطين ! فهل انكشف المستور وتجلى المراد القديم
الممدود من هذا الفكر الملبوس !!؟

بين تفاسير الجد الأعلى والخطاب التوراتي للحفيد الأدنى ! (*)

اكتمل بالمقال الثانى بأهرام (٥/١٥) - التعقيب على الكتابين اللذين وضعهما الواعظ جورج بوش الجد الأعلى، " محمد مؤسس الدين الإسلامى " (١٨٣٠)، و " وادى الرؤيا.. فى تفسير رؤيا حزقيال وإحياء رميم عظام إسرائيل " (١٨٤٤). هذان الكتابان اللذان يكشفان عداوة للإسلام ورسوله، وتبشيره فيهما بالتجمع اليهودى فى فلسطين، انتظاراً للمجىء الثانى للمسيح.. فى ختام هذا المقال الثانى الذى كان امتداداً لمقال سابق يعرى هذا الفكر الملبوس، قلّت بالحرف : " ليس صعباً على أى مراقب أن يربط بين هذا الفكر القديم الملبوس، وبين عبارات قيل إنها أفلتت من الحفيد بغير عمد - عن حرب صليبية جديدة، وبينها وبين سياسات تتجسد كل يوم فى اتجاه لا تخطئه عين، ولا يمكن أن تعزى

لانفلاتة غير مقصودة، فأية هذا القصد - المشاهد الجارية فى إطار مخطط شامل ينفذ على خطوات بدءاً من أفغانستان، وتثنية بالعراق، وتثليثاً بخطوة أخرى لم يعد التدبير لها خافياً، ضمن رؤية منسوبة لإدارة ما يسمى بالمحافظين الجدد أو السلفية المسيحية الصهيونية التى تبشر بأن من أمارات المجيء الثانى للمسيح، تحول اليهود إلى المسيحية، وتجمع الجميع فى فلسطين ! فهل انكشف المستور وتجلّى المراد القديم الممدود من هذا الفكر الملبوس " !!؟

لم نكد تمضى سويعات على نشر هذا المقال (٥/١٥)، حتى أتحنفا جورج بوش الحفيد الأدنى بالدليل الدامغ على صدق هذا التحليل، حين وقف (٥/١٦) ليخطب خطاباً توراتياً عجباً، مليئاً بالنصوص والقصص التوراتية، فى احتفاليته مع إسرائيل بذكرى مرور (٦٠) عاماً على زرعها بأرض فلسطين، زرعاً مقروناً بكل وسائل وأسلحة وحيل وأدوات تفريغ فلسطين من شعبها، بكل أنواع الإبادة، ومعها التهجير الجبرى لمن يستطيع أن ينجو من حمم الموت بحياته !

فى خطابه التوراتى الذى نقلته المصادر، وبثته الفضائيات، بدا جورج بوش : الحفيد الأدنى، حاكماً يهودياً من الطراز الأول على حد تعليقات المعلقين.. الذين أدهشهم فرط استخدامه فى خطاب سياسى فى القرن الواحد والعشرين، لنصوص وقصص توراتية ترجع إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة.. ولو عرفوا ما كان من أمر جورج بوش الجد الأعلى الواعظ ومدرس العبرية، وكتايبه الملبوسين، لما دهشوا من هذه " العظة " التوراتية التى ألقاها الحفيد الأدنى أمام الكنيسة الإسرائيلية، وتواصل فيها تواصل مشهوداً للعالم كله مع جده الأعلى وأغلاطه

التفسيرية للمرائى أو المنامات والأحلام المروية بالعهد القديم إبان الأسر البابلى من ستة قرون قبل الميلاد !

أكثر من العظة التوراتية التى ألقاها الحفيد الأدنى، أنه طفق يقول فيها للإسرائيليين، فى مظاهرته الاحتفالية، إنهم لو واجهوا شيئاً قلن يكونوا فقط (٧) ملايين، حسب تقديرات سيادته للتعداد الإسرائيلى، وإنما سيكونون (٣٠٧) ملايين.. لأن الشعب الأمريكى كله، سوف يكون معهم !

دعنا من وهم الرئيس الأمريكى أن بمكنته وهو يتأهب للمغادرة. بل وهو فى الحكم، أن يجبه ويحشد كل الشعب الأمريكى وراء ما يريده.. ودعنا من العظة التوراتية، وإيمانات السيد الحفيد الأدنى المتصلة المتواصلة مع أغلاط تفاسير الجد الأعلى.. ودعنا من خلط الدين بالسياسة، أو السياسة بالدين، وخيبة أن يتحدث رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بهذا الحديث المتقطع وهو فى قلب المحيط العربى، وعلى أعتاب زيارات بعد ساعات لأكثر من دولة عربية بالمنطقة، وعليه من باب الذوق على الأقل.. ألا يحرصها، فإن فات الذوق، فظنى أنه كان عليه على الأقل أن يتحوط بلغة السياسة لعدم إفشال خطابه مقدما بهذه الدول التى عاد من بعد ليجاوز فى خطابه فيها وإليها كل مألوف جرت وتجرى به الأعراف والتقاليد السياسية والدبلوماسية !!!

يبدو أن العظات التوراتية أخذت الحفيد الأدنى بعيداً عن مقومات الخطاب السياسى، وضوابط الدبلوماسية فيه، حتى لم يجد الرئيس المصرى بُدّاً فى شرم الشيخ من أن يغادر القاعة قبل خطاب الرئيس الأمريكى الذى

علم مقدما أنه يجافى الذوق والحس السياسى، ويخالف الأعراف فى مسابسه
التقيل بسياسات الدول !

لا ندهش بعد ذلك، ما دامت العظة توراثية، من ألا يلتفت الحفيد
الأدنى وهو يهاجم محاولات إيران للتخصيب، أنه يتحدث من قلب إسرائيل
التي تملك ترسانة نووية كافية لتدمير نصف العالم، فكيف لا يرى فى
ذلك شيئاً، بينما يتوعد من داخل الاحتفالية " الإسرائيلية " بأن السكوت
على إيران خيانة للأجيال المقبلة !

ترى ماذا يرى الحفيد الأدنى فى شأن الأجيال الفلسطينية الحاضرة،
ودعنا من المقبلة ؟!.. هل رأى ويرى أشلاء الأجساد الممزقة تحت وابل
القنابل ودانات المدافع ؟!.. هل رأى ويرى العمائر التى تسويها الجرافات
بالأرض ؟!.. هل رأى ويرى الأمهات التكالى والأطفال اليتامى ؟!.. هل
يدرك ماذا فعله ويفعله بأهل فلسطين - الجدار العازل الذى قضت محكمة
العدل الدولية بإزالته ؟!.. هل يحس بما تمتلئ به تبعاً عناقيد الغضب ؟!

فإن فاتته هذا كله، فكيف يعطى لنفسه الحق فى أن يكون ناصحاً أميناً
حريصاً على من تعاديه سياساته وتنسف حقوقهم وتقوض حاضرههم
ومستقبلهم ؟!.. ما منبع هذا الحرص إن كانت العظة التوراثية قد ملكت
عليه أمره، فلم يعد يرى سواها، حتى يفرط منه، عفواً أو قصداً، وهو
يبشر بشارة كاذبة بالحل، أنه : " لا يمكن أن تجبر دولة على المضى قدما
فى التفاوض " ؟!.. فإذا كان هذا هو المنظور الأمريكى، فما علة "
الوصايا " المفروضة أو المروم فرضها فى منطقة باتت حبلى بمظالم
وازدواجيات جرأت المحتل أن يصف الجلاء بأنه تنازل، فإذا كان الجلاء
تنازلاً، فماذا يسمى الاحتلال ؟!

لقد رأيت فى قراءتى وتحليلى للكتابين الصادرين عن جورج بوش الجد الأعلى، الواعظ مدرس العبرية، ما لا يقف عند حد كراهة الإسلام ورسوله، وإنكار الدين والنبوة، بل استشففت فيهما جذور فكر ملبوس يمثل أصول عقيدة الحفيد الأدنى فى التجمع اليهودى، ومعه المسيحى، فى فلسطين انتظاراً لما أسماه الجد الأعلى - المجرى الثانى للمسيح عليه السلام. رأيت الجد الواعظ، مدرس العبرية، يفسر رؤيا حزقيال الراجعة إلى القرن السادس قبل الميلاد، فيستخلص منها هُبر فلسطين من شعبها الذى راح الحفيد الأدنى يحتفل - عام ٢٠٠٨ بعد الميلاد - بعيد ميلاد اغتصابها. يترك جورج بوش الجد الأعلى السبى البابلى الذى ظهرت فيه وعنه وله هذه الرؤيا أو الحلم أو المنام، ويجتزها من بشارات الخلاص من السبى البابلى، ويسحبها أكثر من ٢٥٠٠ سنة لينتبا بأن المسلمين سيرتدون عن الإسلام إلى المسيحية، وإليها أيضاً سيتجه اليهود، ليتجمعوا ومعهم أبناء المسيحية الصهيونية فى فلسطين !

لا غرابة إذن فى النصوص والقصص التوراتية التى استخدمها الحفيد الأدنى فى خطابه بإسرائيل، فهى بضاعة موروثة عن الجد الأعلى، تكشف أن عبارة الحرب الصليبية التى أفلتت منه، أشبه - وإن اختلفت الظروف - بالعبارة التى أطلقها الجنرال اللنبي على أعتاب القدس : " الآن قد اكتملت الحروب الصليبية " ..! لم تكن إذن عبارة جورج بوش الحفيد الأدنى عن الحرب الدينية المنتظرة مجرد زلة لسان أو انفلتة غير مقصودة، بل إن المشاهد الجارية لسياسات الرئيس الأمريكى تؤكد ما وراء يوم.. غزو أفغانستان، ثم العراق، وها هى الخطط تحاك ضد سوريا وإيران. هذا المخطط هو عقيدة المحافظين الجدد أو السلفية المسيحية

الصهيونية التي ينتمى إليها جورج بوش وتبشر بأن من أمارات المجيء
الثانى للمسيح، التجمع اليهودى فى فلسطين !
لا غرابة إذن، ولا دهشة على الخطاب التوراتى للحفيد الأدنى
جورج بوش وارث هذا الفكر الملبوس، ولكن الحسرة هى على منطقة لا
تزال عاجزة عن امتلاك مقاديرها، مرغمة أو راغبة فى فتح أذرعها
بالأحضان لأعدى أعدائها وصاحب الخطر الداهم على حاضرها
ومستقبلها !

الإسلام

فى كتابات منصفة (*)

فى كتاب " محمد .. سيرة النبى " الصادر بالإنجليزية فى نيويورك ١٩٩٢، وأقر مجمع البحوث الإسلامية ترجمته التى أجراها الدكتوران محمد عنانى وفاطمة نصر - توطى مؤلفته الكاتبة البريطانية كارين أرمسترونج، الراهبة السابقة والباحثة فى تاريخ الأديان - توطى لكتابها المنصف الموضوعى - بفصل مستفيض عن جذور العداء فى الغرب لرسول الإسلام بعنوان " العدو محمد " ..! لتستأصل ببحثها الموضوعى شأفة المفاهيم المغلوطة التى تراكمت مع هذا العداء وصارت كالأساطير التى لا يحاول أحد مناقشتها هناك ..! من الغرب أننا مع عنايتنا بترجمة هذا الكتاب إلى العربية، لم نلتفت لترويج نسخه الإنجليزية، مع أن ذلك متاح بأموال النفط الفائضة بالمليارات، ما عليها سوى أن تروج التوزيع - ولو مجاناً! - بالغرب، ليرى الغربيون بلغتهم وأسلوبهم ومفاهيمهم كيف تراكمت المغالطات المضلة فصارت تلالاً ثم جبلاً باتت تحجب الرؤية وتسلس إلى التجاوزات المتتابعة التى سوف تفتح أبواباً لن تتغلق للصراع بين الأديان !

معرفة وفهم تراكمات وجذور المغالطات، وكيف شكلت منظور كثير من الغربيين عن الإسلام ورسوله، ضرورة بالغة الأهمية لتوجيه الخطاب إليهم، بلغتهم لا بلغتنا، وهى غاية جاءتنا على الجاهز فى كتاب الراهبة البريطانية السابقة كارين أرمسترونج الموضوعى المنصف. فيه تتبعت جذور العداة والصورة المغلوطة التى أخذت تتراكم فى الغرب ضد الإسلام ورسوله !.. كيف اعتقد يولو جوليو وألفارو - وغيرهما أن سطوع نجم الإسلام ما هو إلا إشارة لقدم المسيح الدجال، وهو "الدجال العظيم" الذى ورد وصفه فى العهد القديم، والذى ينذر حكمه بحلول الأيام الأخيرة للبشرية. وكيف جعل البعض يفسرون ما ورد فى سفر "رؤيا يوحنا اللاهوتى" عن وحش عظيم، يخرج من الهاوية ويتوج نفسه على عرش جبل المعبد، ويحكم العالم - بأنها نذير يطابق مقدم "محمد" الذى أتى بعد المسيح، ويومئ إلى انتشار الدين الذى جاء به، وإلى فتح المسلمين بيت المقدس، وبنائهم مسجدين عظيمين على جبل المعبد، وأن إقبال المسيحيين على هذا الدين الجديد ما هو إلا ارتداد وهرطقة ! حتى جعل بعضهم يتساءل : " كيف سمح الله لهذه العقيدة (الكاذبة) بالظهور والانتشار ؟ ترى هل تخلق الله عن مناصرة شعبه وأهله " ؟!

على مدار سنين، فيما فصلته كارين أرمسترونج، توالى صيحات التهجم المحمومة ضد نبي الإسلام، مدفوعة بالوهم الذى سيطر على الأذهان بالتفسير المغلوطة " للرؤيا "، والرعب الذى طفق يسيطر أن " محمداً " - عليه السلام - دجال كاذب، نصب نفسه نبياً ليخدع العالم، وجعلت هذه الأوهام الكاذبة تصور نبي الإسلام بأنه فاسق يستمرئ الفسق البذىء، ويدفع أتباعه إلى محاكاته، ويجبر الناس بحد السيف على اعتناق

عقيدته. أما الإسلام فليس ديناً مستقلاً أو منزلاً، بل بدعة وصورة مشوهة من صور المسيحية، تؤمن بالعنف والسيف، وتمجد الحرب والقتل !

تعقب الراهبة البريطانية السابقة : كارين أرمسترونج - بأن هذه الأساطير الغربية، عادت إلى الظهور بعد ٢٥٠ سنة وأوروبا توشك على العودة للساحة الدولية، ولتعيد رسم هذه الصورة الوهمية الخيالية نبي الإسلام الذى حُرِف اسمه إلى " ماهوند " Mahond، وأصبح مع انتشار هذه الأوهام على المستوى الشعبى - العدو الأكبر للهوية الغربية الناشئة !

وصار - فيما نقول المؤلفة : " يرمز لكل ما نتمنى أن ننفيه عن ذواتنا. ولا تزال آثار الوهم القديم قائمة حتى يومنا هذا. إذ لا يزال الشائع عند الغرب أن يسلموا دون نقاش بأن محمداً ليس سوى رجل " استغل " الدين فى تحقيق الفتوحات وسيادة العالم، وأن الإسلام دين عنف يعتمد على السيف، وذلك على الرغم - والكلام للمؤلفة - من وجود دراسات علمية وموضوعية كثيرة عن الإسلام ونبي الإسلام تثبت خطأ هذه الأسطورة المرتبطة " بماهوند " !

تتوقف الباحثة البريطانية، فى استقصائها تراكم عدااء الغرب للإسلام، واستشراءه عن جهالة وسوء فهم واستسلام للأساطير.. تتوقف عند موجات الحروب الصليبية التى تزامنت مع شن الحروب من الشمال ضد مسلمى الأندلس، وقيام البابا أوربان الثانى باستدعاء فرسان أوروبا عام ١٠٩٥ لما أسماه تحرير قبر المسيح فى أورشليم. تبرز كارين أرمسترونج كيف تقصص ملحمة " أنشودة رولان " التى ألقت فى زمن الحملة الصليبية الأولى عن جهل فاضح بالطبيعة الأساسية لعقيدة المسلمين، إذ صورتهم " عابدى أصنام " يركعون للآلهة " أبولو " و

" تيرفاجان " و " محمد " !!! وأنهم وباء وقذارة ينبغي تطهير الأماكن المقدسة منهم !!

تكشف أرمسترونج كيف صنعوا " أسطورة ماهوند " عدو الممالك المسيحية، وكيف صارت هذه الأسطورة الزائفة راسخة في مخيلة أبناء الغرب، وكيف أدى هذا الوهم الكاذب الخيالي " لشخصية ماهوند " (نبي الإسلام) - إلى زيادة الصعوبة التي يواجهها الغربيون اليوم إذا حاولوا النظر إليه باعتباره - على الأقل - شخصية تاريخية جديرة بالدراسة التي يولونها لنابليون أو للإسكندر الأكبر !

يستغرب كل عاقل، مقدار خيبة الأساطير التي شكلت الوجدان الغربي بعامة عن رسول القرآن عليه السلام. فهو في هذه الأساطير ساحر دبر " معجزات " زائفة ليخدع العرب السذج ويدمر الكنيسة في أفريقيا والشرق الأوسط. تتحدث إحدى الحكايات عن نور أبيض أثار الذعر ثم ظهر آخر الأمر بالقرآن الذي أتى به محمد إلى العرب، وأخرى تروى أن محمداً قام بتدريب حمامه على التقاط حبات البازلاء من أذنيه ل يبدو للرائي كأن روح القدس تنزل عليه. مهما غضبت فلن تستطيع إلا الإشفاق على تصديقهم هذه الخزعبلات التي اصطنعها مغرضون لم يجدوا تفسيراً لنجاح الإسلام إلا بإنكار الوحي وتصويره أنه مجرد هرطقة أو فرقة خارجة على المسيحية، وهي أوهام تراكت في تكوين القلق من الإسلام ثم العداء له وللمسلمين.. سطوروا بها صفحات مخجلة لا يتسع المقام هنا لتفصيلها !!! يكفي أن نعرف أن دانتي الذي يتشدد كثير من بعبريته في الكوميديا الإلهية، قد صور فيها محمداً - عليه السلام - في الدرك الثامن من الجحيم في عذاب مهين مع أرباب الفتنة التي أحدثت

الانشقاق الدينى !!... قريب من هذا الفكر الملبوس ما وقع فيه مارتز لوثر والبروتستانت وآخرون من بعدهم درجوا - حتى فى عصر النهضة - على نعت الإسلام " بالمذهب المحمدى " ونعت رسوله بأنه : " الدجال " الشهير بمحمد، أو بأنه النبى الكاذب، وإطلاق مسمى " المحمدية " Mohamadism بدلا من " الإسلام ".. وهو ما صار يجرى الآن فيما تمد به الولايات المتحدة شبكة الإنترنت، متوهمة أنها بذلك تستطيع أن تخفى الإسلام الذى عم المعمورة ويتزايد معتنقه كل يوم فى أمريكا ذاتها !

تستعرض كارين أرمسترونج بعض مؤلفات الغرب الغارقة فى التجنى والزيف والوهم، حيث لم تبدأ محاولات التخلص منه، إلا مع ترجمة معانى القرآن وتوالى الدراسات التاريخية الموضوعية التى شهد القرن ١٨ بعض جهودها الرامية إلى تفهم أكثر للإسلام.. ككتاب " تاريخ المسلمين " لسايمون أوكلى (١٧٠٨)، وكتاب " أخلاق الأمم وروحها " لفرانسوا فولتير (١٧٥١)، واستشفاف المستشرق الهولندى يوهان يعقوب رايسكرى (ت ١٧٧٤) للمسحة الربانية فى حياة محمد ونزول الإسلام، وثناء ادوارد جيبون على عقيدته التوحيدية بكتابه " تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية "، ومحاضرة كارلايل " البطل باعتباره نبياً " التى دافع فيها دفاعاً حاراً عن محمد عليه السلام - منكرأ أوهام القرون الوسطى، وضمَّنْها كتابه المعروف عن البطولة والأبطال (١٨٤١).

لم تنقطع للأسف زيوف الأوهام القديمة برغم هذه الكتابات الموضوعية، فبقيت تدلى بدلوها فى تأجيج التعصب والكراهية للإسلام، مثلما فعل شاتوبريان فى كتابه : " الرحلة من باريس إلى أورشليم ومنها "

إلى باريس " (١٨١٠/١٨١١) الذى بشر فيه - بخياله الصليبي - بوجوب سيطرة الغرب على العرب أرباب الهمجية والوحشية !! هذا العرق الملبوس الممدود الذى عبر عنه الجنرال للنبي عام ١٩١٧ حين أعلن وهو على أعتاب القدس : " الآن قد اكتملت الحملات الصليبية !!

هذا هو ما كشفته كارين أرمسترونج - الراهبة السابقة - الباحثة فى تاريخ الأنيان فى كتابها الرائع : " سيرة محمد .. ومع موضوعية وروعة ما كتبته إنصافاً للنبي والوحي، ولسيرته ودعوته، فظنى أن أخطر ما فى الكتاب ما كشفته عن قدم أثر الأساطير الغربية فى تشكيل الوجدان الغربى بعامة إزاء الإسلام ورسوله.. هذه الأساطير التى تجذرت حتى بات الكثيرون هناك يقبلون الفكر الملبوس عن الإسلام بلا مناقشة، لا ينجو من الوقوع تحت تأثيره المغلوط إلا قليلون قرءوا وتمعنوا وفهموا، بعضهم أفصح كما فعلت، وبعضهم اشترى راحته بالسكوت !!!

مرة ثانية. ليست الغاية مقابلة العداء بعداء، فذلك يجافى الإسلام، ويفوت فرصة البيان والإيضاح. مقصدى أن نفهم الصورة هناك.. كيف أنها أوسع كثيراً من رسم مسيء أو شريط فيديو، ونذكر أن رؤيتها بكل جوانبها، هى الكفيلة بوضع رؤية شاملة، مدروسة لا عشوائية، تواجه هذا التجنى المبعد عن الحقيقة والإنصاف، وسيلة مواجهته الأولى تصحيح صورة وسلوك المسلم ذاته فى عيون الغرب، ومعها خطاب مدروس ومتواصل، بلغتهم ومنطقهم، يخاطب العقل بالحجة والبرهان، ويفوت فرص الإساءة الجاهلة أو المتعمدة، ويبطل موجات الكراهية والشحن ضد الإسلام والمسلمين، ويفتح منافذ لفهم متبادل لا غناء عنه للبشرية فى هذا الزمان، وفى كل زمان !

من الفوارق الكبيرة بين اليوم والبارحة، أنهم كانوا بأمس يفهمون أبعاد القضية ومساحة العداء للإسلام ورسوله وللمسلمين، ويملكون وسائل وأدوات التصدي لكثير من اللغو الذي حفلت به من قرون كتابات الغرب من افتراءات وخرافات وعداء دفين ضد الإسلام ورسوله مما تغدو معه الرسومات المسيئة كقطرة في محيط.. لم يحصر آباؤنا وأجدادنا أنفسهم في صراخ أو تظاهر أو ولولة، وإنما استنطقوا مخزون علمهم، وشرعوا أقلامهم بالعربية وبغير العربية - لبيان شامل محيط لا يتمحور في محض رد فعل متشنج أو حتى غير متشنج، وإنما يتسع بفهم وعلم وحجة ليقدم لقراء العربية ولغيرهم بياناً وبحوثاً شافية تعرف بحقيقة الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم، وتحض المسلم ذاته على أن يكون بسلوكه صوراً مشرفة للإسلام.

وقد رأينا في كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل صورة لافتة للإحاطة بما كتبه عن الإسلام ورسوله - المستشرقون والمبشرون، والمنصفون وغير المنصفين وهم أكثر، وكتابيات كتاب الغرب بعامة - أعانه على ذلك إمامه بالإنجليزية والفرنسية، ووعيه لمعرفة جذور هذه الضغينة التي يحملها الغرب للإسلام.

ظنني أن علو حناجرنا جاء على حساب دور عقولنا. أشعر بالخل من الحاضر حين أجوب مثلاً في دوحة العقاد، فأرى حجم وعمق ما قدمه هذا العملاق للإسلام بلا صخب ولا ضجيج ولا انفعال. هل تذكرنا في ردود أفعالنا الصاخبة بلا طحن، ماذا فعل العقاد في كتاب واحد : " ما يقال عن الإسلام "؟!.. في أكثر من ثلاثين مقالاً، جاب أركان الأرض غرباً وشرقاً، وجنوباً وشمالاً، في أوروبا وأفريقيا وآسيا وأمريكا، واستقصى

العشرات من الكتابات هناك عن الإسلام وقرآنه ورسوله.. يقول فى تقديمه للكتاب إن صفحاته مجموعة من المقالات عن الكتب التى ألفها كتاب الغرب عن الإسلام من شتى وجهات النظر، وإنه اختار الأكثر شيوعاً واعتباراً فى العصر الحديث، ليلخصها ويعقب عليها ويناقش ما يحتاج منها للمناقشة، وجمعها فى كتابه ما يقال عن الإسلام يبتغى بها المزيد من التعريف بالإسلام والبحث عن حقائقه وأباطيل خصومه، لعلها تغنى طلاب المعرفة من القراء فى الأمم الإسلامية.

يتناول العقاد فى مقالاته المتنوعة، الإسلام والعصر الحديث، والإسلام والثقافة الأفريقية، ويوضح الفارق بين العقيدة الإلهية فى الإسلام وغيره من الأديان، والفارق بين الأديان المغلقة كاليهودية.. وبين الأديان المفتوحة أو أديان الدعوة كالإسلام، وأوضاع وقضايا المسلمين السود فى أمريكا، ومفهوم الجهاد فى الإسلام.. وأغلاط المبشرين فى نقد القرآن.. وغير ذلك من الموضوعات التى خاضت فيها كتب الغربيين. فهل كل هذه الأستات صادرة عن نية واحدة أو قصد واحد ؟ يتوقف العقاد عند هذا السؤال ليقول : إن المهم فى هذه الكتابات هو محك الإخلاص فى كتابتها. فمن هم المخلصون منهم ؟ ولماذا يخلصون ؟

المخلصون إما طلاب معرفة أو طلاب عقيدة، وقد يجمعهما طلب الحقيقة فى عالم العلم وعالم الضمير، وفيما عدا هؤلاء يندر الإخلاص فى كتابات الذين عرضوا فى الغرب للمسلمين أو لما اعتقدوه أو تعودوه، ولكنهم فى قلة الإخلاص أو سوء النية أنواع ودرجات !.. عن هؤلاء وأولاء دبح العقاد مقالاته بيانا لحقيقة الإسلام وبحضا لدعاوى المتعصبين والماديين والملحدين والمبشرين الذين لا يقلون عداوة للإسلام عنهم. ظنى

أنه فضلا عن الأثر العميق لهذه البحوث التي كتبها العقاد في أمم الإسلام، فإن ترجمتها إلى اللغات الغربية قميئة بتجلية صورة وحقيقة الإسلام هناك، ودحض الدعاوى والحملات والأغلاط سواء حركها العداء أم الجهالة أم نضوب المعرفة !

تذكرت وأنا أتابع قارئاً أو كاتباً، حملات الإساءة للإسلام — مكتبة العقاد في كتابه " الإسلام دعوة عالمية " عن آراء كتاب الغرب في نبي الإسلام فأشار إلى كتاب " القادة الدينيين " Religious leaders .. من تأليف هنرى توماس ودانالى توماس.. بدأ ترجمتهما لنبي الإسلام قائلين : " فى القرن السابع، حين بدا على الدنيا أنها أصيبت بالجفاف، وحين فقدت اليهودية مولدها واختلطت المسيحية بموروثات الأمم الرومانية البربرية، نبع فى المشرق - فجأة - ينبوع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم... وإن حكمة الله لعجيبة ذات قوة فى قضائها العجيب، فإن هذا الينبوع الصافى قد انبثق من أجذب بقعة بين بقاع الأرض قاطبة : صحراء الجزيرة العربية.. وتروى الأخبار المأثورة كثيراً من المعجزات والخوارق التى صحبت مولد محمد وطفولته، ولكن محمداً لم يذكر هذه المعجزات ولم يذكر قط معجزة متصلة بشخصه أو برسالاته، لأنه لم يأت كما قال **يغير** معجزة واحدة هى معجزة القرآن الذى تلقاه من وحى الله.. وقد جاء بالدين ليدعو إلى ملة إبراهيم وموسى والمسيح على هدى جديد . يصف المؤلفان نبي الإسلام بأنه " كان محبا لإخوانه من بنى الإنسان بسيطاً فى معيشتة يأكل خبز الشعير ويخدم نفسه وإن اجتمعت له أسباب الثراء، ويتورع أن يضرب أحداً أو يسوءه بكلمة تقريع.. ولم يغتفر لنفسه أنه أعرض ذات مرة عن سائل ضرير.. وقد حاول أن يقابل كراهة أعدائه

بالحب لأنه يعلم الناس أن أحب الخلق إلى الله أحبهم إلى خلق الله، ولكن عباد الأوثان بمكة لم يستمعوا لدعوة الحكمة والمحبة ونظروا إليه فلم يفهموا من قوله ولا عمله إلا أنه تائر عليهم يسفه أحلامهم ويحطم أصنامهم، فصادروه وتوعدوه واعتدوا على حرите وأوشكوا أن يعتدوا على حياته ".... " إن صاحب الدعوة الإسلامية لم يبدأ المخالفين له بالحرب، بل هم الذين بدأوه بها واضطروه إليها، وكان من خلائقه المعروفة أن يرحم الضعيف، ويأمر بالرحمة، ويرفق بالحيوان، وينهى عن التحريش بين البهائم، ويدعو أتباعه إلى ادخال السرور على قلوب المحزونين، وهو القائل : " أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورا أو تقضى عنه ديناً أو تطعمه خبزاً "... وهو القائل : " فكوا العانى وأجيبوا الداعى ". أشار المؤلفان إلى الخبر الذى ورد عن وقوف النبى لجنازة اليهودى، وإلى الأخبار الكثيرة التى وردت عن أدبه عليه السلام فى معاملة الضعفاء والأتباع، ومعاملة اليتامى والأيامى فقالا : " إن هذا الأدب هو أدب النبوة الإسلامية فى لبابها، وليس أدب القتال عنوانا لها كما حسب بعض الناقدین للإسلام على السماع ". أما الجهاد، فهو فريضة يؤمر بها المسلم ويتعلم معها من نبیه أن " أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه ".

يقول هنرى ودانلى توماس فى ختام السيرة : " الإسلام لا يخاصم الديانات الأخرى، بل هو دين يجمع ويؤلف، ولا يطرد أو يستثنى، ومن أدب المسلم أن يحترم عقائد غيره، وأن يؤمن بأن العالم أمة واحدة تدين لإله واحد، هو رب العالمين ".

يورد العقاد فى كتابه الضافى " عبرية مصر " مقارنة عقدها العالم الأوروبى الدكتور ماركس دودز Marcus Dodds فى كتابه

"محمد وبوذا والمسيح " - Mohammed , Budda and Christ فى
هذه المقارنة يقول العالم الأوروبى :-

" أليس محمد نبيا على وجه من الوجوه ؟ " ثم أجاب قائلا : " إنه على
اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء : فقد عرف حقيقة عن الله
لم يعرفها الناس من حوله، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر
تلك الحقيقة، وإنه لخليق فى هذه الفضيلة أن يسامى أوفر الأنبياء شجاعة
وبطولة بين بنى إسرائيل، لأنه جازف بحياته فى سبيل الحق، وصبر على
الإيذاء يوما بعد يوم عدة سنين، وقابل النفى والحرمان والضعينة، وفقد
مودة الأصحاب بغير مبالاة. فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه
إنسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة، ودأب مع هذا جميعه على بث
رسالته غير قادر على إسكاته وعدّ ولا وعيد ولا إغراء.. وربما اهتدى
إلى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان، إلا أن أحدا آخر غير محمد
لم يقيم فى العالم مثل ما أقام من إيمان بالوحدانية دائم مكين، وما أُتيح له
ذلك إلا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان. فإذا سأل سائل : ما
الذى دفع بمحمد إلى إقناع غيره حيث رضى الموحدون بعبادة العزلة ؟ فلا
مناص لنا أن نسلم أنه هو العمق والقوة فى إيمانه بصدق ما دعا إليه " .

والحقيقة التى يراها المنصف مسلما كان أو غير مسلم - أن رسول
القرآن عليه السلام قد جاءه الإغراء الذى أشار إليه العالم الأوروبى فى
أحوال كثيرة فما تغير.. جاءه الإغراء وهو داع مهدد فى سريره، وجاءه
وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته، فما حفل بالإغراء وهو بعيد من
مقصده ولا حفل له وهو واصل إليه !

فهل وعينا أن صورة وسلوك المسلم، هما أساس وآية رسالة الإسلام إلى الدنيا، والتفتنا إلى أمثال هذه المؤلفات المكتوبة أصلاً بلغات الغرب ولمؤلفين غربيين، والتفتت إليها الهيئات الإسلامية التي تملك المال والإمكانات، لتتدبر الوسائل لبث هذه الكتابات إلى أوروبا والأمريكيتين بدلاً من الاحتجاجات الصاخبة المتشنجة التي سرعان ما تتلاشى بلا طحن ويطمرها النسيان، بينما فى كتاباتهم بأقلام المنصفين منهم ما يصد ويفحم حملات الإساءة والكراهية، ويجلى الصورة الصحيحة المنصفة للرسول وللإسلام الذى يعم المعمورة دينا هاديا للعالمين إلى يوم الدين !

أضغاث فارس، بلا فروسية !! (*)

ظنى أنه لا يليق بالحضارة البريطانية العظمى، أو التى كانت عظمى، أن تخرج لسانها لأحد، ناهيك عن أن تخرجه للمسلمين ! فى تتطع غريب، وخيبة قوية، أعطى قصر باكينجهام بالتناغم مع الحكومة البريطانية التى لا تترك للقصر التصرف وحده - أعطى وسام " فارس " للمدعو سلمان رشدى، فى الوقت الذى جرّد فيه " موجابى " من ذات الوسام - وسام فارس - السابق لذات الملكة إليزابيث الثانية منحه إياه عام ١٩٩٤ !

التجريد الملازم هنا للمنح، دال بذاته على خيبة اختيارات المنح، وإن أصابت هنا فى التجريد. لست أعرف ماهى حيثيات منح الوسام الهلامى للكاتب الهندى الأصل سلمان رشدى، فلا هو فارس، ولا صدر عنه ما ينتمى إلى شجرة الفروسية، ولا المانحة احتفظت بتقاليد الفروسية التى كانت للمملكة فى الزمن الغابر !

حملت إلينا الأنباء أنه فى احتفال بقصر باكينجهام، تلقى سلمان رشدى تكريم ملكة بريطانيا من أجل " خدماته فى مجال الأدب ".

ولم تحفل الملكة والحكومة البريطانية المتناغمة معها، بمشاعر المسلمين الذين أساء إليهم الممنوح " وسام الديكور " فى روايته " آيات شيطانية " (١٩٨٨)، ولا بما فيها من غثاء وتهجم جهول على الإسلام ولا ينتمى أو يحسب على الأعمال الأدبية بمقاييسها التى يعرفها الأدباء والنقاد، ولا حفلاً - الملكة وحكومتها - بما أُنذر به الإعلان عن نيّة منح هذا الوسام من احتقان شديد، ومظاهرات عمت الدول الإسلامية والعربية، احتجاجاً على هذا التصرف الضرير الذى لا معنى ولا سبب له اللهم إلا أن يكون مقصوداً به إغاضة المسلمين واستفزازهم وتكريس التوتر بينهم وبين العالم الغربى !

لم تمنح ملكة الإنجليز هذا الوسام (الديكور) لكثيرين من كتاب وأدباء الغرب والإنجليز الحقيقيين، ولم تمنحه كتاباً كباراً من أصول هندية أو عربية، ولم تنعم به على كثيرين من أدباء نوبل الذين شهد لهم العالم بأنهم أدباء حقيقيون قدموا للإنسانية والأدب والفكر أعمالاً عظيمة !

فلماذا سلمان رشدى ؟!

هل صحيح أنه قدم - غير التهجم الغشوم على الإسلام ! - " خدمات فى مجال الآداب " ؟! جواب هذا السؤال يكشف " تحرش " قرار المنح بالإسلام والمسلمين، ويعريه من أى غاية يفهمها العقلاء إلا هذا المأرب الضرير بإخراج اللسان وإغاضة المسلمين ! ولكن هل فى هذه الإغاضة الضريرة أى مسحة من عقل ؟! ما العقل فى افتعال منح وسام ديكور لشخص خالٍ من المواهب استعدى بتهجمه الغشوم بليون ونصف البليون من المسلمين ؟! وما العقل فى إلهاب المشاعر والاحتقانات وإثارة

الحروب الضارية العمياء بين أبناء الأديان ؟! ماذا لو تمنطق المسلمون كما تمنطقت ملكة الإنجليز ، ومنحوا وسام أو لقب فارس لمن يشن حملة - مثلاً ! - على العهد القديم يكشف ما به من عنصرية وتعديات صريحة على الإنسانية ومخالفات جسيمة في الخطاب والتعاليم لا تتفق بأى حال من الأحوال مع الرسائل السماوية ؟! ماذا لو تخير المسلمون إرهابيا فأسبغوا عليه فروسية متطوعة لا تنتمى إلى عالم الواقع أو دنيا العقل التى يلتزم بها العقلاء ؟!

ربما كان من الممكن فهم - ولا أقول قبول - هذا الجنوح البريطانى، لو كان هذا السلمان رشدى عبقرية فذة سبقت زمانها وفاقته السابقين والمعاصرين بنبوغ لافقت أدهش القصر الملكى وأذهب لبه ولب الحكومة ودفعهما دفعا لا حيلة لهما فيه سوى إشهار الإقرار بهذه العبقرية الفذة والعطاء المجيد، بيد أن الواقع صافع يقول إن الرجل من مغمورى العطاء محدودى الفكر عديمى الموهبة، وأن كل بضاعته التى جرى بها ذكره، هى التطاول الجهول الغشوم على الإسلام، ومعاداة أمته، بحيث بدا أن المقصد الوحيد للإنعام البريطانى هو إغاضة المسلمين والتحرش بهم واستفزازهم.. فهل هذا " الاستفزاز " مرام مقصود لدفع المسلمين إلى ردود أفعال غاضبة لاستغلالها فى الترويج ضدهم بأن العنف طبيعتهم ! حتى هذه الحيلة، إن كانت هى الدافع، حيلة خائبة، لأن الغضب للدين قاسم مشترك بين جميع أبناء الأديان بلا استثناء، وليس من ثم حجة على المسلمين أن يغضبوا للغو فى دينهم والإساءة إليه والتطاول عليه ! فإذا كانت وراء الإنعام اعتبارات سياسية، فإنها صدرت ولا شك عن رؤية قاصرة لم تحسن فهم التداعيات السلبية المؤكدة لهذا التصرف الذى بدا شذوذاً عن كل

مألوف واصطناعاً لأسباب الاحتقان وتعكير العلاقة بين المسلمين وبسبب
الغرب بعامة والإنجليز بخاصة !

ما هي مصالح بريطانيا العظمى، التي يجب أن تحكم التصرفات
الملكية والقرارات الحكومية، من وراء منح هذا الوسام الديكور ؟!.. هل
صار سلمان رشدى فارساً فى الحق والحقيقة بمنحه هذا الوسام.. الفروسية
التي ينتمى إليها الفارس مجموعة قيم وخصال وقدرات ومعطيات، لا
مجرد إسباغ نعم أو أوصاف بلا مضمون.. قد يمكن أن يوجد فارس بلا
جواد، لأن الفروسية منظومة رفيعة يستطيع أن يدركها الفارس حتى لو
كان مترجلاً على قدمين، ولكن لم يوجد فارس قط، حتى ولو اعتلى صهوة
حصان أو حمار، لا يملك نخوة الفارس ومقومات وخصال وصفات
وعطاء الفروسية !

ما العائد على بريطانيا من هذا التحرش الذى لا يستند إلى أى معنى
تقره الأفهام، وهل جعلت الإنعامات الملكية لاقتعال أسباب للعداء والتخاصم
والتعارك بين الشعوب، ناهيك عن أبناء الأديان ؟! إن ما لازم قرار المنح
الضرير - من تجريد مبصر للرئيس الزيمبابوى "موجابى" من لقب فارس
السابق إسباغه عليه عام ١٩٩٤، دليل قائم أمام الملكة وحكومتها على
أخطاء وعمى أمثال هذه القرارات بما يوجب التأنى والتمعن فيها وفى
مقوماتها، ناهيك عما يمكن - كالحادث ! - أن تثيره من ردود أفعال ظنى
أن الإنسانية فى غنى عنها !

يخطئ المسلمون خطأ كبيراً لو أعطوا أى اهتمام لهذا الوسام السديكور
أو التفتوا إليه.. فلا المانحة فارسة تقبل شهادتها على الفروسية، ولا
المسبغ عليه فارس أو يمكن أن يكون فارساً لمجرد أن ملكة الإنجليز

منحته وسام فارس.. الوسام ديكور لا قيمة ولا معنى ولا أثر له ما دام يخالف الواقع ولا يستند إلى حثيات.. وسلمان رشدى لم يكن فارساً حزين تهجم فى " آياته الشيطانية " على الإسلام، ولن يكون فارساً بالديكور الذى لا يجاوزه الوسام.. ومآل ما كتبه إلى مزبلة التاريخ، فلا هو قدم عملاً فكرياً موضوعياً قيماً، ولا هو صنع عملاً أدبياً رفيعاً يحسب له. ما فعله هذا الرجل محض تهاويم ضريرة وتهجم أعمى أرضى وأعجب فقط من يكرهون الإسلام والمسلمين !

المستفيد الوحيد من أى احتفانات أو ردود أفعال غاضبة، سوف يكون ذات سلمان رشدى الذى لم تكن له أى قيمة، ولا كان له ذكر، إلا بالفتوى الخومنية الإيرانية وردود الفعل الإسلامية على " آياته الشيطانية ".. فهى عمل غث، لا أدب فيه ولا فكر به، ولم يلفت الأنظار إليه وإلى كاتبه، إلا ردود أفعالنا.. لا زلت آمل أن نتعلم من دروس الماضى، أن نهمل الوسام ومانحته والممنوح له، وألاً نغيرهم أدنى اهتمام، ففى هذا الإهمال مقتل الحدوتة كلها !!

الوسام الممنوح بلا حثيات، لغو فى لغو.. واللغو لا معنى له ولا قيمة، وكم من تفاهات وأضغاث مرت مر السحاب، فلا أمطرت، ولا أظلت، ولا التفت إليها أحد.. ليس التجاهل موقفاً أو تصرفاً سلبياً، فمردوداته كلها إيجابية، تعلم أطراف اللعبة، وتعلم العالم، أنه لا قيمة لما لا قيمة فيه، وأن المسلمين لديهم من إيمانهم وثقتهم فى دينهم وعقيدتهم ما يحذوهم لتجاهل الصغار والصغائر.. التجاهل مقبرة حقيقية فى مثل هذه الأحوال !

الظاهرة الصوتية وثقافة الهدير ! (*)

هذا العنوان محض تعبير مجازى عما انتشر وتفشى حتى صار ظاهرة وطبعاً ملأ حياتنا صخباً وضجيجاً وضوضاءً وصياحاً وهتافاً وهياجاً وإهاجةً وثورةً وإثارةً واستثارةً وانفعالاً واصطناعاً وانفلاتاً وتشويشاً وتهويشاً ومصادرةً وعتناً وإرهاباً.. حل هذا الهدير محل العقل والحكمة والروية والفكر والتأمل والفعل والمعنى والهدف والغاية، وصار صخب الهدير متصلاً فى حياتنا اتصالاً يطارد العاقلين الباحثين عن حكمة الفكر وتأمل النظر الهادئ وقيمة المعنى وبصيرة الفؤاد ونفاذ الرؤية واعتدال العاطفة وسواء الفهم وسلامة النية والضمير !

ثقافة الهدير ظاهرة صوتية، تحل فيها الحناجر محل العقول.. والانصراف إلى الحجرة وما تخرجه قد لا يكون به بأس إذا عنيت الحجرة بالصلة الواجبة بينها وبين معطيات العقل، ولكن تأتى الطامة حين تنفصم الحناجر من جميع المعطيات إلا ما تقذف به من إخراج.. هذا الإخراج مادام مفصوماً عن العقل، لا يبقى له من ألبسة التزيين وفرض النفس، إلا العلو بالطبقات الصوتية، والإكثار المزدحم من الكلمات التى تطلقها.. الطامة الأكبر حين تستخدم الحناجر كوسيلة للكتابة فتخطف لغة

القلم من العقل وتحتويها فى قاموسها القائم على الصخب والضجيج والهدير.. لا تظننى أبالغ.. لقد مر كثير من أرباب القلم بمراحل فى الكتابة أو النظم كانت الصياغة فيها أقرب إلى الخطابة، ولم يكن فى ذلك كل البأس مادام موصولا بقدر أو بآخر بمعطيات العقل والفهم.. ومع النضج والتطور ودعوات كثيرة واعية كدعوة يحيى حقى ومحمد مندور وغيرهما إلى الالتفات إلى جرس العين وعدم الانحصر فى جرس الأذن - توارت شيئاً فشيئاً لغة الخطابة من أسلوب الكتابة، وزادت شيئاً فشيئاً معطيات العقل، وكان الظن أننا تخلصنا من الآفة الصوتية فى الكتابة، ولكنها عادت للأسف لتجنى مع ثقافة الهدير جنوحاً بعيداً، حتى انفلتت معاييرها من جميع المقاييس المتفق عليها لأدب الكلمة !

مع ثقافة الهدير، احتلت الحناجر الصاخبة كل مساحة الصورة أو المشهد، فى المشاهدة وهى أكثر، وفى الكتابة أيضاً.. حسبك لترى أزمة ما صرنا إليه أن تصغى للصخب والضوضاء والهدير الذى طال للأسف كل شىء فى حياتنا.. حسبك أن تتأمل ضوضاء الشوارع، وصياح الباعة، وميكروفونات السراقات، وارتفاع الصوت، وانفلات الكلمة، وحلول الأسلوب الخطابى الزاعق محل لغة العقل والمنطق.. فى فوضى ما يكتب على السيارات.. المانشيتات المثيرة بلا موضوع أو مضمون.. هوى المبالغة والتضخيم ومصادرة الآخر بالإرهاب والتخويف.. حلول الدجل والفهولة محل الاتزان والوقار، وصخب الوعظ بالحناجر لإثارة العواطف بدلاً من مخاطبة العقول.. فوضى وافتعال المشاكل والأزمات.. توارى العقل وحلول الكلمات محل الأفعال.. ضياع المنطق واستسهال الشتم والسباب.. علو شعار : " خذوهم بالصوت ليغلبوكم " !!؟.. حتى

صار فلسفة وأسلوباً معتقناً لأصحاب الحناجر الذين يشهرون الخواء وفراغ العقل والحجة !

ثقافة الهدير لم تدع شيئاً إلا طالته، طالعت المبادئ والأسس وخطت الأوراق بين حرية الرأي والنقد، وبين التطاول والشتم والسباب والقذف والإهانة والتحقير.. ونجحت في فرض تراجع تشريعي فرغ الجزء من مضمونه.. انطلق الهدير بغير حساب، ومارس الكثيرون حرية السباب والشتم والافتراء والاختلاق، وفتح بعضهم منافذ خلفية لتلقى الرشاوى والجعول لوقف الحملات الصحيحة أو الباطلة على منطق " إبعاد عن الشر وغنى له " ..!! ضاع الوقار وتوارى، وانسحب المنطق والحجة مخافة الرذاذ والطلقات الطائشة أو المقصودة !.. وسط الهدير لم يعد أحد يبالى بالفارق الواجب بين حرية التعبير وحرية السباب والإهانة والإدعاء !.. لم يتورع الشتامون وسط ثقافة الهدير عن اختلاق الأكاذيب، بينما استباح الصغار أو أمراء التكفير - التطاول على الأزهر وعلى الكنيسة، ولم تسنج سقوف الأديان ذاتها من هذا الهدير.. يتحدث من يريد عن كتاب - لم يقرأه - عنوانه : " سقوط أو استقالة الإله "، ملئ بالازدراء للذات الإلهية والأنبياء والرسل، وجعل للرب بنتاً تناقشه وتراجعه، ومع أن مجمع البحوث الإسلامية اكتفى بإبداء الرأي فيما تضمنه، ورفع أمر جريمة ازدراء الأديان السماوية الثلاثة إلى الجهة المختصة، دون أن يكفر أحداً، إلا أن أحداً من أصحاب الهدير لم يكلف نفسه عناء قراءة ما تضمنه الكتاب الملىء بازدراء الأديان ولا ما كتبه المجمع، ومع ذلك يستبجح التطاول على علماء أجلاء أخلصوا لله والحقيقة، ويطالبون دون أن

يقرأ كتاباً في الدين، ولعله لم يقرأ القرآن المجيد، بإلغاء هذا المجمع وتسريح علمائه !!!

لم تعد هناك حصانة وسط هذا الهدير، لا لدين، ولا لقيمة، ولا لرمز، ولا لمبدأ، ولا لمنطق، ولا لعقل.. اختلط الحابل بالنابل، وصار هدير التناول طاغيا على العقل والعقلاء، وعلى المنطق والمناطقة، وعلى الألب والمتأدبين !!!

من ثقافة الهدير تمايع وانبهام وتسطح وهلامية وعدم ضبط أو تحديد معانى الكلمات، ومع تمدد واتساع ومطاطية الألفاظ - يتوارى العقل والمنطق ويغيب الفهم، وتسود لغة الصخب والضجيج ليحل باجتياحاته وتجاوزاته - محل الصدق والنظر المبني على انضباط اللغة بالتعبير وسلامة الاستقبال وإعمال العقل. من المفارقات اللافتة أن المشرع نفسه قد تراجع أمام فرط اتساع استخدام المتطفلين أو المتمسحين أو المطاريد للقب المستشار، وبدلاً من أن يلزم هؤلاء بضبط ما يتشعرون به من ألقاب أو ينتحلونه من صفات طلبا للمكانة أو خداع الناس، وبدلاً من هيبة وضبط النظام والقانون، رأينا القانون الأخير للسلطة القضائية يلغى لقب "مستشار" الذي تهرأ من استخدام كل من هب ودب، ويستخدم بدله لقب قاض بتعميم ينطبق على كافة درجات القضاة. في تراجع غير محمود لا هو أوقف هدير فوضى استخدام الألقاب والصفات بغير ضابط، ولا قدم لرجال القضاء واقعا قابلا للتطبيق يمكنهم قبوله، فظلت الأحوال - رغم القانون! - على ما هي عليه !!!

بتقافة الهدير، هجرنا أو كدنا نهجر كوميديا المواقف، وتحولنا إلى كوميديا الصخب والكلمات الهابطة والطبل والزمير الذي أدخلناه أحيانا إلى

خشبة المسرح التى لم تعد تشعر بتقاليدها إلا فى المسرح القومى والنادر جداً من المسارح الخاصة.. تستطيع أن ترى أثر ثقافة الهدير حين تقارن بين مسرحيات وأبطال الكوميديا الراحلين.. الكسار أو الريحانى أو إسماعيل ياسين أو بشارة واكيم أو حسن فائق أو القصرى أو المهندس ومدبولى وقليلين من الحاليين لحقوا بمدرستهم، وبين من طرأوا على الكوميديا بلغة وأسلوب هابط هادر ومزِر لم يسبق له مثيل !

حتى التعليق على المباريات الرياضية وخاصة كرة القدم.. يُصاب المتابعون بالحيرة حين يسمعون زعيق وصخب وتعبيرات المعلقين، وشهوة الكلام للكلام بعيداً عن المشهد المعروض.. ما إن يمسك المعلق بالميكروفون لوصف مباراة مرئية على الشاشة وفى متناول المشاهدين، إلا ويمسك بتلابيبهم.. لا يريد أن يترك لهم لحظة واحدة لمتعة المشاهدة إلا ويلحقهم بالكلام فى أى شىء إلا التعليق على المشهد المرئى.. هات يا تعالم وأستاذة وهات يا مجاملات وهات يا تنطع وتقعرو رعى فى الفاضى بدون المليان.. بعض المعلقين يدير معركة حربية حقيقية - بالكلام ! - إذا كان فريق دولته يلعب مع فريق أجنبى.. لا يكف عن الانفعال والصخب والضجيج والهتاف والمناداة على اللاعبين بل وتوجيههم ! ولكن الأغرب ما يديره بعض المعلقين من معارك تعليقا على مباريات بين دول أجنبية لا تشارك فيها دولة المعلق.. فى البطولة الأوروبية الأخيرة تعمدت أن أتتقل بين معلقينا ومعلقى دولتى المباراة، فوجدت المعلق الأجنبى صاحب المباراة لا يفارقه هدوؤه ولا رزائنه، يتكلم بحساب بلا انفعال.. بينما معلقنا الذى لا ناقة له فى المباراة ولا جمل، هائج صاخب مائج يصيح ويهتف ويحتقن ويهلل ويتحسر مع أن دوره محصور فى مساعدة

المشاهدين ببيان موجز أو شرح لعبة أو نقل ما تعجز الكاميرا عن نقله.. الأدهى أن يتخيل المعلق أنه بصراخه سيدفع الكرة نحو المرمى أو يوقف هدفاً.. صارت الشكوى عامة من هذا الهدير حتى أن كثيراً من المشاهدين يضطرون إلى إغلاق الصوت والاكتفاء بالصورة ليحموا أنفسهم من لغو وصخب وهدير المعلق !!

من ثقافة الهدير المكتوب، ما تابعت لأسابيع على صفحات إحدى الصحف الخاصة، من أفراد عناوين ضخمة، ومساحات كبيرة، وعلى الصفحة الأولى أو الصفحات الرئيسية، للإعلان عن كيان في الطريق لم يشأ صاحبه حتى أن يعلن عن اسمه، أو اسم أحد ممن معه فيه، ففى مشهد لا يخطئ الفاهم أنه إعلان عن شيء لا وجود له فى المشهد الجارى.. ومع ذلك يمضى الهدير المكتوب فى تحليلات وتعليقات لتتطوى بعد أسابيع صفحة هذه الإعلانات الهادرة، ودون أن تتوقف الصحيفة مع نفسها، أو يتوقف أحد المتابعين ليسأل سؤالاً واجباً يفرض نفسه : لماذا كانت كل هذه المساحات والتغطيات للغو لا يخطئ أحد أنه هدير ماله إلى لا شيء !

هدير عجيب غريب يؤكد غياب العقل، نرى هدير فضائيات وبعض صحف تصدر نماذج ما أنزل الله بها من سلطان، لا علم ولا ثقافة ولا تاريخ ولا قدرات ولا مكينات، ومع ذلك - لماذا نست أدرى !!؟ - تصدر إلى الناس صباح مساء، هذا للرئاسة، وهذا للوصاية على القضايا الكبرى، وهذا لتأسيس حزب !! يتوالى الكلام واللغو والهدير بلا فعل ولا ناتج، والناس من السأم تتابع من باب التسلية أو مقاومة الملل أو إزجاء وقت الفراغ، والإعلام الأحول يتصيد ما يشبع نهم الناس - بالهدير - إلى ما لا طائل منه، وتضيع وسط هذا الهدير قيم العقل وثقافة

العمل والفعل والجد وتتفرط مع هذا كله المنظومة الأخلاقية، وتعيش الأمة
واقعاً مصطنعاً غير واقعها الحقيقي !!!

الوحدة الوطنية أقوى من الأعاصير (*)

فى أوليات القرن الماضى، امتحنت الأمة المصرية امتحاناً عسيراً إثر الاغتيال المؤسف لبطرس غالى رئيس مجلس النظار فى (٢٠) فبراير ١٩١٠. ومع أنه فور القبض على القاتل صرح بدوافع جريمته، وكلهـ محصورة فى أسباب سياسية لا علاقة لها بالدين، ما بين اتفاقية السودان (١٨٩٩) ورئاسة المحكمة المخصصة فى حادثة دنشواى، وإعادة قانون المطبوعات، واعتقاده أن لبطرس غالى باشا سعيًا حثيثًا لتمرير مد امتياز شركة قناة السويس. إلا أن سلطات الاحتلال لم تترك هذه الحادثة تمر دون استغلال لضرب النسيج الوطنى، وأخذ المعتمد البريطانى يلعب على هذا الوتر لإثارة الشعور القبلى على اغتيال بطرس باشا غالى، ويدفع الأمور إلى عقد مؤتمر قبلى احتجاجى فى أسيوط، بالرغم من أن بطرس غالى نفسه كان ضد هذا المؤتمر الذى طرحت فكرته وعارضها قبل اغتياله !

وبرغم كل عوامل التأليب والتأجيح إذ بوصف بطرس غالى ابن الرئيس الراحل، يكتب إلى إسماعيل باشا أباطة خطاباً نشره في جريدة الريفورم ينسوه بجهوده لإتقاء الفرقة ويطمئنه إلى أن الوفاق تام بين العنصرين وأنه لا يحتاج إلى لجان ولا مؤتمرات، وأنه هو شخصياً قد تناسى الحملات التي وجهها بعض الكتاب إلى المرحوم والده في بعض الصحف اقتناعاً منه بأنها لا تعبر عن عقلاء الأمة، وذكر واصف بطرس في رسالته قالة الخديو وشيخ الأزهر له عن الأعمال الطيبة لمصر والتي سجلها التاريخ للمرحوم والده بطرس باشا غالى، واستطاعت الجماعة الوطنية بحكمة هؤلاء الحكماء أن تحتوى انفلاتات مؤتمري أسيوط ومصر الجديدة (مارس وأبريل ١٩١١)، أن تعبر الأزمة بسلام حفظ لها وحدة ومثانة نسيجها.

من المفارقات أن تمضى سنوات قبل أن يكشف أحمد شفيق باشا الستار في مذكراته عن موقف وطنى جري من وراء الكواليس بين بطرس غالى وسعد زغلول، اقتضت المصلحة العليا للبلاد أن يتوارى وراء مشهد ظاهرى بدا فيه الوزير سعد زغلول فى صورة المدافع - مع الحكومة - عن قبول عرض مد امتياز شركة قناة السويس الذى كان أحد أسباب الاغتيال المؤسف، بينما كان ذلك كله ستراف لاتفاق تم بسعى من سعد زغلول وآخرين وقبول من بطرس غالى رئيس النظار، بعرض المشروع على الجمعية العمومية المقدر سلفاً أنها بالتأكيد سوف ترفضه، بينما يبدو الوزير سعد زغلول مدافعاً (فى الظاهر) عن المشروع المتفق سراً على رفضه ! وعلى أن يتولى سعد زغلول إبداء وجهة نظر الحكومة للتمويه،

وحتى يمكن إدخال فكرة استشارة الجمعية العمومية على المعتمد البريطاني
الذى التقط الطعم !

تضاعيف هذا الموقف يجب أن تروى، لأنه مثال على إنكار الذات فى
سبيل المصلحة العامة مهما بدا سعد زغلول فارس الوطنية فى صورة
ظاهرية لايرضاها ولايرضاها الشعب!

قبل سعد زغلول بالاتفاق مع بطرس غالى أن يترك " المظهر " - إلى
" المخبر " .. وأن يظهر - شكلا - فى مشهد بدا فيه نقيض ما تريده الأمة
ليحقق للأمة ما تريده.. عاش معى لسنوات أن سعد زغلول المشهور
بقدرته الفذة على الاقتراب من الجماهير والرأى العام، قد خالف إجماع
طوائف الأمة حين انحاز إلى مدّ امتياز شركة قناة السويس، وتبنى عرض
هذا النظر - كوزير ممثل للحكومة - أمام الجمعية العمومية !!.. ظلت معى
هذه الصورة لسنوات إلى أن أخذتلى الكتابة فى " رسالة المحاماة " إلى
مذكرات أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى لسنوات طويلة، كان فيها
فى قلب الأحداث التى سجلها فى مذكراته التفصيلية التى شغلت أربعة
مجلدات.. ربما لاحظ القارئ لمذكرات شفيق باشا أن هواه لم يكن مع سعد
زغلول، وربما لاحظ غمراً عليه فى بعض الأحيان، ومن هنا تأتى قيمة
شهادته التى وقعت عليها بالصدفة وأنا أفتش عن دور المحاماة فى الحركة
الوطنية فصحت خطأ لازمنى لسنوات، وكشفت صورة رائعة مناقضة
لآفة الاستعراض بلغت حد قبول سعد زغلول بتضحية ظاهرها يسحب من
صورة الزعيم فى عيون وأذهان الناس !

كان الظن على ما شاع، أن سعد باشا كان هو ورئيس النظار بطرس
غالى من المشايخين لمشروع مد الامتياز، مادام سعد هو الذى تولى عرض

وجهة نظر الحكومة المصرية المؤيدة للمشروع على الجمعية العمومية، إلى أن كشفت مذكرات شفيق باشا أن سعد زغلول ورشدى باشا ومحمد سعيد باشا كانوا معارضين للمشروع، وأنهم حينما تحدثوا بذلك مع بطرس باشا غالى رئيس النظار، نبئت فكرة عرض المشروع على الجمعية العمومية - ورفضها له مقطوع به - للتخلص من ضغط سلطات الاحتلال على الحكومة لتمرير مد الامتياز.

ويروى أحمد شفيق باشا (ج ٣ / ١٨٧، ٢٠٧) أن بطرس باشا غالى رئيس النظار اقتنع بالفكرة، وأنه نجح فى إقناع المعتمد البريطانى بضرورة استشارة الجمعية العمومية ليكون رأيها هو الفيصل. ومن هنا نبعت فكرة أن يكون سعد باشا زغلول بمكانته، هو الوزير الذى يتولى عرض وجهة نظر الحكومة المشايعة للمشروع على الجمعية العمومية ! تنفيذ هذا المشهد يسحب من رصيد سعد زغلول لدى الأمة التى كانت ترفض هذا المشروع على قلب رجل واحد، ولكنه يضيف إلى رصيد الوطن، ويحقق الرغبة الوطنية باللجوء إلى الجمعية العمومية التى كان مقطوعاً سلفاً بحكم تشكيلها أنها سوف ترفض المشروع - وقد كان !

إن !

لم يكن رأى الحكومة الذى أبداه سعد زغلول بجلسة الجمعية العمومية ٧ فبراير ١٩١٠ قبيل اغتيال بطرس باشا غالى بأيام، هو واقع رأيه وموقفه وموقف الحكومة ورئيسها من المشروع، وإنما هو موقف (ظاهرى) يسحب من رصيد سعد زغلول أمام الأمة ليحقق لها وللوطن ما تريده ! هذا الموقف الفريد يستحضر صور أمراض المظهرية

والاستعراض التي تعطي ظهرها للواقع الحقيقي الفاعل، وتستقرب
رضاءات مخدوعة !

باقي القصة أن المشروع عرض على الجمعية العمومية التي تحدد
لاجتماعها ٩ فبراير ١٩١٠ وفيه رفضت بالإجماع - عدا واحد -
مشروع مد الامتياز !

* * *

هل وصلت الجماعة الوطنية، بمسلميها ومسيحييها، الحاضر
المعاش بالماضي البديع الذي كان ؟! حضرني هذا السؤال وأنا أسترجع
هذه المشاهد وأتابع الحركة الوطنية إبان ثورة ١٩١٩.. في أعقاب بلاغ
دار الحماية البريطانية عن قدوم لجنة ملنر ومهمتها، اندلعت مظاهرات
الاحتجاج الوطنية، حتى اضطر محمد سعيد باشا رئيس الوزراء المسلم.
والمقرب آنذاك من السراي، إلى تقديم استقالته إلى السلطان في ١٥ نوفمبر
١٩١٩ انصياعاً للمد الوطني الذي استشعر معه أنه لم يعد يوجد محل
لتهدة الخواطر التي كانت دافع السراي لتكليفه برئاسة الوزارة !

في تلك الأيام بالغة الحساسية في تاريخ الحركة الوطنية في مصر،
شاعت مقدمات أن القبطي الكبير يوسف وهبة باشا، بسبيله إلى قبول
تشكيل الوزارة الجديدة البديلة، وترددت أسماء الوزراء المزمع حمل
حقائبها معه، وجميعهم فيما عداه من المسلمين، حتى ضجت البلاد بسخط
عام شاركت فيه كل طوائف الأمة، بيد أن الأقباط سارعوا إلى خطوة أكثر
إيجابية في التعبير عن استيائهم من رئيس الوزراء القبطي القادم.. فأقاموا

اجتماعاً صباح الجمعة ٢١ نوفمبر ١٩١٩ فى الكنيسة المرقسية الكبرى، برئاسة القمص باسيلوس وكيل البطريركية، وأعلنوا فيه سخطهم على قبول وهبة باشا تشكيل الوزارة التى لم يكن مرسوم تأليفها قد صدر بعد، وخطب فى هذا الاجتماع القبطى الحاشد بالكنيسة المصرية : القمص سلامة منصور رئيس المجلس العلى بالقاهرة، والأستاذ توفيق حبيب، والأستاذ لويس فانوس، والقمص مرقس سرجيوس، وكامل أفندى جرجس عبد الشهيد بالنيابة عن الطلبة، وبادر الحاضرون بصياغة برقية احتجاج ومعارضة إلى يوسف وهبة باشا، وقعها بالنيابة عنهم القمص باسيلوس، قالوا فيها :

" الطائفة القبطية المجتمع منها ما يربو على الألفين فى الكنيسة الكبرى تحتج بشدة على إشاعة قبولكم الوزارة.. إذ هو قبول للحماية ولمناقشة لجنة ملنر، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الأمة المصرية من طلب الاستقلال التام، ومقاطعة اللجنة، فنستحلفكم بالوطن المقدس وبذكرى أجدادنا العظام - أن تمتنعوا عن قبول هذا المنصب الشائن " !!

أين هذا مما بات عليه الحال اليوم من احتقان وتمحور البعض من المسلمين والأقباط وغلبة التعصب والانحياز الضرير عليهم، وأين هذا من استقواء البعض بمن لا يضمرون خيراً للأمة المصرية ؟! ماهى التلال التى زحفت فصارت جبلاً حجبت عنا جميعاً هذه الصورة الوضاءة التى عاش عليها النسيج الوطنى وحارب بها قضاياء واطر صفحات اختلطت فيها دماء القبط بدماء المسلمين مثلاً حدث فى معركة تحرير الوطن المقدسة التى جرت فى أكتوبر ١٩٧٣ ؟!

لا زلت آمل فى استجابة جميع الأطراف إلى دعوتى القديمة الجديدة
المتجددة (أهرام ٢٧/٤/٢٠٠٦)، إلى تشكيل آلية قبطية مسلمة، بعيداً عن
الرسميات وقيودها، وفى باحة الفهم والتسامح، لتبحث فى الغرف المغلقة،
بعيداً عن الإثارة والاحتقان، الأسباب التى طرأت على الجماعة الوطنية،
وتستقصى فى تجرد وإسماح سبل حلها، لتحفظ للوطن وحدة نسيجه كما
تحفظ قداسة نرابه ونيله !

الوحدة الوطنية من تانى ! (*)

رعاية " الآلية " التى اقترحت تشكيلها للعناية بالوحدة الوطنية، وكنت قد فصلت الحديث عنها فى أهرام ٢٧/٤/٢٠٠٦ - رعاية موصولة حاضرة ومستمرة، لا تنتظر وقوع طارئ أو حادثشة ملتبسة أو شاردة أو مقصودة لتعالجها بالقطاعى، وإنما " آلية " دائمة ترعى النسيج الوطنى رعاية متيقظة ومستمرة.. علاج الحادثات المتفرقة محصور فى الغالب بضغط ظروف كل حادثة وحدوده المحلية والنوعية والوقتية، ولا تتاح له - بضغط الظروف ورغبة الإسراع بتطبيب الاحتقان - فرصة التوسع للتأمل فى الحالة العامة وما يصب فيها سلباً أو إيجاباً، وفى الأسباب الكامنة أو الظاهرة التى تسرع إلى سوء الفهم أو الظن وإلى الاحتقان.. احتقان الحادثة ليس ناجماً فقط عن التباس طارئ، وإنما يرجع فى الغالب إلى حالة كامنة مستترة لسوء الظن. هذه الحالة هى التى من واجب ومكنات " الآلية " المقترحة أن تهتم بها وأن تراعيها دائماً رعاية موصولة لا تنتظر وإنما تبادر إلى دراسة شاملة للجذور والأسباب والدوافع البعيدة والقريبة، واستكناه التراكيمات الراقدة فى الأعماق، والتعرف على الخبيء المتوارى

قبل الظاهر المتبدى، والتيقظ إلى الحالة النفسية وما يصب فيها من روافد بعضها يرجع إلى تراجع العقل والفكر والثقافة وضيق الأفق والتعصب، وبعضها يعزى إلى قضايا معلقة لم تحل أو لم تعالج بالقدر الكافى !

منطق " العلاج القطاعى " الذى درجنا عليه لإطفاء الحادثات المتفرقة تباعدت أو تقاربت، يفوت النظر الهادئ الشامل، ويحرم من رعاية الحالة العامة فى المساحات الزمنية - طالت أم قصرت - بين الحادثة والأخرى.. هذه المساحات الزمنية ليست " أجازة " للراحة، وإنما فيها الفرصة للتأمل والنظر دون ضغوط وقتية لمعرفة وفهم الأسباب العامة ومداومتها بما تحتاجه وتستوجبه. بدون هذه الآلية الدائمة المقترحة، نترك الأمور للطف المقادير، أو لاجتهادات وجهود فردية لا تكفى مهما أخلصت لموالة النسيج الوطنى بالرعاية !

نعم. هناك هم كبير فى السالف والحاضر، خرجت وتخرج من المجتمع الرسمى والشعبى، حاضرة التيقظ للنسيج الوطنى، ملتفتة على الدوام لمقتضيات المحافظة عليه وتخصيب مقوماته ودرء أى عوامل يمكن أن تنحر فيه بالقصد أو بغير القصد.. ومع ذلك تبقى هذه " الآلية " المقترحة، لازمة لتعويض أو مساندة الهمم الفردية، بن والقيام بواجب أشمل وأعرض من خلال تشكيلها القبطى الإسلامى، وأدواتها وقنوات العلاج والتأثير التى تتاح لها..

بغير هذا التيقظ المستمر، يتعرض النسيج الوطنى لعوامل نحر مرئية وغير مرئية.. رأيت وأنا أقلب فى صفحات الحركة الوطنية موقفاً منتورا متيقظاً للزعيم الكبير مصطفى النحاس. كان الملك لدى بلوغه - عام ١٩٣٧ - السن المطلوبة لولاية العرش طبقاً للتقويم الهجرى، قد راقه

اقتراح الوصى على العرش الأمير محمد على توفيق - أن يجرى التتويج
فى احتفال دينى يقام فى القلعة ويحضره الأمراء والكبار، ويقوم فيه فضيلة
الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف بتسليم الملك سيف جده محمد على باشا
!

برغم حساسية الموضوع، والرغبة الملكية المبداء، اعترض مصطفى
النحاس بشدة على هذا التتويج الدينى، حالة كون الملك ملكاً لكل المصريين
مسلمين ومسيحيين، وتمسك النحاس باشا بأن يجرى التتويج حسب الدستور
بالبرلمان أمام الهيئة المشتركة لمجلسى الشيوخ والنواب. تبنت الصحافة
هذا النظر، وداومت الكتابة عنه، وكتب عبد الرحمن الرافعى رغم الخلاف
بين الحزب الوطنى وحزب الوفد، كتب فى مؤلفه : "فى أعقاب الثورة
المصرية" (ثورة ١٩١٩) - أن ما رآه النحاس هو بالفعل الذى يتفق
وأحكام الدستور وما نصت عليه المادة (٥٠) من دستور (١٩٢٣) ..
روى محمد التابعى فى كتابه " من أسرار الساسة والسياسة " أن مصطفى
النحاس خرج متجهماً مقطب الجبين من لقائه مع الملك، فسأله : خير يا
رفعة الباشا ؟ فأجابه النحاس : " لا .. مش خير أبداً .. أبداً " .. كان ذلك
تعبيراً على الرغبة الملكية فى الاحتفال الدينى بالتتويج. وفى خطابه أمام
مجلس النواب، قال النحاس : " إن ذلك إقحام للدين فيما ليس من شأنه،
وإيجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية " .. " الإسلام لا يعرف
سلطة روحية، وليس بعد الرسل وساطة بين الله وعباده، وليس أحرص
منى ولا من الحكومة التى أشرف برئاستها على احترام الإسلام، وتنزيهه
الإسلام، كما أنه ليس أحرص منا - أيضاً - على احترام الدستور " ..

فارق كبير بين أن ترعى الشجرة، وتواليها بالرى والتخصيب ومقاومة الآفات أولاً بأول، وبين أن تنصرف عنها فلا يوقظك إلا ذبولها لتسارع بملاحقتها بما فاتك أن ترعاها به. وقد تنجح أو لا تنجح !

توجد لدينا وزارات وآليات للخارجية والداخلية والعدل والتعليم والرى والزراعة والصناعة والتعدين والحربية والثقافة والإعلام والإسكان والمرافق والعمال والهجرة (أحيانا) والشئون الاجتماعية والصحة وشئون البيئة، وللمجالس القومية المتخصصة، وللمرأة والطفولة والأمومة والرياضة والشباب وحقوق الإنسان، ولكن لا توجد ' آلية ' مخصصة ومتفرغة لرعاية الجماعة الوطنية، مع أن رعايتها أوجب الواجبات لوحدة وأمان النسيج الوطنى قاعدة الأساس لهذا كله !

الآلية التى أعنيها، كيان يضم زبدة العقول وصفوة الحكماء والمفكرين من المسلمين والأقباط، متفرغة للنسيج الوطنى ومقتضيات رعاية الجماعة الوطنية، مالكة بجوار العقل والتيفظ - لكافة القدرات والإمكانات للقيام بدورها، ومفتوح أمامها الوسائل والجسور المؤثرة على كافة أطراف الجماعة الوطنية.

فى الغرف المغلقة بعيدا عن الاحتقان والمحققين، وبنظام الدائرة المستديرة، سوف يتاح لهذه الآلية أن تفتش وتبحث فى جميع القضايا بلا حساسيات. لا ينحصر بحثها فى واقعة احتقان وقتية، وإنما يحلق ليستطلع الأسباب العامة.. قضية دور العبادة التى تحتاج إلى مناقشة عريضة صريحة تضع كل شىء فى موضعه، وتفرق فى وضوح صريح بين " الحاجة " وبين " الاستعراض " .. فى مساواة حقيقية تتيح للمسئم والمسيحي مكانا للصلاة والعبادة، ولا تسمح بأى عراقيل أيا كانت أمم

الصيانة والإصلاح، وتعالج قضية الوظائف وما يلتبس بها - أحيانا - من حساسيات، كما تعالج قضية استسهال البعض الاستقواء بالخارج وما تثيره من ردود أفعال وسوء ظنون تؤدي إلى كثير من الالتباس والاحتقان، وتنتظر في صراحة في حدود الديني والسياسي، وما يتعلق بذلك حول دور الأزهر والكنيسة، وقضية الخطاب الديني وحدود ما يجب التوقف عنده في ظل تسليم مشترك بحق كل مسلم أو قبطي في الإيمان بعقيدته دون التعرض بالتجريح لعقيدة الآخر. قضية التعليم وحق صاحب كل عقيدة في أن يتلقى - بحصة الدين - دروس عقيدته لا عقيدة سواه.. وحدود المدارس الأجنبية التي يغضى معظمها عن الإسلام ويتجاهله في حصة الدين. المعالجات الأمنية وما تثيره أحيانا من مظنة أو التباس، الانتقال بين الأديان والتفرقة بين حرية العقيدة وبين افتعال المواقف للترويج أو الإثارة. المعالجات الصحفية والإعلامية وحدود المباح في إطار حرية الرأي والنقد والتعبير، دون إغفال لمقتضيات حماية النسيج الوطني والأمن القومي.. إلى غير ذلك من القضايا واجبة الطرح بداخل هذه " الآلية " بين حكماء يملكون العقل والبصيرة والرؤية العميقة العريضة الشاملة..

كان ظني كما قلت - ولا يزال، أننا نحتاج احتياج ضرورة ولزوم، إلى هذه " الآلية "، ونحتاج إلى دورها الدائم المتصل، وإلى قدرتها على التواصل الفاعل المؤثر مع كافة القنوات والجهات. المعنية بالشأن الوطني : الأزهر والأوقاف والكنيسة والتربية والتعليم والثقافة وكذا الإعلام المرئي والمسموع والمقروء. فهناك من الصحف ما تعطي معالجاته صورة مخيفة مؤثرة بالسلب على الجماعة الوطنية ومصير الوطن، مما يستوجب وقفة

مصارحة تبيين الحدود والمعالم بين المباح والمحظور وتحفظ للنسيج
الوطني سلامته وللوطن أمانه من الآثار المدمرة لبعض المعالجات
المغلوطة الشاردة !

مهم جدا أن نخرج من زقاق المعالجة القطاعي، إلى باحة الرؤية
الشاملة والرعاية الموصولة، وأن نسارع بتشكيل هذه " الآلية " .. بمبادرة
رسمية أو شعبية أو رسمية شعبية، تنهض بهذا الواجب الكبير الذي
لا غناء عنه لحفظ سلامة ووحدة النسيج الوطني الذي عاشت به مصر
على طول التاريخ !

حمار السعدنى

بين حمار الحكيم وحمير يحيى حقى ! (*)

تراودنى من سنوات فكرة الكتابة عن ظاهرة حضور الحيوان فى كتابات الشرق والغرب.. فى التصانيف الأدبية وأشعار الشعراء، وفى كتابات القدامى والمحدثين.. بعضها اهتم بالقصص الدينى المبهر عن عجائب الحيوان والطير وأقاصيص وأحاديث النمل مع سليمان الذى علمه الله منطق الطير، أو الهدهد الذى تفقده وقال مالى لا أراه أم كان من الغائبين، وكيف أتاه من سبأ نبيا يقين، وكيف امتحنه سليمان وأرسل إليهم بكتاب كريم.. وبعض الكتابات استخدم الحيوان والطير للرمز أو للتشويق، أو للمداعبة والتلطيف، أو لتمرير ما لا يمكن أن يمر فى فترات الاختناق والعسف والتضييق.. من أقدم الكتابات " كليلة ودمنه " الذى ترجمه ابن المقفع (٧٢٤ - ٧٥٩) من أكثر من ألف سنة عن بيدبا الفيلسوف الهندى، وشاع وذاع وطبعت منه مئات الطبوعات بلغات الأرض.. فى تقدمته التى سطرها " بهنود بن سحوان " المعروف بعلى بن

الشاه الفارسي، ذكر لماذا صنف " بيدبا " كتابه لدبشليم الملك على هذا النحو : " فجعله على ألسن البهائم والطيور صيانة لغرضه فيه من العوام، وضناً بما ضمنه عن الطعام (الأراذل)، وتنزيهاً للحكمة وفنونها ومحاسنها وعيونها .. جعله بيدبا على هذه الشاكلة ليكون " ظاهره لهوا للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة .. باطنه وظاهره كرسم سائر الكتب التي يرسم الحكمة : فصار الحيوان لهوا، وما ينطق به حكمة وأدبا " ..! يشتمل على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة، ويتغنياً في النهاية كشف كوامن الأشياء التي لا يراها العقل إلا بقادح له من الأدب والتجربة !

ولعل مولد الكاتب الإنجليزي الساخر " إريك بلبير " الذي اشتهر باسم " جورج أورويل " في الهند، هو الذي ألهمه كتابه الشهير " مزرعة الحيوانات " Animal Farm .. في هذه الرواية التي أدارها على لسان الحيوانات، وظهرت سنة ١٩٤٦ وترجمت للعربية، طفق الكاتب يعبر رغم ميوله اليسارية المتطرفة عن خشيته على الحرية الفردية من تسلط السلطات الحاكمة عليها ..!

إغراء الكتابة بلسان الحيوان جذب العقاد فكتب " مجمع الأحياء "، الذي أدار فيه البحث عن حقيقة الوجود وطبيعة القوى المسخرة له، وأجرى الحديث فيه على لسان الحياة والحيوانات.. اليمامة والثعلب والقرد والأسد.. بينما اختار طه حسين عنوان : " الثعبان " ليكتب عن طائفة من الناس، وعنوان : " حديث الأوز " لإيراد طرفة لجحا تمهد لحديثه عن مريدى نشر التعليم دون أن يهيئوا له ما يلزمه من استعدادات !

على أن " الحمار " من دون كل الحيوانات، يجيء على رأس قائمة المرويات والأقاصيص، وأيضاً في باب الاستعارات والكنيات.. جاء ذكر " الحمار " في ستة مواضع بآيات القرآن الحكيم.. أشهرها تشبيه حاملين للعقائد بغير فهم بأنهم : " كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا "، أو تشبيه المعرضين عناداً عن التذكر : " كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ " .. أو في تقرير المختالين افتخاراً بقعقات فارغة : " وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ " !.

جاء الحمار في الموروثات الشعبية والأمثال العامية، رمزا للغباء أو العناد أو الاستسلام لقاهرات المقادير.. " غلب حمارى " تعبيراً عن فراغ الوفاض !.. " زى الحمار ما يجيش إلا بالنخس " مثلاً لمن لا يطيع إلا بالشدة والوخز !.. " زى الحمار يحب يشيل التلّاليس " تعبيراً عن أثر الاعتیاد فى تحمل ما لا يطاق !.. " زى حمير التراسة يتلكك على قولة هس " لضرب المثل عن يلتمس المعاذير للتوقف عن العمل !.. " زى حمير العنب تشيله ولا تدوقه " تعبيراً عن يُسخرُ فيما لا يعود عليه بأى نفع !.. " زى حمير الغجر ينهقوا وهم نايمين على جنبهم " .. لضرب المثل على الاقتصار على الجلبة والصخب دون حركة ولا عمل !!

وأشهر أدبائنا فى اتخاذ الحمار مادة للدراسة، أو سبيلاً للاستعارة والكناية : يحيى حقى وتوفيق الحكيم.. لحق بهما كاتبنا الساخر المبدع محمود السعدنى.

حمار الحكيم !

باكورة استخدام الحكيم للحمار عنواناً واستعارة، كانت في مقالات " حمارى قال لى .." أول نشرها كان عام (١٩٣٨)، وزادت فى الطبعات التالية، ثم كتب " حمار الحكيم " فى شكل رواية أو لوحة (١٩٤٠)، وصدرت فى إحدى الطبعات بعنوان " حمارى الفيلسوف ' (١٩٧٥).. إلى هذا " الحمار " يهدى الحكيم روايته عنه فيقول : " إلى صديقى الذى ولد ومات وما كلمنى لكنه.. علمنى ! .. تبدو الاستعارة فى الكتاب من باب الفلفل والبهارات، أو من عناصر التشويق والجذب.. فى تصدير اللوحة - نقلاً عن أسطورة قديمة - يتساءل حمار الحكيم ' توما " : " متى ينصف الزمان فأركب، فأنا جاهل بسيط، أما صاحبى فجاهل مركب " ؟!.. فقل له : " وما الفرق بين الجاهل البسيط والجاهل المركب ؟ " . فقال : " الجاهل البسيط هو من يعلم أنه جاهل، أما الجاهل المركب فهو من يجهل أنه يجهل " !

للوحة تدور حول " الجحش " الصغير الذى تورط توفير الحكيم فى شرائه بثلاثين قرشا من قروى كان يسحبه على الإفرير بجوار جروبي، أوقعه فى الصفقة السمسار بائع الصحف الذى قسره على الشراء، فلم يجد مفرًا عن اصطحاب " الجحش " إلى اللوكاندة التى ينزل فيها.. من أول مشهد تتضح غاية الحكيم من حماره فى الإسقاط على ما يريد !.. فى رحلة ممتعة مع الحمار مليئة بالإسقاطات والمقارنات، يقارن الحكيم بين مشهد الجحش الذى عاف اللبن وانصرف عن غادة هيفاء إلى مرآة فى الغرفة جعل يتأمل فيها نفسه، فى مقارنة ساخرة يشير الحكيم إلى ما فعله بحياته.. يقول : " أنا كذلك، انصرفت منذ عهود الصبا عن مباحج الحياة

التي تغرى الشبان والفتيات إلى تلك المرأة التي أرى فيها نفسى " !.. ولكننا لا نرى الحكيم يتأمل فيها كتأمل " نرسيس " المزهو بصورته فى المياه فى الأسطورة الإغريقية، بل يبحر فى تأملاته إبحار الغواص الباحث عن جوهر الحقيقة. الحمار يودى فى اللوحة التى رسمها الحكيم دور الفيلسوف الملهم، حتى إذا أتاه نعيه فى الختام، طفق يقول كالمخاطب نفسه : " لقد استطاع هذا الفيلسوف الصغير أن يبلغ قمة " الصفاء .. تلك القمة التى طمع " جوته " فى أن يبلغها يوماً.. استطاع هذا الصديق أن يرى الحياة والموت من ثقب واحد، وأن يرى الكائنات المتحركة والجامدة من عين واحدة. إن هذا الشيء الحقير الذى سميناه جحشا - هو فى نظر " الحقيقة العليا " مخلوق يثير الاحترام.. فى حين أن كثيراً ممن سميناهم زعماء وعظماء فركبوه، ولم يبصروا الغرور وهو يركب رؤوسهم، هم فى نظر الحقيقة العليا مخلوقات تثير السخرية ! نعم كنت أشعر شعوراً غامضاً أن حبى لهذا الجحش هو حب مقترن بشئ آخر غير العطف والإشفاق.. إنه التقدير والتبجيل.. أحمد الله أنه مات قبل أن يُركب " !

استعارة " الحمار " وإناطته بأدوار وحوارات، وبمشاهد ومواقف، ظاهرة حاضرة فى كتابات توفيق الحكيم.. مع السنين أضاف مقالات ولوحات إلى كتابه : " حمارى قال لى "، وأعاد نشرها فى كتابه : " حمارى وعصاى والآخرى " . - وعاود استعارة الحمار فى قوالب مسرحية فى فصول مسرحيته " الحمير " ..

فى كتابه : " حمارى قال لى "، مجموعة مقالات أو لوحات يدبر فيها الحكيم عدة حوارات.. " حمارى والطوفان "، حمارى وهتلر، حمارى

وموسولينى، حمارى ومؤتمر الصلح، حمارى والسياسة، حمارى والقاضية، حمارى وحزب النساء، حمارى وعداوة المرأة، حمارى والنفاق.. يدرك المتأمل أن الحكيم جاد غير هازل فيما يورده من حوارات أو إسقاطات فى هذه المقالات، ولكنه لا يدع القارئ للتخبط، فيصدر الكتاب بحديث لرسول القرآن أنه عليه السلام قال : " إبنى لأمزح ولا أقول إلا حقا .." فى حوار " حمارى والطوفان " جعل الحكمة التى عزت على الإنسان تأتى على لسان الحمار.. لم تغلح أفضل العناصر التى اختيرت لسفينة نوح فى إصلاح ما غلب ويغلب على الآدميين من شر !.. فهل كان لابد لإيقاظهم من " طوفان " آخر من نوع جديد تمثل فى الحرب العالمية التى ركب فيها من انتصر على من هلك أو هزم، فهل صلحت بعدها حال البشرية ؟! لم تنقذ الدماء التى سالت - الإنسان من غروره وكبريائه وحماقاته ! الحكاية إذن ليست فى إبليس الذى تَمسح الـآدمى بأنه تعلق بذيل الحمار حتى يدخل سفينة نوح ليبقى فيها داعيا ومحرضا على الشر، وإلا فبأى ذيل تعلق إبليس لإسالة طوفان الدماء التى سالت فى الحرب العظمى ؟!. الحكمة على لسان " الحمار " أن الشر كامن فى الـآدمى الذى حال كبرياؤه دون أن يهتدى فى تصديق وتسليم إلى الله. إلى النور العام والحب العام..حتى بات لا يستطيع أن يرى ما يجره إليه جشعه وعجرفته وأثرته العمياء من ويلات !

يحيى حقى وسعادته مع الحمير !

هل يعز على الـآدمى أن يدرك ما أدركه الحمار ؟! يظل هذا السؤال يلح على خاطر القارئ وهو يتابع طرائف الحكيم فى حوارات الحمير،

ولكن أديبنا الفذ يحيى حقى يتعاطف تعاطفًا صريحًا مع الحمار فى دراسته الرائعة ضمن مجموعة " خليها على الله " : وجدت سعادتى مع الحمير . العنوان يحمل صدق مشاعر وأحاسيس الكاتب وتعاطفه وإنصافه لهذا الحيوان الذى طال ظلمه.. فى عام ١٩٦٢ كتب أحمد عباس صالح مقالاً بالجمهورية عن يحيى حقى : " حبيب المنكسرين والبلهاء والمساكين " . لم يكن ليجاوز الحقيقة لو قال إنه أيضا حبيب الحمير ! لن يفارقك هذا الاقتناع وأنت تقرأ رائعته : " وجدت سعادتى مع الحمير " .. فى هذه القطعة الرائعة كتب يحيى حقى عن حمار الأجرة والحمار الملاكى، وعن درجات الحمير : حمير السبخ، وحمير الأجرة بمحطة السكة الحديد أكثر الحمير مكرًا.. ابن سوق محنك بالتجارب، وحمار الفلاح، وعلى رأس القائمة حمير الطبقة الأرستقراطية التى أوشكت الآن على الانقراض فى الريف. حمارهم " فاره قوى، منتصب الرقبة مرفوع الرأس، راقص الخطوة، أكحل العينين، له بردعة من جلد ثمين أو قطيفة مزينة، ولجام وركائب، أكله موفور وتعبه قليل.. يرضن به صاحبه إلا على كبار الحكام " ..! أما " مدرسة الحمير " فشئ لا ندركه إدراكًا حقيقيًا إلا من دراسة يحيى حقى. هى مدرسة بالفعل، عجيبة مختلطة.. "من تلاميذها أيضا الخيول والبغال. من أصحابها من يطلبون تعليمها مشية الرهوان غرامًا بالأناقة والصبونة، ومن تلاميذها الحمير الأرستقراطية المطلوب أن تتعلم المشى كالرقص المكفول بأصول وقواعد تضمن بقاء الظهر كالبحر الهادئ رغم هدير الحركة الراقصة " . بالمدرسة قسم خارجى وآخر داخلى. فى القسم الخارجى تلاميذ أو حمير الجيران، ينصرفون فور تلقى الدرس، أما القسم الداخلى فلأتين من بعيد، مع كل تلميذ زاده وزواده من الفول والتبن

والدريس " ..! لا يتركك يحيى حتى دون أن يحدثك عن "حمير القاهرة" :
الشعبية والأرستقراطية، فلها خصوصيتها، ولها - فى ذلك الأوان - مواقف
انتظار بلافتات مثبتة على الأعمدة، بعضها لثلاثة أو أربعة أو ستة حسب
حركة النقل بالمكان. يذكر منها يحيى حتى لافتة سور حديقة الأزبكية أمام
مدخل فندق الكونتنتال، وموقف العتبة الخضراء الذى كان من زبائنه. أما
" لصوص الحمير "، و" نكت الحمامة " فعالم آخر لا يقل عنه طرافة " حمار
السيرك " - وهو سلالة متطورة من حمار الحماوى، يختلط سحره
ومواصفاته ومهاراته بسحر السيرك الذى كان جل متعة الناس فى النصف
الأول من القرن الماضى !

بيد أن يحيى حتى المتعاطف مع الحمير لا يتركك دون أن يحدثك
عن الطبيب البيطرى وجمعية الرفق بالحيوان التى كانت تعمل بهمة ونشاط
جعلت الفلاحين يتفنونون فى تحاشى مندوبها صاحب ان رقابة الجادة الذى
يفتش تحت البردعة ويملك سحب الحمار وعدم رده إلى صاحبه إلا بعد أن
يتلقى العلاج !

على أن أبدع ما كتبه يحيى حتى، هو الغوص النفسى - ولا أبالغ -
فى دراسة أغوار هذا الحيوان الطيب.. يقول عنه يحيى حتى : " لم أر
كالحمار حيوانا تحس أنه أدرك أنه أسقط فى يده، أنه لم يقبل قدره عر
عمى وغفلة أو تدليس عليه، بل عن بصيرة وفهم بعد أن وازن بين حيلته،
وقدرة ظالمة، وقاده نكاؤه العملى إلى الاقتناع بأن كل أمل قد مات، وأن لا
فائدة ترجى من الثورة أو اللجاجة أو العناد، فوضع إرادته وغرامه وبهجته
ومرحه وحبه للعب والمعاينة فى حرز مكتوم فى قلبه، وأحنى رأسه وأذنيه
وسبل ظهره، واستسلم بلا قيد ولا شرط. قال لنفسه " فلتحسن أن

الذى يعيش فى جلدك هو حمار غيرك، ولتبق لى روحى لا يعلم بسرها
إلا خالقى.. للبقرة عين غارقة فى أحلام لذیذة، وللجمل عين ترقب الدنيا
من عل بتوجس وغضب مكتوم، وللحصان عين تنم عن الخلاء، وللتيس
عين فيها العناد كله، وللجاموسة عين منطفئة، أما الحمار فإن عينه ذلیلة
حزينة، تكاد تترقرق فيها الدموع. بل یخیل إلى فى بعض الأحيان أنها (
معصية) كعیون الأطفال بعد بكاء، أهذا هو سر نهيقه ؟ لیس فى صوت
حيوان آخر مثل هذه الحُرقة والتفجع والمرارة، إنها صرخة عذاب
واستغاثة وإشهاد للناس فى نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء
ثم تذوب كأنها لم تكن. لا يريد إلا أن یفرغ من امتهانه لیخلو إلى نفسه،
ناعسا مطأطىء الرأس مسكينا تحت سقيفة فى مدخل السوق، إذا ربت على
ظهره ورقبته أحسست كم هو طيب ودیع وكم هو محتمل لذله بصبر
واستسلام ! "

حمار السعدنى !

حمار السعدنى یختلف استخداما وتقنية عن حمار الحكيم وحمير یحیی
حقى، فلم یضع السعدنى حماره فى قوالب فنية روائية أو مسرحية كما فعل
الحكيم فى روايته حمار الحكيم أو مسرحية الحمير، ولا جعل الحمار
ودنياء موضوعا لدراسته كما فعل یحیی حقى، وإنما استخدم الحمار وجعل
له دولة للحمير، لیمضى سالما ساخرا فى جلد الذات باستعارة دور الحمار
فى حوارہ مع البنات الفرنساویة " اللهوبة ولا أرنب برى، الشعنونة
ولا قنفذ فى برارى البصرة، المتحركة المتكررة المتشنكرة " .. التى
التقاها فى باريس ودعاها إلى فنجان شای فأقبلت فى النهاية بعد إقبال

وإدبار واقتربت وقد ظن أنها وقعت " فى غرام دباذيب العبد لله ! " - ولكن لتسأله : " هل أنت مريض يامسكين يا عدمان " ؟!. يفتح السعدنى بهذ الحيلة باب الحوار نائباً عن دولة الحمير ومتحدثاً بلسان أحد أفرادها فى مجموعة مقالاته الأولى التى ظهرت بعنوان : " حمار الشرق " فى آخر ثمانينيات وصدر تسعينيات القرن الماضى، ثم فى مقالاته التى صدرت بعنوان : " عودة الحمار .. " وهى عودة إلى ذات الحوارات مع البنيت الفرنساوية عن كافة الموضوعات الانكشارية الحمقاء المحيرة فى دولة الحمير التى اتخذها حيلة لجلد الذات الشرقية أو العربية، متحدثاً بلسان فرد منها ليمرر ما يريد من سخرية لاذعة يستحيل أن تمر بغير مقاضاة مالم يتخذ هذه الحيلة الذكية الأربية تحت ستار أن ذاته نفسها بجلد ! السعدنى يسخر من نفسه فى الظاهر ويتقمص هو شخصياً دور الحمار ويتحدث بلسانه ساخراً أول ما يسخر من نفسه، ولكن ليصب جام أوصافه اللاذعة على الشرق أو العرب بعامه بأقطاره وحكامه ومحكوميه، بكتابه وفنانيه، بعامله وعاطليه، بموظفيه ومهنييه وحرفييه، بسياساته واقتصادياته واجتماعياته، بأفكاره وسلوكياته، بنتف من الماضى الموجه، ونتف أعرض من الحاضر المرير المؤلم.. ناعياً ما نحن فيه من حمق وبلاهة وانكشارية جوفاء بلا معنى ولا طحن !

حمار الشرق !

فى كتابه " حمار الشرق " (كتاب اليوم أغسطس ١٩٩١)، طفق السعدنى - بالدور الذى تقمصه - يدير حواراته مع البنيت الفرنساوية : اللهلوبة المتكررة " - بقوارصه وسخرياته ولواذعه، يسخر مما يدور فى

دولته : دولة الحمير .. فيقول لها فى المقال الرابع : " لك هادا .. والشاويش حمدان " ..! فيرد عن نفسه اتهامها له بالمغالة فيما يسوقه من مرويـات، ويقول لها نافيا ما ظنته من مبالغة : " بالعكس بل أنا متواضع، والحقيقة أسوأ بكثير، فمثلا نحن نعيش فى رقعة أرض واحدة، ونتكلم لغة واحدة، ونعبد إلها واحدا، ومع ذلك فكل عشرة أمتار نحتاج إلى تأشيرة دخول، وتغيير عملة، وإقامة من دوائر الشرطة، وأحيانا نحتاج إلى كفيل. قطر واحد من أقطار العصر الحميرى يسمح لأبناء العصر الحميرى بالدخول دون تأشيرة دخول، ولكنه إذا أراد أن يخرج فعليه أن يحصل على تأشيرة خروج " !!!

حين تبلغ بالبنت الفرنساوية غاية الدهشة فى ختام المقال الأول : " سبحان الذى أعطى "، وينتابها الهلع من بعض مرويـاته عن التنبؤ المتفشية فى دولة الحمير، وتخشى عليه أن يلاحظه أحد فيبادر بخطفه وربما وضعوه فى متحف اللوفر أو حددوا إقامته فى مستشفى سان مارك .. يبادر السعدنى مندوب دولة الحمير فيقول لها وهو ينفخ من شدة الغيظ .. " ياسبحان الواحد القهار، أقسم لك برأس جدى الشيخ معوض أن العصر الحميرى إياه قائم ومنتصب والحركة فيه الآن على قدم وساق، اخطفى رجلك أيتها الصبية إلى أى بلد فى العالم الثالث أو حيث تعيش أسرتنا وستجدين ألوف الحمير مثلى تأكل وتشرب وتعمل وتقبض وتسعى وتنام، وستجدين أغلبهم على الكراسى وفى المناصب، فمنهم زعماء ومنهم وزراء ومنهم علماء أيضا، وهذا هو العجب العجـاب " .

تسأله البنت الفرنساوية الكرورة فى المقال الثالث : " أعلى مراحل الاستحمار "، كيف يكون حمارا وعبقريا فى نفس الوقت، يبادر

فيقول لها : " إنها صفة على أية حال ليست مكتسبة ولكنها جاءتني بالوراثة، فجدى الأول كان حمارا وأستاذنا، وجدى السابق كان حمارا وعمدة، وجدى الأسبق كان حمارا وفلاحا، وستى يرحمها الله كانت حمارة وعالمة .. فلما شهقت البنات الفرنساوية اللهلوبة من أن تكون جدته حمارة وعالمة من العلماء، يأخذها السعدنى إلى دنيا العوالم التى مفردها عالمة، وكل واحدة فيها " أشهر بكثير من مدام كورى وأغنى بكثير من مدام تاتشر، وأكثر انتشارا من مدام تحب بتكر ليه " ..! لا يتركها المتحدث بلسان دولة الحمير دون أن يحدثها عن استخدامات " أفعل تفضيل " الشائعة فى دولة الحمير : فهذا البيت أفضل، وهذا الرجل أعظم، وهذا اليوم أخلد، وهذا أكرم وهذا أبخل وهذا أفظع وهذا أروع وعندنا سبيل الله فى إطلاق الأوصاف والألقاب. فمثلا، أيامنا كلها خالدة، وخطب زعمائنا كلها تاريخية، وكل خطاب لا بد أن يكون له صدى فى العالمين " !

يمضى بنا السعدنى ضاحكا ساخرًا، ومن نفسه أيضا، عبر " المجوس والجاموس "، و " أكلنا هو نفطنا من الورقة إلى الدوسرة إلى الطاجن .. يتحدث عن قضايانا الفكرية التى نترك فيها الفكر إلى اللا فكر أو إلى الهامشيات والتوافه .. والخزعبلات أيضا !. حكم الذبابة ووجوب غمس جناحها الآخر إذا وقعت فى طعام، وأعاجيب شركات توظيف الأموال التى تضحك على الحمير فى دولة الحمير .. أما " فخامة الجنرال إلكتروك " !، فهى مدخل لتعلق أصحاب دولة الحمير بالألقاب .. النشامى، والمجاهد، والمؤمن، والأوحد، والأخ المناضل .. مارشالات على قفا من يشيل .. لا يسمون الأشياء بمسمياتها، فتصير الهزيمة نكسة، وتصبح الوكسة انتصارا .. ولكن لا بأس من استرداد بعض الكرامة أمام اللهلوبة

الفرنساوية.. نعم. " حمير.. ولكن كرماء ! - تيهنا بالصحراء وتغنينا بها
هى والفيافى والجبانات بدل الخضرة والعمار.. من أعماق الصحراء التى
بها نتيه، نخرج جماعات السماء.. لكل منها أمير ! تحكم بالكفر والإلحاد
على من تشاء.. ثم يقسم حمار السعدنى على صاحبتيه العصفورة
الفرنساوية ألا تتصرف قبل أن تسمع حديثه عن " النشوء والانحناء " ..!
فهو أطرف وأيسر منالا من " الارتقاء " .. أما " الخطط والأهداف " فهى
أيسر ما يكون.. " ياست يا خواجاية، فى بعض أجزاء من بلاد الحمير، كل
من أخفى عينه وراء نظارة سوداء، وحمل فى يده حقيبة سامسونايت،
ينادونه بلقب دكتور. وهذا النوع (المخطَّط) هير أكثر من خمس دخل
البترول فى صفقات مربية وعجيبة " .. " أما التخطيط فليس فى الدنيا كلها
تخطيط مثل الذى عندنا. أما عن المخططين، فكل الشعب يخطط، أحيانا
على ورق، وأحيانا على حجر، وأحيانا على بلاط " ..! يؤيد حمار
السعدنى مقولته للبننت الفرنسية بالبرهان الساطع : " ادخل أى دورة مياه
فى بلاد العصر الحميرى، ستكتشفين أن كل الرواد تركوا خطوطا على
الجدران والأبواب. انظري إلى سيارة تمشى فى بلاد العصر الحميرى،
ستجدين خطوطا ظاهرة عند المؤخرة (ياناس يا شر كفاية قر) و (
ماتبصليش بعين رضية بص للفلسوس المدفوعة فى) و (يا كايدهم !
(و) مع السلامة يا أبو وردة !) .. بيد أن السعدنى لا يحب أن يغفل
الحديث عن أستاذه وحبيب عمره زكريا الحجاوى.. شهيد العبقرية الذى
رحمه الله فمات وغادر العصر الحميرى، تاركاً الفنانة خضرة الشريفة
تسرح وحدها فى الموالد والأسواق !

لا تحسب أننى حدثتك عن كل مافى " حمار الشرق " وإلا اضطرت لنقل الكتاب إليك.. فالكتاب كما قال فيه جمال الغيطانى : " أعنف هجائية ساخرة لأوضاعنا فى العالم العربى المعاصر، فى كتاب فريد هو وثيقة أدبية تضاف إلى فن السخرية والهجاء العربى.. كتبها 'فيلسوف أديب وشاعر وحكواتى ومتكلم عظيم.. إنه كتاب يضحك إلى حد البكاء " !

عودة الحمار !

كان من المحال أن يصبر السعدنى بروحه المتوثبة لأكثر من عشر سنوات بعد " حمار الشرق " فعاد ليقدم " عودة الحمار " (كتاب اليوم أبريل ٢٠٠١)، اعتبره السعدنى الجزء الثانى من " حمار الشرق .. استأنف فيه الحديث مع البنت الفرنساوية العصفورة اللهلوبة.. عاد الحمار بسلامة الله مع " أم المعارك " التى احترق بنيرانها. عاد الحمار بلا هوية ولا ذاكرة يلحق جراحه ويهذى. يعجز عن فهم ما يجرى، ولا فهم الخراب والإفلاس وانشغال الكل بشراء الصواريخ ثم بشراء الصواريخ المضادة للصواريخ !.. بيد أن البنت الفرنساوية لا تتركه لجراحه، فتعايره بالمبانى المتهاككة : " تتصورون أنكم أحفاد بناء الأهرام ومعابد أبو سمبل ؟! يا جماعة انكسفوا على دمكم.. خطوا فى عيونكم فص ملح. وهل معقول أنكم من صلب هؤلاء الذين شيّدوا المبانى فعاشت ٧ آلاف سنة، بينما أنتم شيّدتم المبانى فسقطت بعد أشهر ؟! حافظوا على جثث الموتى فعاشت آلاف السنين واحتفظت بجلدها وشعرها، ودفنتم موتاكم فلم يبق منهم شئ بعد عدة أشهر، حتى عظامهم انسحقت بفعل الرطوبة ورشح الماء " !.. طوى حمار السعدنى جوانحه على الإهانة البالغة، وكنم غيظه، ونهض

ليحدث إلى البنت الفرنسية التي عاجلته بحديث موجه عن خيبة دولة الحمير بتآمرها أولاً على امبراطوريتهم العثمانية، ثم بالوقوف في الحرب العظمى مع الإنجليز المحتلين ضد الألمان، مع أن انتصار الألمان ربما أنهى مشكلة فلسطين، فيدير معها حمار السعدنى حواراً عن مبررات دولة الحمير فى رفض الفاشية، والانحياز إلى الديمقراطية، ولكنهما - حمار السعدنى والبنت الفرنسية - لا يكادان يفرغان من هذا الجدل حتى ينتقلا إلى : " أعلى مراحل الاستحمار " ..! تقرعه البنت الفرنسية بالخيبة القوية فى الذهاب بربطة المعلم إلى أفغانستان ومحاربة الإمبراطورية الشيوعية حتى سقطت، فصارت دولة الحمير بلا حماية ولا غطاء، وتحولت روسيا من موالية للعرب إلى موالية لإسرائيل ! أما " الحمير وجيش الخطاطبة " فحدث ولا حرج. يمضى حمار السعدنى مع هذا الفصل فى جلد الذات عبر معارك أصحاب الخطب الرنانة والعمل الأجوف ..! يفاجأ حمار السعدنى بالفرنساوية اللهوبة تواجهه بحديث عن : " الأهل والأحفاد " ..! تقول له متهمكة : " دا اللي إنت شاطر فيه، أقول لكم إنه فى أحد أحيائكم المترامية الأطراف على أرض الله كان لديكم شاعر كان اسمه " البردونى " وصف بنى جنسكم بأنهم ظاهرة صوتية " ..! يتأرجح حمار السعدنى فى حديثه معها بين انسلات الأحفاد من الأصول، وبين تمسكهم بالجذور .. ولكنه يتحمل تقريع البنت الفرنسية حتى يصل معها إلى : " جيش أمريكا وجيش رواندا " ..! يبدأ حمار السعدنى باتهام البنت الخواجية بأنها حاكمة على دولة الحمير، تنتهز فرصة حوادث فردية لتؤسس عليها نظريات خنفسارية تتهم بها قبائل بنى حمير، وإلاً فبماذا نسمى حادث تسليم " كارلوس " .. أليس حادثاً فردياً ارتكبه فرد ؟!

ولكن البنت الفرنسية تعاجله بما حدث مع الاتحاد السوفيتي والهروب بإحدى طائراته الميج ٢١ وتسليمها لقاعدة جوية إسرائيلية؟!.. ولكن حمار السعدنى لا يعدم الحيلة.. إنها أيضا حادثة فردية.. واحد خائن ! ولكن البنت الخواجاية اللهلوبة لا ترحمه، وتواجهه بإسلام مقاليد جيش التحرير من الاحتلال الإسرائيلى بإحدى دول بنى حمير - إلى قائد إنجليزى، الجنرال (أبوحنك) وشهرته " جلوب " الذى انسحب بقواته فى حرب فلسطين كاشفاً الجيش المصرى؟!.. لا يرحم الاضطراب الذى اعتلى حمار السعدنى من معاجلة البنت الفرنسية له بقصة اليابانيين الغاضبين من ممارسات إسرائيل، الذين ركبوا طائرة " العال " الإسرائيلية إلى حيث هبطوا فى مطار " اللد " الدولى فى عملية انتحارية تعاطفا مع الحقوق العربية، فلما قبضت عليهم إسرائيل وسجنتهم طويلا ثم أفرجت عنهم، سلمتهم إلى دولة حميرية سرعان ما وضعتهم فى السجن ثم شحنتهم إلى دولة حميرية أخرى قامت بشحنهم إلى اليابان ليلقوا جزاء سمار؟!.. تتساءل البنت الفرنسية : لماذا لم تترك الدول الحميرية لإسرائيل إنجاز هذه المهمة التى بدت بها الدول الحميرية وكأنها تقتص من المتعاطفين مع حقوقها المهضومة؟!..

السعدنى الموهوب ذو القلب الكبير

لست أريد أن أتوقف عن استعراض وقائع " جلد الذات " التى طفق السعدنى يستعرضها بسخريته اللاذعة، مرة على لسانه، ومرة على لسان البنت الفرنسية.. فى حوار يثير الوجيعه ويحرك الأشجان، تختلط فيه البسمات والضحكات التى ينتزعها السعدنى بالآهات والعبرات.. اللافت

الذى لا تخطئه عين، أن السعدنى ليس فقط ساخرأ عظيماً، ولكنه أيضاً متفك كبير، لديه مخزون هائل من التراكمات المعرفية، التراثية والتاريخية والأدبية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وأن هذا المخزون الهائل، مع موهبته الفطرية، يتعانقان معاً فى اختيار " القفشة " أو " الموضوع "، وفى سبك العبارة سبكا يثير مع البسمات المرتسمة على الشفاه، أحزانا ضاربة فى الأعماق !.. لم تفلح سنوات الظلم الطويل الذى عاناه، ولا أسوار المعتقلات، ولا أزمة المرض فى نفسه وفى ابنتيه، ولا حجب أو تقليص معاشه المستحق، ولا إجباره على التيه فى بقاع تمننت تطويعه بالمال والإغراءات إلى ما تريد، فأبى إلا ما يريده الكاتب الحر المؤمن برسالته المطوع لموهبته فى حمل هموم وطنه الذى ظل على الدوام فى أحضان هذا الساخر العظيم صاحب القلب الكبير !

الدوبليـر ! (*)

من المحال عقلاً ومنطقاً وواقعاً أن يحل الدوبليـر محل الأصيل فـى تمثيل الدور دون تراضٍ واتفاق بين الدوبليـر والأصيل، لأن حلول الدوبليـر وأداءه الدور لا يمكن أن يتم إلا بتحتى الأصيل ليحل الدوبليـر محله ! فإن لم يتتح الأصيل ويخلـى مكانه للدوبليـر - يستحيل على الدوبليـر أن يؤدى الدور لأنه مشغول بأداء الأصيل !

منتحل الصفة فى الامتحانات، هو كشأن " دوبليـر " التمثيل.. من المحال عقلاً ومنطقاً وواقعاً أن يحل محل الطالب المطالب بأداء الامتحان دون تراضٍ واتفاق بين " دوبليـر " أداء الامتحان وبين الطالب الممتحن، لأن تقدم الدوبليـر وجلسه على منضدة الطالب المرقمة برقمه واسمه، من المحال أن يتم دون أن يتحتى الطالب الممتحن عن مقعده ومنضدته ليجلس إليها الدوبليـر ويحل محله فى أداء الامتحان ! إن لم يتتح الطالب الممتحن عن مقعده ومنضدته استحـال على " الدوبليـر " أن يؤدى الامتحان لأن صاحبه الأصيل جالس يؤديه !

مسألة أخرى يستدعيها العقل والمنطق. لا مجال " للعبثية " فى دوبلير التمثيل أو دوبلير الامتحان. العبثية قد توجد فى الاتجاهات والحركات العامة، وقد توجد فى الفنون والآداب، ولكن من المحال أن توجد فى دور ومهمة " الدوبلير ". من المحال أن يحل الدوبلير عبثاً بلا اتفاق محل الممثل الأصيل فى تلقى الضربات واللكمات والتعرض بدلاً عنه للأوجاع والآلام والأخطار، وتعريض نفسه وبدنه وحياته لما قد لا تحمد عقباه !

أما دوبلير الامتحانات، فمن محال المحال أن ينتحل الشخصية ويتقمص الدور عبثاً ! فأداء الدور - أقصد الامتحان - ليس محض جلوس إلى " منضدة " الامتحان لساعات، ولا هو مجرد إمساك بقلم وتسويد ورقة إيجابية، وإنما يسبق ذلك استعداد مرهق وطويل لا يؤديه دوبلير التمثيل ! فدوبلير الامتحان عليه أولاً - قبل أداء الدور - أن يعرف ماهية مادة الامتحان الذى سوف يجلس لأدائه، وعليه أن ينفق الساعات والأيام والليالى والأسابيع وربما الشهور فى مذاكرتها وحفظها حتى لو كان قد تخرج سالفاً من عشرة أو خمسة عشر عاماً من المدرسة أو المعهد أو الكلية التى تُدرس فيها. ففضلاً عن تغير المناهج كيفاً وتبويباً وضيقاً واتساعاً، فإن خطوط ومنعطفات المواد الدراسية تتماحى من ذاكرة المتخرج بمرور الزمن، ومن المحال على أى خريج لمدرسة أو معهد أو كلية أن يمتحن بعد سنوات فى مادة دراسية دون أن يعاود معاودة جادة دراستها ومذاكرتها وحفظها ليستطيع أن يؤدي الامتحان فيها بل ولينجح النجاح الذى ينشده من وظفه لأداء الامتحان بدلاً منه، وإلا صارت العملية كلها عبثاً فى عبث يؤدي إلى عبث !

لذلك فدوبلير الامتحان يكون بمواصفات خاصة، وبمهام خاصة وباختيار وضوابط خاصة، بل خاصة جداً، لا يصلح الطالب الأصيل لوزنها وتقديرها وتحمل تكاليفها والقيام بأعبائها، فهو أولاً عاطل من العلم والمعرفة وإلا لأدى الامتحان بنفسه ولم ينشد ويكلف "دوبليراً" لأدائه بدلاً منه، وهو ثانياً لا يملك بذاته وسائل التعرف على الخريجين الذين سبق تخرجهم في المدرسة أو المعهد أو الكلية، ولا المهنيين الذين سلكوا هذه المهنة أو تلك من بين الخريجين، ولا هو من جيل أو مهنة الدوبلير المنشود الذي يسبقه عمراً ولا ينتمى إلى جيله أو محيطه الخاص أو مجتمعه المدرسى !

اختيار وتكليف "الدوبلير" يضطلع به من يملك عناصر ومقادير وتكاليف وأعباء الاختيار والتكليف، مثلما يحدث في عالم السينما والتمثيل. فتكاليف وأعباء وأجر الدوبلير يلتزم بها ويؤديها "المنتج" الذي يتحمل كل تكلفة العمل التمثيلي !

من المحال أن يجرى تكليف "الدوبلير" لأداء الامتحان - بغير تراضٍ واتفاق وتحريض من الطالب الأصيل وممن يتولاه أو يتعهده أو يقوم بولاية أمره والإنفاق عليه وتحمل تكاليفه وأعباء دراسته. والاتفاق والتحريض والمساعدة من صور ووسائل الاشتراك أو ما يسمى بالمساهمة الجنائية التبعية في مجال المسؤولية الجنائية، لأن الاتفاقات الجنائية وما يلبسها من تحريض ومساعدة يجرى كله في الخفاء، وغالباً ما يحاول المتلبس (بالفعل الأصلي) التتصل أو التجمل، أو يرض ببيان كامل الحقيقة لسبب أو لآخر يعرفه المشتغلون بالقضايا الجنائية، أو يتجنب راعياً أو راعماً كشف شركائه، لذلك فإن قواعد الإثبات الجنائي.

أطلقت إثبات الاشتراك من القيود التقليدية للإثبات، فأتاحت إثباته بكافة وسائل الإثبات بما فيها القرائن والاستدلالات، وجرت على ذلك أحكام محكمة النقض في تواصل لا شذوذ عنه !

لا يتعرض دوبلير التمثيل ومن كلفه للمسئولية الجنائية عن أداء الدور التمثيلي، وإن أمكن أن يتعرض سواء لمسئولية جنائية من نوع آخر إذا ما خرج التمثيل عن حدود المباح إلى إيقاع ضرب أو إيذاء للدوبلير غير مباح !

أما دوبلير الامتحانات، فالمسئولية الجنائية - لا التأديبية فقط - لاحقة به وبشركائه في جميع الأحوال. فالشريك المحرض أو المتفق أو المساعد، يعاقب كمبدأ عام بما يعاقب به الفاعل الأصلي. فإذا فرضت الأدوار أن يتسم الدوبلير بصفة الفاعل الأصلي، فإن مسئوليته تقع عليه هو وشركائه - تحريضاً أو اتفاقاً أو مساعدة - في قلب المسئولية الجنائية.. فهو لا يؤدي دور الدوبلير إلا بارتكاب عدة جرائم جنائية، في مقدمتها التزوير فضلاً عن انتحال الصفة، وكلاهما يمتزجان ويتضافران، ليس فقط في التوقيع على كشف الحضور لأداء الامتحان، وهو محرر رسمي بطبيعته، وإنما يمتد التزوير في أوراق رسمية إلى ورقة الإجابة التي يفرغ فيها الدوبلير وبخط يده إجابة منسوبة زوراً على خلاف الحقيقة إلى الطالب الأصلي، ولذلك فإن " تزويرات " الدوبلير ومحرضيه والمتفقين معه تجاوز الغش العادي في الامتحانات الذي قد تقتصر مسئوليته على الإطار التأديبي إذا صدر من الطالب الممتحن عمل من أعمال الغش المعتادة في لجنة الامتحان !

أما الغش بطريق " الدوبلير " .. فهو عمل جنائى من صميم المسؤولية الجنائية لما ينطوى عليه من انتحال صفة وتزويرات وفى محررات رسمية يقع تزويرها فى دائرة الجنائيات لا الجنج، ويجاوز فى آثاره المدمرة على التعليم وقيم الشرف والأمانة - يجاوز الغش العادى المعتاد فى الامتحانات، أو ذلك الجارى الآن محاكمة امتورطين فيه أمام محكمة الجنائيات عن امتحانات الثانوية العامة !، بل ويجاوز فى خطره وجسامته ما قضى عنه قريبا من عقاب وكيل إحدى كلياتنا العلمية الكبرى - وبلا انتحال ولا تزوير ! - بالسجن خمس سنوات فى قضية عرفها القاصى والدانى !

بقيت كلمة لا بد أن أביها، وربما كانت هى دافعى الوحيد لكتابة هذه السطور !

أجل، من حق كل متهم أن يدافع عن نفسه بما يشاء، بل قد تكون كل قواعد المنطق والاستدلال أضغاث أهام، وقد يكون صحيحاً أن " الدوبلير " محض فضولى تطوع بلا تكليف ولا اتفاق للاستنكار والاستعداد والتقدم لأداء الامتحان فى مادة أو أكثر بدلاً من الطالب، وقد يكون صحيحاً أن الطالب أو أحداً من طرفه لم يكلف " الدوبلير " بأداء هذا الدور، وأنه تصادف - محض مصادفة ليس إلا !! - أن الطالب غاب ولم يذهب للامتحان فى المادة أو المواد التى ضبط الدوبلير الفضولى المتطوع متلبساً بأداء امتحان إحداها وكشف التحقيق عن خطه فى أوراق إجابة لمادة أو مواد أخرى. بل وقد يكون صحيحاً أن " اتفاق " مهنة الدوبلير مع مهنة الأب أو ولى الأمر - محض مصادفة من فعل المقادير، وكم للمقادير من مصادفات وأعاجيب !

قد يكون ذلك كله محض مصادفات، ولا مصادرة على حق أحد
فى إثبات براءته، أو انتفاء صلته بالجريمة المتلبس بها، ولكنى لم أفهم
كيف يمكن أن تكون واقعة الجريمة المضبوطة فى حالة تلبس - حصاد
تأمر وتلفيق من أبناء ذات " المهنة " التى ينتمى إليها الدوبلير وينتسب إليها
مطلق هذا التصريح الغريب العجيب !

أجل من حق كل متهم بفعل أصلى فى جريمة، أو اشتراك فيها، أن
يسلك فى الدفاع عن نفسه ما يشاء، استقام دفاعه أو انحرف أو ضعف أو
اعوج، بل وأباحته المادة ٣٠٩ من قانون العقوبات ما قد يصدر عنه من
قذف فى حق الآخرين فى دفاعه عن نفسه، ولكن شريطة أن يكون من
مقتضيات الدفاع، وفى إطار الضرورة الداعية إليه، وإلا تعرض للمسئولية
الجنائية عن قذفه فى حق الآخرين ! ليس من حق أحد أن يرمى فئة كاملة
- ناهيك عن الفئة التى ينتمى إليها ! - بالتحريض عليه أو على نجله أو
بتلفيق قضية دوبلير ضبط مؤخراً فى حالة تلبس ! هذا الرجم تصرف
غير لائق ولا حكيم، فضلاً عن أنه لا يحترم عقول المتلقين، ناهيك عن
عقول النيابة العامة وسلطات التحقيق وقضاء الحكم !

دفاع الدوبلير :

بين الدرء والرجم والتجديف (*)

قرأت في جريدة " الفجر " التي يحمد لها أنها الصحيفة المعارضة الوحيدة التي تابعت هذه القضية الهامة - قرأت دفاعاً لدوبلير - ضبط متلبس بأداء الامتحان - بدلاً عن الطالب الأصلي - في إحدى مواد كلية الحقوق جامعة بيروت، والتي أبلغ عميدها شرطة سيدى جابر بالواقعة التي تحرر عنها المحضر رقم ١٠٧٦٨/٢٠٠٨ نيابة شرق الإسكندرية !

ما لفتنى، هو دفاع المقبوض عليه متلبساً - وهو للأسف محام فى الرابعة والثلاثين.. أنه متطوع لأداء الامتحان بدلاً ممن أداه عنه، وأن ذلك كان - هكذا ! - بغير علم الطالب، ولأن السيد الدوبلير قدم لرئيس لجنة الامتحان - الذى شك فيه - " رقم جلوس " الطالب الأصيل، فإنه ركب مركباً أصعب لتبرير وجود " رقم الجلوس " معه، فقال بلسانه - فيما أوردت الفجر نقلاً عن المحضر - إنه " حصل " على " رقم الجلوس " من متعلقات الطالب الشخصية دون علمه !

ولست بالذى أصدر على حق الدفاع، ولكن هذا الدفاع وهو حق
صيل لكل متهم مهما استقام وقوى واشتد أو ضعف ووهن وشرد أو شذ !
قد اقترن فى ذات الوقت بإفادة لوالد الطالب نشرت بجريدة الأخبار،
أعيد ترديدتها فى بيان جار توزيعه بالمحاكم مقرون توقيعه بصفة زالت
الحكم الصادر ببطلان الانتخابات، تضمنتا - الإفادة والبيان - أن القضية
ملفقة وأن المحامين هم الذين لفقوها نكاية بالأب بسبب تعديلات قانون
المحاماة !

وهذا الاتهام الجائر الخطير للمحامين الذين أنتمى إليهم - هو دافعى
لكتابة هذه السطور !

فهل يمكن أن تكون الواقعة المتلبس بها، ملفقة - ناهيك عن أن
يكون المحامون هم ملفقوها - بينما الأستاذ المحامى الدوبلير المقبوض عليه
يقول إنه " متطوع " بغير علم الطالب، ويورط نفسه - فى سبيل الدراء عن
الطالب وغيره - فيورى بأنه هو الذى أخذ من تلقاء نفسه، وبغير علم
الطالب، رقم جلوسه الذى أبرزه لرئيس لجنة الامتحان !

أياً كان هذا الدفاع، فإنه يتعارض ويتنافر مع تهمة التلقيق المرجوم
بها المحامون ! فالمحامى الدوبلير المتلبس لم ينسب ما فعله إلى المحامى
الأب أو إلى نجله الطالب، بل نصب نفسه للدفاع عنهما إلى حد أن نسب
إلى نفسه تهمة أخرى بالاستيلاء على رقم الجلوس لتبرير وجوده معه أثناء
أدائه الامتحان عن الطالب !!

ففكرة التلقيق، تقتضى استكمالاً لمخططها - أن يرشد الدوبلير إلى
الطالب ووالده لتكتمل له ولمحرضيه حلقات التلقيق. ولكننا نراه ينورط

نفسه حتى النخاع ليدرأ عن الطالب وعن والده - فعلام إذن ولأى غرض كان التلفيق المنسوب إلى المحامين ؟!

هل حرض المحامون - المحامى الدوبلير - على أن يلفق قضية ضد نفسه ؟!.. إنه يقر على نفسه، بأنه قارف متطوعاً وبإرادته المنفردة جرائم انتحال الصفة والتزوير، فى كشف الحضور وفى ورقة الإجابة، وكلاهما محرر رسمى، يدخل التزوير فيهما فى باب الجنائيات لا الجنج ؟!.. وهل حرض المحامون - المحامى الدوبلير - وأوعزوا إليه بأن يصرج نفسه بجريمة أخرى وهى أنه مدّ يده - وهذه جريمة - فأخذ رقم جلوس الطالب بغير علمه ؟!

فإذا كان المحامى الدوبلير المقبوض عليه متلبساً، قد أثر أن يحمل على كنفه وحده كافة الجرائم المرتكبة، ما بين انتحال وتزويرات، بل ويضيف إليها الاستيلاء على رقم جلوس الطالب بغير علمه - فكيف يستقيم أن يكون مدفوعاً ومحرضاً من المحامين على والد الطالب، بينما هو يتخذ سبيلاً وعراً فيحمل نفسه بوزر الجريمة منفرداً، بل ويحملها بتهمة إضافية جديدة ينسب فيها إلى نفسه الاستيلاء على رقم الجلوس بغير علم أو إرادة مالكه وصاحبه ؟!

غريب حتى النخاع أن يصير الرجم على اتهام المحامين بالتحريض وتلفيق الجريمة ضد الطالب ووالده، بينما ضبط فاعلها الأسمى متلبساً بارتكابها، فلما ووجه بالاتهام أمام النيابة، ضحى بنفسه وقدمها قرباناً فى سبيل الدفاع عن يستسيغ الآن اتهام المحامين بأنهم المحرضون عليه ؟! وهو اتهام قد سبق للأسف نسبته إلى المحامين من أسابيع فى مناسبة أخرى ؟!

ثم.. هل جريمة الدوبلير تقبل التلفيق، أو يمكن أن تجرى بغير علم
باتفاق بل وتسهيل ومساعدة الأصيل ؟!

دوبلير التمثيل لا يمكن أن يحل محل الأصيل في تمثيل الدور، وتلقى
الضربات واللكمات والركلات والمخاطر نيابة عنه، ما لم يكن ذلك باتفاق
يبتحي بمقتضاه الممثل الأصيل عن المشهد، ليمثله الدوبلير بدلاً منه، فإن
لم يخل له مكانه - استحال على الدوبلير، مهما أراد، أن يؤدي الدور، لأن
صاحبه يؤديه !

وشأن دوبلير الامتحانات، كشأن دوبلير التمثيل وزيادة، فدوبلير
الامتحان لا يستطيع أن يؤدي دوره ما لم يتتح الطالب الأصيل له عن
مكانه ليجلس محله وعلى منصدته المرقمة باسمه ورقم جلوسه ليؤدي
الامتحان بدلاً عنه، ثم هو لا يتقدم لأداء مشهد وينقضي الأمر، وإنما يتقدم
لأداء امتحان في مادة أو مواد في لجنة امتحان تحت مراقبة وإشراف
أساتذة ممتحنين، يلزمه معرفة اللجنة ومكانها وزمن ووقت انعقادها،
ومكان ورقم جلوس منصدة الطالب الأصيل، فضلاً عن دراسة ومذاكرة
وحفظ المادة أو المواد التي سوف يؤدي الامتحان فيها، ولينجز النجاح
الذي لا بد ينشده الطالب الممتحن وإلا ما لجأ إليه أو كلفه أو قبل منه أن
يؤدي الامتحان فيها بدلاً عنه !

من المحال أن يتطوع أي دوبلير لأداء امتحان بمادة ناهيك عن مواد -
دون اتفاق وتكليف. فهو يؤدي الامتحان لينجح الأصيل لا ليرسب، وهذه
الغاية تستلزم من الدوبلير - فضلاً عما تقدم - أن ينفق الأيام ويسهر الليالي
في مذاكرة المادة أو المواد للاستعداد لأداء الامتحان فيها، فهو لا
يستطيع أن يعتمد على دراسته القديمة المنصرمة من سنوات، فهي

تتماحى من الذاكرة فضلاً عما يطرأ على المواد من تعديلات. ولا مجال فى مثل هذا الدور للعبثية التى قد نراها فى الحركات العامة أو فى الفنون والآداب.. لا مكان للعبثية لا فى دوبلير التمثيل الذى يتلقى الضربات والمخاطر بدلاً عن الأصيل، ولا فى دوبلير الامتحان الذى يكدر ويسهر ويرهق نفسه فى المذاكرة والحفظ ليهدى إلى الطالب الأصيل نجاحاً لا يستحقه.. وبتقديرات يعجز عن الحصول عليها !

لذلك فدوبلير الامتحان يكون بمواصفات وقدرات خاصة، لا يصلح الطالب نفسه للتعرف عليها ووزنها أو تحمل تكاليفها، فهو عاطل من العلم والمعرفة وإلا لأدى الامتحان بنفسه، وهو - ثانياً - لا يملك وسائل التعرف على خريجى هذا المعهد أو ذاك الذين باشروا المهنة لسنوات، ومن منهم الكفاء القادر على النجاح، ومن منهم العاطل من الكفاءة الذى سيعرضه للرسوب !.. فضلاً عما قد يلزم التكليف من تكاليف كالتى يقوم بها المنتج للعمل السينمائى، ليست فى مقدور التلاميذ فى سنوات الدراسة التى يعيشون فيها عائلة على ذويهم !

فكرة التحريض والتلفيق فكرة نابية، وتجديف غير لائق.. صورة الواقعة المتلبس بها تنتوى على أفعال منسوبة لفاعل أصلى بين الانتحال والتزويرات، وهى أفعال لا يتحملها الفاعل الأصلى وحده، وإنما تلاحق الشريك أو الشركاء فيما يسمى بالمساهمة الجنائية التبعية، تحريضاً كانت أو اتفاقاً أو مساعدة.. هذه الواقعة بما طويت عليه من انتحال وتزويرات، تجاوز حدود المساءلة التأديبية، إلى صميم المسؤولية الجنائية عن انتحال الصفة والتزوير، وكلاهما يمتزجان ويتضافران، ليس فقط فى التوقيع على كشف الحضور لأداء الامتحان، وهو محرر رسمى بطبيعته، وإنما امتدًا

أيضا إلى التزوير فى أوراق رسمية هى ورقة أو أوراق الإجابة المفرغ فيها إجابات بخط الدوبلير منسوبة زوراً وعلى خلاف الحقيقة إلى الطالب الأصل لينال بها نجاحاً - وربما تقديراً ! - لا يستحقه!

هذه الجرائم الجنائية، المنسوبة للفاعل الأصلي وتلاحق الشريك أو الشركاء - هى جرائم بالغة الضرر بالعملية التعليمية وقيم الشرف والأمانة - أباح القانون وأحكام محكمة النقض - طبقاً للقواعد العامة - إثبات الاشتراك فيها بكافة طرق الإثبات بما فيها القرائن والاستدلالات، أبسط من هذا التزوير جار الآن محاكمة المسؤولين عنه أمام محكمة جنايات المنيا عن امتحانات الثانوية العامة، وأقل منه - وبلا تزوير أو إنتحال صفة - عوقب عنه وكيل إحدى كلياتنا العلمية الكبرى بالسجن خمس سنوات !

ما لا يدركه خط الدفاع المختار الذى خلط بين درء التهمة بالحجج والأسانيد، وبين وهم التخلص منها بالرجم والتجديف، أو إنكار ما لا مجال لإنكاره أو المخادعة فيه - لا يدرك أن للإثبات الجنائي طرقاً ووسائل متعددة لا تقتصر أو تتوقف على الاعتراف أو الإقرار. يعرف تلامذة القانون أنه إلى جوار الاعتراف والبيئة والدليل الفنى، يوجد أيضاً الإثبات بالقرائن والاستدلالات، وأن القضاء المصرى واجه إنكار وإحجام الفاعل الأصلي عن ذكر الحقيقة والكشف عن شركائه، بإجازه إثبات الاشتراك بكافة طرق الإثبات بما فيها الاستدلال والقرائن، وعلى ذلك جرت أحكام محكمة النقض فى تواتر يعرفه أبسط رجال القانون معرفة. أحياناً ما تكون قرائن الإنكار فى غير موضع له، سبيلاً لإثبات أقوى قوامه القرائن والاستدلالات المستمدة من وضوح تهافت الإنكار وفساد المرجم والتجديف فى كل اتجاه !

ولعللى لا أتطفل حين أشير على أطراف الواقعة بالبحث عن صورة أخرى تحترم عقول المتلقين، فضلاً عن عقول سلطات التحقيق ورجال النيابة العامة وقضاء الحكم !

لا مصادرة على حق أحد فى أن يدافع عن نفسه بما شاء، استقام دفاعه أو انحرف أو ضعف أو شذ، فهذا شأنه، بل تبيح له المادة ٣٠٩ من قانون العقوبات أن يقذف فى حق الآخرين فى دفاعه عن نفسه، ولكن شريطة أن يكون هذا القذف من مقتضيات الدفاع، وفى إطار الضرورة الداعية إليه. يعرف العاملون بالقانون، وفى مقدمتهم رسل المحاماة حراس العدالة، أن الرجم والتجديف - ناهيك عن البهتان - فى حق فئة جليلة بكاملها - لا يمكن أن يصنف فى باب الدفاع، ناهيك عن الدفاع الذى يبيح السب والقذف فى حق عباد الله !

أكثر من هذا إيجاعاً - أن الاتهام بالتلفيق والتحريض آت ممن ينتسب إلى ذات المهنة المرجومة ظلماً بغير حق ! أجدى من هذا التجديف الواضح البهتان - مواجهة الواقعة مواجهة جادة مستقيمة لا تكرر مشهد الضبط المؤسف للدوبلير ! صعب على المحاماة والمحامين أن يأتيتهم هذا التجديف الظالم باتهام جائر وممن ينتسب إليهم بينما هم رسل الحق وفرسان العدالة !

مخاطر الغش فى تزييف الحاضر وتدمير المستقبل ! (*)

أخطر ما يصيب الأفراد والمجتمعات، أن تقام حياتهم على " الغش ". شيوع الغش معناه أن يعيش الفرد وأن تعيش الجماعة حياة مصطنعة ملفقة مغشوشة لا تطابق الواقع، وأن يكون وراء ستار المسرح واقع آخر يختلف كل الاختلاف عن مشهد المنصة الملفق القائم على " الغش " و " الكذب " و " الخداع " و " الاختيان " !

شئ مدهل ما أصاب المؤسسة التعليمية فى بر مصر ! لاحقتنا الصحف منذ يونيو الماضى بحوادث غش مأساوية، فتنشر الأهرام ٦/١٥ : " اكتشاف ٨ لجان مخصصة لأبناء المسؤولين فى امتحان الثانوية بمستشفى مغاغة. " حيث تبين أن كل الطلاب الذين يؤدون الامتحان فى هذه اللجنة " الخصوصى " - من أبناء المسؤولين بوزارات الداخلية والعدل والصحة. وكتبت الأهرام فى ٦/١٩ : " الثانوية العامة " لا تزال تفجر

نهرًا من الدموع ! المتهمون باعوا الامتحانات بـ ٣٠٠ جنيه لكل ورقة لأبناء أصحاب النفوذ، ثم تورد الأهرام لاحقاً وقائع ضبط الغش بالتليفون المحمول فى لجنة أبو كبير بالشرقية، ووسط أنباء التحقيقات ونقاطر أخبار الغش الجماعى الذى نفشى، حملت صفح ١٠/٢٩ نبأ ضبط محام يؤد الامتحان بكلية الحقوق جامعة بيروت بدلا من الطالب.. وانتحال الصفة فى الامتحانات، ظاهرة دخيلة أكثر شرا وأشد خطرا، فهى تجاوز الغش إلى جنائية التزوير فى المحررات الرسمية، ثم هى تشجيع على شيوع العشر والرديلة، باستئجار وإرشاء من يؤدون الامتحانات بدلا من الطلبة، بيّمت حملت الصحف أنباء إحالة العديدين من أبطال الغش بمحافظة المنيا إلى محكمة الجنايات التى أصدرت أخيرا أحكاما رادعة بلغت السجن المشدد ١٥ عاما، ولم يتوقف نزيف أخبار الغش الجماعى والفردى وتواصلت مع ما يجرى فى المناطق النائية التى لها سوابق فى إيواء اللجان الملاكى. لامتحان أبناء الكبار والأثرياء بعيدا عن العيون !

ومن الظواهر المؤسفة، تجاوز حالات الغش الفردى، إلى آفة أشد تصيب لجانا بكاملها، فتخرج عن حدود الفردية إلى الغش الجماعى الذى يتحول فيه التلاميذ الممتحنون إلى غشاشين فى العلن، ويتحول المراقبون إلى حاميين متسترين فى تبجح على مشهد الغش والغشاشين الذين يتعدون على حق الدولة والمجتمع وحق زملائهم - ويعيثون فى الحياة فسادا يصور الباطل حقا، والبلادة كفاءة، والغش نجاحاً وامتيازاً.

داء الغش الذى استشرى أيضا فى البيسوع والتوريدات، وفى المواصفات والأبنية التى لا تكاد تقام حتى تنهار، يصيب المجتمع كله فى

الصميم، ويهدم أركان حياته، ويقيم ستارا كثيفا من الغش والخداع يخفى وراءه الفساد والاصطناع وتلف العقول والذمم والمقاصد !

الأخطر أنه بدا فى مشاهد الغش المأساوية المتتابة، أن الداء لم يصب الطلاب فقط، أو يتغشى فقط بعض المعلمين الذين استباحوا تسريب وبيع الأسئلة، وإنما بدا فى المشهد أن الآباء وأولياء الأمور طرف أساسى ضالع فى هذه المصيبة، وأن بعض أركان المسؤولية التنفيذية والنقابية - ضاربون جميعا بالدفوف، يرقصون على جثمان التعليم، يستبجحون المؤسسة التعليمية برمتها لتحقيق نجاح ضرير لأولادهم لن ينفعهم فى حياتهم شيئا لأنهم سيتخرجون جهلة غشاشين، لا العلم تعلموه وحصلوه، ولا القيم والأخلاق أدركوها، بل كبروا بعون ومدد وتشجيع آبائهم على الضرب فيها !

أخطر من جنوح الطلاب، تواطؤ الآباء وتشجيعهم أبناءهم على هذا الجنوح الضرير.. يشتررون لهم الامتحانات، أو يوفرون أسباب شراء ذمم المراقبين والبدلاء وبياعى الأسئلة، أو يرتبون الامتحان بالمناطق النائبة بعيدا عن الرقباء، أو يعينون بالمال والنفوذ على ترتيب لجان الغش الجماعية !

أكبر الكوارث أن هؤلاء الآباء وأصحاب النفوذ، قد فارقوا قسيم التعليم ومعنى التربية !.. سحبوا منطق الفهولة والغش والمكر والخديعة إلى ما يظنون أنه تأهيل وإعداد لأبنائهم.. لا يعون أنه إعداد أسود لمستقبل أشد سوادا كله جهالة وظلام وإظلام وخيبة وفشل وإخفاق !

ظنوا أن الشهادة هى التربية وهى التعليم وهى التأهيل وهى القاعدة والأساس.. حل فى نظرهم الضرير الشكل الفارغ الضحل، محل المضمون

الثرى الذى ينير فعلا لا شكلا جنبات العقل وصفحة الوجدان ومملكة الفهم وينمى القدرة الفعلية على العطاء والنجاح.. ظنوا أن " النهب" هو السلاح الأبدى المحصن النافذ بلا عوائق !.. ألم يقلح فيما غنموه من مناصب ونفوذ، وفيما يفرضونه من هيلمان يخضع أو يشتري كل شىء حتى الذم ؟! فلماذا لا يقلح مع بنيتهم ؟! لا يتوقفون ليسألوا أنفسهم ماذا سوف يجرى بنيتهم بعد رحيلهم أو ذهاب سلطانهم ؟! هل ستففعهم الشهادة المضروبة المحصول عليها بالغش والخديعة ؟! إن الآلاف من حملة الشهادات لا يجدون فرصة عمل فى سوق منافسة لا تتفتح فى النهاية إلا لأصحاب الكفاءة، لا المظاهر والأحساب ؟!

نرى فى القرآن الحكيم أن الله تعالى بعث بالأنبياء ليعلموا الناس الكتاب والحكمة، بينما يسعى الغشاشون طلاباً وآباء إلى 'الجهل والجهالة والغش والخداع' !.. نسمع من حديث رسول القرآن عليه السلام : " ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن " .. فلا نجد شيئاً من هذه التربية والأدب الحسن الذى يزرع قيم الصدق والاستقامة، وينهى عن الالتواء والغش والخداع والمكر والتزييف والاعتداء على حقوق الغير بغير حق !

الغش فى التعليم، أشر من تطفيف الموازين أو الغش فى البيوع، بل هو أشر من كل أنواع الكذب والخداع، لأنه يجاوز الضرر الشخصى بالمدلس عليه إلى الضرر الذى يصيب المجتمع كله فى قيمه وفى واقعه وفى بنيانه وفى حاضره وفى مستقبله !

الغش العادى وقتى ينتهى بواقعه والمجنى عليه فيها، بينما الغش فى الامتحان والتعليم ذو أثر مستمر وممدود يجاوز أثره الحاضر إلى

المستقبل.. يدفع إلى مقدمة الصفوف - بغير حق - ببلداء غشاشين كذابين
مخادعين، ويؤخر عنهم المجتهدين الأكفاء الصادقين الأسوياء !

حاصل ذلك اختلال بوصلة التعليم، وفقدان دورها فى فرز
الكفاءات وبناء الأجيال، وهذه كارثة تضرب جوهر التعليم والعدالة وتكافؤ
الفرص فى الصميم، وتصادر حاضر ومستقبل الوطن !

تتفق الأخلاق مع كافة الأديان فى شجب كل صور الغش والتفجير
منه، يجمعها حديث رسول القرآن عليه السلام : " من غشنا فليس منا " ..!
من يتأمل هذا الحديث يلحظ عمومية العبارة التى جاوزت المناسبة إلى
قاعدة عامة تدين كل أنواع الغش بغير تفيد أو تخصيص، وتخرج الغشاش
من الجماعة !

تتفق على هذه الإدانة كل الأديان، شاملة الغش والكذب والسرور،
فيتعدد فى القرآن المجيد أنه لا يوجد أظلم مما يفترى كذبا، ويشهد الله
تعالى بكذب المنافقين (المنافقون ١)، وبأن الكذب والخداع يحق بأهله : "
وإن يك كاذبا فعليه كذبه " (غافر ٢٨).. تتوعده الآيات الحكيمة بعذاب
يخزيه (هود ٩٣)، وتقول : " إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار " (الزمر ٣)..
لماذا ؟ لأن الكاذب يقاوم الهداية ولا يفتح لها قلبه وإنما يناهضها بكل
السبل !.. لذلك نرى فى القرآن الحكيم أنه لا يفترى الكذب إلا الذين لا
يؤمنون بآيات الله، فأولئك هم الكاذبون (النحل ١٠٥).. وتتهى الوصايا العشر
فى العهدين القديم والجديد عن شهادة الزور، وهى مزيج من الكذب
والغش، وفى سفر الأمثال بالعهد القديم : " والشاهد الكاذب يظهر غشا "
(١٢ : ١٧) ! وتصف مزامير داود الغشاش بأن " فمه مملوء لعنة وغشا "
وظلما " (١٠ : ٧)، ويورد سفر الأمثال أن " غباوة الجهال غش " (١٤ : ٨)..

فى الدول المتحضرة يحرم المتهربون من الضرائب والتجنيد
من المناصب العامة، وفى الحديث النبوى الذى مررنا به شىء من ذلك،
فهو يخرج الغشاشين من الجماعة، ويلفت إلى ما فى الغش من أثر
ممدود، ينحر بالسلب فى قيم وبناء المجتمع، ويقضى على بوصلته فى
سواء حياته وفى تصنيف أفرادہ وكفاءاته ويعوق غايته فى إقامة صرح
حياته على الواقع الصحيح الذى لا غش ولا خديعة فيه ! شىوع الغش
تزييف للحاضر، ومصادرة وتدمير للمستقبل !

النقد المباح للأعمال

بلا شتم ولا سباب ! (*)

يبدو برغم تكرار الكتابة عن حدود وضوابط الرأى والنقد، أن هناك من لا يزال يخلط بين السب والشتم، وهو لا يمكن أن يباح، لأنه لا يستهدف غاية إلا الألفاظ والنعوت الجارحة، وبين النقد الموضوعي للأعمال والتصرفات، وهو مباح بل مطلوب لمصلحة المجتمع ما التزم بضوابطه وحدوده وانصرف إلى أعمال وتصرفات الشخصية العامة التي يهم المجتمع أن تخضع قراراتها وتصرفاتها وسلوكها للمتابعة والمراجعة والنقد والتقويم إذا ما جنحت أو حادت عن الحق والواجب والصواب !

لا يزال كثيرون، رغم التشدد بالعبارات الضخمة، أو افتعال المواقف المظهرية الخاوية، يخلطون بين المفاهيم، ويناقضون ما يقولون.. يعيش بعض المتصدين للعمل العام في بر مصر، التفتيز أو النقابى، حالة مؤسفة متردية من " الشيزوفرانيا " أو " الفصام " .. لا يستوعبون أن الموقع يقابله مسئولية، وأن الأداء يستوجب رقابة وحسابا.. لا توجد سلطة بغير مراجعة ونقد وتقويم ومساءلة. ومع ذلك رأينا ونرى من يضيق

صدره ويشتط غضبه وينفلات لسانه ويعتبر المراجعة الموضوعية للوقائع والأعمال سباً وشتماً !!

السب هو إطلاق شتائم ونعوت وألفاظ جارحة خادشة مهينة، دون أن يعنى أو يشتمل على إسناد واقعة معينة تكون محلاً للنقد أو التقويم، بل ينصرف إلى إلصاق العيوب والأوصاف وخدش الشرف أو الاعتبار. هذا السب يختلف كل الاختلاف عن النقد، وهو التناول الموضوعي للوقائع والأعمال، والتعرض لها بالتعليق والبيان والتقويم. هذا النقد ليس شتماً ولا سباً، بل إنه مباح حتى ولو تضمن " الطعن " فى التصرفات والأعمال فى حق الموظف العام أو ذى الصفة النيابية أو المكلف بخدمة عامة أو الشخصية العامة الشاغلة لموقع عام !

ليس شتماً ولا سباً، تناول الوقائع والتصرفات والمخالفات المالية بالبيان والتعقيب، وليس سباً ولا شتماً كشف التصرفات والأعمال التى تهدر المال العام أو تبده أو تضر به عمداً أو إهمالاً. تناول مثل هذه الأعمال والتصرفات، وكشف جوانبها، ووجه الخطأ أو الجنوح أو الانحراف فيها، هو تناول موضوعي لوقائع وسلوكيات يجب تناولها، ولا يجوز لكل معنى بالشأن العام أن يسكت عن بيانها والتعقيب عليها بما تستوجبه المصلحة العامة أو حق المال العام فى صيانتة من التبدد أو الإضرار أو الإهدار !

حرية القول حرية دستورية عامة لجميع المصريين، جاءت فى وثيقة إعلان الدستور، وفى المادة ٤٧ من الدستور التى نصت على أن : " حرية الرأى مكفولة ولكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره فى حدود القانون، والنقد الذاتى والنقد البناء ضمان لسلامة البناء الوطنى ' .

لا شك أن القانون يحمى شرف كل شخص واعتباره، يحميه حماية عامة لا يلاحظ فيها المنزلة الخاصة التي يعتقد الشخص أنه جدير بها، ... حقاً كان اعتقاده أم باطلاً، ولكن القانون لا يحمى الأعمال والتصرفات ! وحرية الرأي، هي بداية هدف حرية القول. وكلمة "الرأى" تحمل هنا على أوسع معانيها، فهي تشمل كل ما يعلمه الفرد ويعتقد صحته أو جديته مما يهم مصلحة عامة، سواء أكان إخباراً عن أمر أو حكماً عقلياً أو شعورياً عليه، فيدخل في باب حرية الرأي المعلومات والأنباء وكذلك تقديرات الفرد للحوادث والأشخاص والأشياء.. سواء أكان أساسها العقل أو كان منبعها التقدير والشعور، فحرية الرأي تشمل الإعراب فيما يتعلق بالمسائل العامة أو التي تهم مصلحة عامة عن المشاعر من غضب وخوف وياس وحزن أو من رضا وأمل وفرح واستحسان، كما تشمل الإعراب عن أية فكرة تنفى خطأ أو تثبت صواباً أو تبين حقيقة أو ترفضها ببرهان عقلى أو علمى.

حرية الرأي فرع على حرية الفكر، وحرية الفكر، هي فى الواقع حرية الفرد فى تقدير ما حوله من أشياء ونظم وأشخاص، أى حريته فى أن يعطيها علنا القيمة التي يعتقد أنها تستحقها إيجابية أو سلبية وفقاً لمثلثه وعقائده.

وحرية النقد العام - تتوجه بصفة أساسية إلى الشخص العام، وبصفة عرضية إلى الموظفين العموميين ومن فى حكمهم من شاغلى المواقع التنفيذية أو النقابية أو المناصب العامة، ويكفى لكى يكون الشخص شخصية عامة أن يكون متعرضاً للأدوار العامة.

وإذا كان الأصل أن الأداء والعمل والسلوك العام هو قبلة النقد العام، إلا أنه يحدث أحياناً أن تؤثر ظروف الحياة الخاصة للشخصية العامة على عمله تأثيراً مباشراً، عندئذ يحق لحرية الفكر والقول أن تعالج هذه الظروف وتكشفها وتهاجمها !

و " حق النقد " هو لب جوهر حرية القول والفكر أصلاً.. وهو يختلف عن حسن النية المبرئ من المسؤولية الجنائية.. فالحديث عن حُسن النية يفترض وجود سب أو قذف أو إهانة فيشفع حُسن نية المتهم في تبرئته من جريرتها، أما النقد فهو ممارسة لحق مباح أصلاً بفعل لا يتجه أساساً إلى القذف أو السب أو الإهانة ولا يقصد منه التشهير والمساس بشرف الغير أو اعتباره أو سمعته، وإنما يتجه أساساً إلى النعى على تصرفه وعمله بغير أن يكون مقصوداً فيه التشهير.

فالنقد هو حكم على واقعة ثابتة أو مسلمة أو غير منكورة، لأن الواقعة متى أصبحت مشهورة معلومة وكانت متعلقة بشأن عام أو مصلحة عامة فقد صارت في حوزة الجمهور - وأصبح من حقه أن يتدارسها ويقبلها على جميع وجوها ويستخلص كل النتائج التي يمكن أن تنتج من بحثها والمناقشة فيها علناً.

والنقد رأى وتعليق هو بطبيعة الحال في غير صالح المنقود، وحق النقد - ضايق المنقود أو لم يضايقه - يخول الناقد أن يبدي رأيه في تصرف الشخص الذي ينقده أو في سلوكه أو في خلقه كما يظهر من تصرفه، فيستطيع أن يعيب التصرف كما يستطيع أن يستنتج من عيب التصرف عيباً في سلوك صاحبه أو خلقه، وهذا كله مباح بل مطلوب ما دام في الإطار الذي ذكرناه.

الذى ينال شرف التمثيل العام، أو يتبوأ الموقع التنفيذى أو النقابى العام، لا يتصرف فيما يجريه ويفعله فى شأن خاص به لا يجوز تناوله، وإنما هو يُعمل قراراته وتصرفاته وأعماله فى شئون عامة تهم المجتمع بعامة، وتهم من باب أولى أهل الدار، الذى تبوأ فيه هذا الموقع أو أعطى حق التمثيل والتصرف فى شئونه !

لا أفهم كيف لا يعى صاحب الموقع العام، أنه مسئول ومراقب ومراجع فى شأن ما يجريه، وأن تناول الوقائع الصادرة عنه - ليس شتمًا ولا سبًا، وإنما هو مراجعة واجبة وحساب أوجب لما صدر عنه !

هذا هو حكم المنطق، والواقع، والقانون. التفريط فى تناوله وكشفه، تفريط فى حق مصر فضلاً عن حق الدار التى وقع فيها الجنوح وحدثت المخالفات والإهدار والإضرار بالمصالح العامة وبالمال العام !

الأستاذ الإمام محمد عبده

عبقريّة الإصلاح فى رحاب القضاء (*)

حين ولد الأستاذ الإمام محمد عبده فى قرية محلة نصر من أعمال مديرية الغربية فى عام ١٨٤٩، لم يكن أحد يعرف أن ميلاده فى هذا الزمن الفقر من موافقات المقادير، ولا كان أحد يمكن أن يتنبأ بأن هذا الوليد سوف يملأ الدنيا ويشغل الناس بعد زمن وجيز، وأنه مقدور أن يحمل شعلة الإصلاح لينشر النور والضياء فى ربوع مصر والشرق بعد ظلام ليل طويل من الجهالة والجمود، ومع ذلك فإن الأستاذ الإمام لم يكن من عظماء الفرصة، وإنما كانت عظمتة مستمدة من " القدرة الخالصة " التى تحمل مقوماتها وتعبّر عن نفسها فى كل وقت وعصر.. نعم كان العصر عصر إظلام يتحرق شوقاً للخروج من متاهات الجهل والجمود، وقبض له فى الأستاذ الإمام وأترابه أن يحملوا شعلة الاستتارة ويقودوا حملة الإصلاح، إلا أن عبقرية محمد عبده الإصلاحية عبقرية عريضة عميقة، لا تتحبس انتظاراً لفرصة تسنح للتعبير عن نفسها، وإنما فى

نسيجها وبصيرتها ما يهيئ لها تهيئة الظروف وتذليل الصعاب وتعبيد الوهاد وخلق فرص التقدم خلقاً قوامه هذه العبقرية الإصلاحية بفطرتها وصفاتها وسجاياها.. كان الأستاذ الإمام أعظم من أنجبته القرية المصرية ونهض برسالة الأزهر في عصره، وكان ينبوع قوة روحانية تطوى عوارض الزمن وصغائر الدنيا، فيما تفيض به من حياة إنسانية متعددة الجوانب، لم تدع مجالاً إلاً لطرقته ببصيرتها المفطورة، ونظرتها العميقة، وعقلانياتها الفياضة التي بعثت الحياة بعثاً جديداً في عصر بأكمله.. من المحال أن نقرأ لأحد من أعلام التنوير من أواخر القرن التاسع عشر وحتى الآن، دون أن نجد الأستاذ الإمام حاضراً في كتاباته، مؤثراً في نسيجه وتكوينه.. عن أثره العميق فيه وفي جيله أشار عميد الأدب العربي خريج الأزهر والجامعة - الدكتور طه حسين في كتابه الأيام، وعن أثره في سنوات التكوين تحدث الأستاذ العقاد حتى قال فيمن تمنى أن يكتب عنهم - إنه لم يتيسر له أن يكتب عن الأستاذ الإمام محمد عبده خليفة الغزالي أحب المفكرين الإسلاميين إليه وأقدرهم تفكيراً على الإطلاق، إلاً بعد أن أجمع أمره على إطراح التردد الطويل الذي يلزمه عند الكتابة عن أحب الشخصيات وأقربهم إليه، وجاهد نفسه للاكتفاء بثلاثمائة صفحة في كتابة ترجمة كانت ألف صفحة دون الكفاية عنده لموضوعها وجلال قدر الأستاذ الإمام وعظمة دوره ورسالته الإصلاحية التي تركت أثراً بالغاً في عصره، شمل من تسامعوا به فضلاً عن تلقوا مباشرة عنه.

كان الأستاذ الإمام مطبوعاً على عبقرية الإصلاح وعبقرية التعليم، مدركا إدراكاً عميقاً أن الإصلاح لا يتأتى إلاً بالتعليم، وأن إنارة العقول لاكتساب القدرة على الفهم واختيار سبل الإصلاح لا تكون إلاً بالتعليم

ودرجة العقل على النظر والتفكير.. هذه العبقرية الإصلاحية يلمسها المتتبع لسيرة الأستاذ الإمام فى كل مجال طرقه أو عرض له، فى الفقه والشرع، وفى التعليم والترشيد، وفى السياسة والوطنية، وفى التربية والاجتماع. وفى الصحافة والكتابة والتأليف، وفى القضاء، وفى الأعمال الخيرية.. لم تفارقه هذه النظرة الإصلاحية قط، حتى عندما دفع به النفى الإجبارى إلى خارج البلاد، فى أعقاب الثورة العرابية، فىأبى أن يفارق بيروت إلا بعد أن أودع آراءه فى إصلاح الأمة الاسلامية بالتعليم والتربية فى رسالتين (لائحتين) أرسل إحداهما إلى شيخ الإسلام بالآستانة، وأرسل الثانية إلى بيروت، يشرح فيهما ما اهتدى إليه أثناء مقامه فى منفاه من وسائل إصلاح البلاد عن طريق التعليم والتربية (١).. هذا النابغة - الريفى الأزهرى - عرف بالسليقة والفطرة، وبالعلم والتأمل والخبرة - بل آمن إيمان الدين المتين أن " التقدم العصرى " رهين بعلوم لنا أهملناها وهجرناها، وعلوم للمعتدين علينا سبقونا إليها ولم نلحقهم فى غير القليل منها، فيقول للناس فى مقال له فى صحيفة الأهرام :

" ليت شعرى إذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم أرضعت ثدى الإسلام وغذيت بلبانه وتربت فى حجره وتقلدت إيوانه منذ زمن يزيد على ألف سنة. فما حالنا بالنسبة إلى علوم مفيدة هى من لوازم حياتنا فى هذه الأزمان.. لابد لنا من اكتسابها وبذل الجهود فى طلبها " . (٢)

* * *

(١) عباس العقاد . الإمام محمد عبده - سلسلة أعلام العرب العدد ١ / ص ١٠٦

(٢) العقاد - المرجع السابق ص ١٨ / ١٩

فى القضاء

أرادوا إبعاده عن السياسة والتعليم
فصار إليه إصلاح القضاء !

من موافقات المقادير، أن تعيين الأستاذ الإمام بالقضاء عام ١٨٨٨، لم يكن خالياً من الغرض، فردت المقادير على المغرضين غرضهم !! كانت عبقرية الإمام الإصلاحية قد أقضت مضاجع، وكانت روحه الوطنية الوثابة قد أفلقت السلطات، فهو مصلح لا يهدأ ولا يدع أحداً يهدأ أو يستقيم، فكانت حوادث الثورة العربية سنة ١٨٨١ التكنئة التى اتخذت ذريعة لنفيه وإبعاده عن البلاد، ولكنه بعد أن أمضى السنوات الثلاث فى الشام التى اختارها مقاماً لنفيه المرهون نهوه بإذن من الخديو، شد الرحال إلى باريس ليلحق بأستاذه جمال الدين الأفغانى، وليصدرا معاً جريدة " العروة الوثقى " التى منعت الحكومة المصرية دخولها للبلاد، وانتهت سنوات النفي والتغريب بعودته إلى مصر سنة ١٨٨٧، فتلاقى توجس السلطات من استئناف نشاطه مع احتياج نظارة الحاقانية إليه فى وظيفة القضاء الذى كان يعاني معاناة مرة وفى حاجة إلى إصلاحه وتطعيمه

بذوى العلم والفقه والكفاءة.. كان أمل الأستاذ الإمام - فيما يبدو - أن يستأنف حين عاد مسيرته الإصلاحية في التعليم، وربما كانت أنسب الأماكن آنذاك لعطائه - معهد دار العلوم الذى يجمع بين ثقافة الأزهر وعلوم العصر الحديث، إلا أن ولاة الأمر أوجسوا - على ما يظهر - من إسناد وظيفة التدريس فى دار العلوم إليه تحسباً لتمكنه واقتداره على بث القوة التى لديه فى نفوس الناشئة من معلمى المستقبل على امتداد السبلاد، فأرادوا من ثم إبعاده عن التعليم، وتلاقى هذه الرغبة مع احتياجات القضاء ونظارة الحفانية إلى وظائف ريم أن يتوفر فى شاغلها العلم بالشريعة والفقه، مع النزاهة والكفاية للحكم الصالح. ولقد أوشك الأستاذ الإمام أن يرفض الوظيفة المختارة له التى رأى أن اختياره لها لم يراع رغبتَه ولا كفايته للإصلاح عن طريق التربية والتعليم، ولأنه - كما قال - " جرب عمله فى التعليم وعلم أنه قد خلق له، وأنه لم يخلق ليقول حكمت على هذا وحكمت لذاك.. " (٣)

وقد قلنا إن تعيين الأستاذ الإمام بالقضاء كان من موافقات المقادير، لأن هذا التعيين - وعلى غير توقع من أرادوا التخلص والإبعاد ! - أضاف إلى كل من القضاء وإلى تاريخ الأستاذ الإمام، أضاف إلى القضاء نضج التجربة التى خاضها الأستاذ الإمام بروحه الوثابة وعلمه العريض وإخلاصه الهائل وعبقريته الإصلاحية، فكان على المنصة مثلاً جديداً لم يسبقه إليه أحد، وكان فى كتابة الأحكام أحد أضلاع استحداث لغة جديدة فى الحثثيات جمعت بين الفقه والشرع والقانون، وبين متانة العبارة وجلاء المعنى والبعد عن التقعر والنطاعة، وأضاف هذا العطاء إلى تاريخ الأستاذ

الإمام صفحات جديدة لم يكن ليسطرها لولا أن أتاحت له فرصة العمل في القضاء الذى تجلت فيه جوانب جديدة فى هذه العبقرية الإصلاحية التى لا يحدها حد، ولا تتطوى فى مجال دون مجال.

شهد النبهاء للأستاذ الإمام أنه كان معلماً فى أحكامه، وأنه كان من لوازمه التأمل والتدبر ومراجعة الفكر قبل أن ينتهى إلى الحكم الذى يقرن النطق به بأداء واجبه فى الإرشاد والتنوير والنصح والتوجيه، حتى ليبذو المحكوم عليه مقتنعاً بما حكم ضده به.

فى القضاء عمل الأستاذ الإمام قاضياً بينها سنة ١٨٨٨، ثم بالمنصورة، ثم نقل منها إلى الزقازيق، ثم رقى إلى الدرجة الأولى بالقاهرة سنة ١٨٩٢، ثم عين مستشاراً فى الاستئناف سنة ١٨٩٥ لسراه عضو اليسار فى دائرة باسيلي بك تادرس سنة ١٨٩٦ وفى دائرة سعد بك زغلول سنة ١٨٩٧، فكانت جهوده آية على إخلاص جدير بالأستاذ الإمام جعله فى المقدمة فى كل ما اضطلع به (٤).

* * *

العالم الجليل لا يترفع عن الاستعداد لولاية القضاء

لم يمارس الأستاذ الإمام وظيفة القضاء ممارسة العاديين أو الأوساط القانعين بأداء المطلوب وكفى، فلم تكن هذه شخصية الأستاذ الإمام، ولا كانت هذه نظرته للحياة التى أدرك أنها كانت بانتظار خطواته الإصلاحية

المخلصة.. قد عرف منذ عین فی القضاء أن قاعدته الشرعية تضعه فی المقدمة فی هذا المضمار بین رجال القضاء، ولكنه نظر فرأى بین القضاة من نالوا بعثات فی باریس، وتخصصوا فی الفقه الفرنسى الذى تعرض له المحاکم فی تطبیق ما نقل عنه أو استمد بعض جذوره منه، وأدرك بطموحه وإیمانه بقيمة المعرفة أنه لا معدى عن الرجوع إلى مصادر هذا الفقه بلغته الأصلية لمن یرید أن یملك زمام الأمر فیه، فبادر الأستاذ الإمام - وهو العالم الجلیل فی مجاله - إلى استحضار ما كان قد ألم به من مبادئ الفرنسية فترة النفي فی باریس بعد أن كان قد بدأ شوطه معها إبان الثورة العرابية وهو فی الرابعة والأربعین، فواصل المجاهدة مع الصبر لیسبر أغوار هذه اللغة لیحسن الإلمام وفهم ما یتعین على القاضی العالم الفقیه أن یلم به لیفهم ولیحكم بالعدل الذى هو مهجة القضاء وغایته.. نسمع إلیه یحكى هذه التجربة فیقول :

" بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عندما كانت سنی أربعاً وأربعین سنة. ولكن میلى إلى تعلم لغة أجنبية ابتداءً فی أثناء الحوادث العرابية فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسیته تقریباً، وعندما سافرت إلى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر.. ولم أتعلم شیئاً من الفرنسية.. أما بعد عودتى من النفي إلى مصر واشتغالى بالقضاء.. خصوصاً فی الجنايات على أصول القوانين الفرنسية وجلوسى بین قضاة یغلب علیهم العلم بتلك القوانين فی لغتها، فقد تقوى عندى الميل إلى تعلم اللغة الفرنسية حتى لا أكون فی معرفة القوانين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء.. فوجدت أستاذاً لا بأس به جاءنى حاملاً کتاب نحو فی یده (جرامیر) فسألته ما هذا ؟ فقال کتاب نحو فقلت له " لا وقت عندى لأن ابنتى، وإنما عندى

زمن لأن أنتهى " ثم ناولته قصة من تأليف " إسكندر ديماس " وقلت له :
 أنا أقرأ وأنت تصلح.. سافرت بعد ذلك إلى فرنسا وسويسرا عدة
 مسرات فى أيام العطلة، وكنت أحضر دروس العطلة فى كلية جنيف "
 (٥) .. ثم أضاف يقول : " ثم إن الذى زادنى تعلقاً بتعلم لغة أجنبية هو أنى
 وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أنه على شىء من العلم يتمكن به من
 خدمة أمته ويقدر على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى إلا إذا كان يعرف
 لغة أوروبية. كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع
 الأوروبيين فى جميع أقطار الأرض؟ وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف
 لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم للخلاص من شر الشرار منهم " ؟!

(٥) يعلق الأستاذ العقاد على هذا المنهج فيقول ص ١١٠ - ١١٢ من كتابه عن الأستاذ الإمام : تأبى ملكسة
 التعليم إذا تمكنت من صاحبها أن تتوارى ولها مندوحة للبروز فى حركة من حركات ذهنه أو شاغل من
 شواغل حياته . فقد كان القاضى التلميذ يتلقى دروسه الأولى فى اللغة الفرنسية وكأنه يُعلم أستاذه فيها
 كيف يعلمه تلك الدروس وكيف يختار له أجزاها وأنفعها لثله، وهذه إلهام البديهة إلى منهج فى تعليم
 اللغات للكبار على الخصوص لم يكن معلوما فى ذلك الحين ولم ينتشر قط فى البلاد الغربية أو الشرقية قبل
 وفاته، ونعني به منهج التعليم الذى أطلقوا عليه بعد ذلك اسم المنهج الكلى أو منهج الابتداء بالكلام
 المحمل والانتفاء إلى التفاصيل المتفرعة عليه، ويؤثر المعلمون على هذا المنهج أن يبدأ قارئ اللغة بقراءة
 الجملة ثم يتعلم تفسيرها بفهم مفرداتها على حدة، ثم يلم بقواعدها الضرورية، أو بأجروميته ونحوها
 صرفها وبلاغتها، من توضيح موقع الكلمة بالنسبة إلى الكلمات الأخرى وإلى التراكيب التى تحتويها
 . جاء المعلم وفى يده كتاب من كتب الأجرومية الأولية، فقال للمعلم : لا وقت عندى للابتداء من
 البداية فلنبداً من حيث ننتهى، وتناول قصة من قصص " إسكندر دوماس " ليقرأ عباراتها ويستمتع
 تصحيح المعلم لنطقه وتفسيره لمعانيها ... قال : أما ما عدا ذلك فهو عملى، والنحو يأتى فى أثناء العمل،
 وعلى هذا المنهج أتم الكتاب وأتبعه بكتابين آخرين، وتعود بعد الدرس أن يطالع ما قرأه على المعلم
 مفرداً بصوت مرتفع لسمع نطقه ويتذكر مواضع خطئه وتصحيح معلمه، واختير فى نفسه نجساح هذا
 المنهج فأوصى به من كان يعرفهم من طلاب اللغة الفرنسية، ومنه استفاد الشاعر " حافظ إبراهيم "
 فولد حسنة فى هذا الباب، كما سمعت منه وهو يتحدثنا عن محاولته الأولى لترجمة كتاب " البؤساء "

لقد صار هذا النظر جزءاً لا يتجزأ من رؤية الأستاذ الإمام لوجوب اتساع دائرة تحصيل العلم في منابعه المختلفة، ترى هذا في تفسيره - رحمة الله - لسورة العصر حين يقول :

" لو قضى الزمان بأن يكون من وسائل التمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واشتغال الناس بالحق عن الباطل، والطيب من الخبيث - أن يضرب الإنسان في الأرض، ويمسحها بالطول والعرض، وأن يتعلم اللغات الأجنبية، ليقف على ما فيها مما ينفعه فيستعمله وما يخشى ضرره على قومه فيدفعه - لوجب على أهل العلم أن يأخذوا من ذلك بما يستطيعون، ولهم في سلف الأمة من القرن الأول إلى نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن الأسوة، وأفضل قدوة ". (٦)

يقول الدكتور عثمان أمين في كتابه عن الأستاذ الإمام من سلسلة أعلام الإسلام :-

" لقد أجمع أصحاب الأستاذ الإمام وخاصته على أنه أتقن اللغة الفرنسية تحديداً وقراءة وفهما على الرغم من قرب عهده بتعلمها. وهذا ما شهد به أخيراً الأستاذ لطفى السيد (باشا) حين ذكر أن الشيخ محمد عبده هو الذى كان يجلو لإخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنسي " تين " : فى كتابه المشهور عن الذهن، ونحن نعلم من جهة أخرى أن الأستاذ الإمام قد أملى فى مرض موته فصلاً بالفرنساوية نشره المسيو دى جرفيل فى كتابه عن مصر الحديثة بعنوان : وصية سياسية للمرحوم المفتى الشيخ محمد عبده، كما نعلم أن الشيخ قد ترجم عن

الفرنساوية كتاب التربية للفيلسوف الإنجليزي " هيربرت سبنسر " ترجمة تدل على تمكنه من تلك اللغة... (٧)

ومن اللافت في شخصية الأستاذ الإمام أنه يقول ويفعل، ولا ينفصم الفعل عنده عن الكلام، فرأيناه في اعداد تقرير إصلاح القضاء الشرعى يجوب البلاد المصرية طولاً وعرضاً، وشمالاً وجنوباً، ولا يجمع المراد في مكتبه أو يطلب الناس للقاءه بمقره، وإنما يطلب المعرفة الحقيقية فى مظانها المختلفة لتجىء تعبيراً عن الواقع الحاصل، فيأتى تقريره شاملاً إلى عمق النظرة - إماماً واسعاً وتشريحاً عريضاً لحقائق الأحوال والمثالب الجارية فى ذلك الأوان.. ورأيناه لا يستنكف من شد الرحال وقطع الأسفار طلباً لتعلم اللغة فى مواطنها، ولا يجد غصاصة وهو الأستاذ الجليل من أن يجلس مجلس التلميذ إلى من يتلقى عنهم لغة لا يعرفها أو لا يجيدها، ثم يخلص فى طلبها حتى بلغ حد الإتقان فيها، وحتى تترجم منها وإليها، وكتب بها بحثاً بالفرنسية نشره " دى جرفيل " فى كتابه : " مصر الحديثة " الصادر سنة ١٩٠٥، والذي فيه - فى هذا البحث - جعل يناقش الفقه المقارن مناقشة العارف الملم بعيوبه ومحاسنه، وليخرج بيزاد معارفه بالفقه الشرعى - بنتيجة يستخلصها بتمكن اقتدار أن شرع الله تبارك وتعالى هو الأحكم ضبطاً وسداداً وهداية ورشاداً من كل ما وضعته أو استنتته قرائح الناس (٨)

* * *

(٧) العقاد المرجع السابق - ص ١١٠/١١١

(٨) عبد الحليم الجندى - المرجع السابق - ص ٥٧/٥٨

الأستاذ الإمام على منصة القضاء

يقولون فى الأمثال التى تجرى مجرى الأوابد بين رجال القضاء والمحاماة، إن المحامى هو مرآة القاضى، لأنه يرى فيه ما لا يستطيع القاضى أن يراه فى نفسه، ويلمس من المحيط الذى يتعامل فيه القاضى ردود أفعال الناس وإحساسهم به.. لذلك لم يكن غريبا أن يتقدم الصفوف يوم الاحتفال بإنشاء محكمة النقض والإبرام عام ١٩٣١ - شيخ المحامين الأستاذ الكبير إبراهيم الهلباوى ليتحدث عن القضاة الراحلين، وليكون أول حديثه عن الأستاذ الإمام محمد عبده.. يذكر للإمام - رحمه الله - أن تربيته كانت أزهرية بحثة تعده لأن يكون من عظماء رجال الدين وأئمة، ولكن ما إن عين الأستاذ الإمام فى يونيو سنة ١٨٨٨م بوظيفته نائب قاض بمحكمة بنها، حتى تكشفت فى الإمام جوانب لم يتوقعها أحد، ولم يدر بخلد أحد أن إمام الدين سوف يكون إماما صاحب مدرسة جديدة فى القضاء.. سبقه إلى منصة القضاء دوره فى رئاسة تحرير الوقائع المصرية الذى استحدث فى تحريرها نشر الأحكام الهامة التى أصدرتها المجالس الملغاة، وقرن النشر بتعقيب عليها بما يقتضيه الحال من نقد أو ملاحظات، فإذا ما شاءت المقادير - أو رغبات إبعاده !! - تعيينه فى القضاء، شفى عن عبقريته الإصلاحية التى لا يحاصرها شيء.. انتقل من قاضى بنها ليكون قاضى المنصورة، ثم نقل فى ٧ يناير ١٨٩٢ م قاضيا من الدرجة الأولى فى محكمة مصر، فاحتك به الأستاذ الهلباوى احتكاك عمل، وعائنه قاضيا فى محكمة عابدين أهم محاكم القاهرة، ويعقب الهلباوى تعقيب خبير شاهد عيان فيقول عن الأستاذ الإمام :

" لا أذكر أن كرسى القضاء فيها جلس عليه رجل كان موضع إعجاب جميع الطبقات من متقاضين ومن صحفيين وسواهم مثل المرحوم الشيخ محمد عبده أولا والمرحوم عبد الخالق ثروت باشا من بعده، فلقد كان الوقار والجلال والهيبة تفيض جميعا فى أفق هذه المحكمة. كان محمد عبده يصدر الحكم ويشفعه أو يسبقه أحيانا بدروس ومواظ يلقاها على المحكوم عليه والجمهور إلقاء يشعر الجماهير والمحكوم عليه نفسه أنهم فى حضرة أب ومصلح كبير. ولقد كنا نتحدث فى مجالسنا بهذا ونعجب لهذه النتائج التى يحصل عليها هذا المعلم المفطور بطبيعته بين سامعيه أو متقاضيه إذ لم يحصل - إلا نادرا - أن عاد إليه متهم أو خصم بمثل ما حكم عليه به من قبل. رقى بعد ذلك نائب مستشار بمحكمة الاستئناف فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩٥ وبقي بها إلى ٥ يونيو سنة ١٨٩٩ يوم اختير مفتيا للديار المصرية مع اشتراطه على الحكومة أنه لو أقيى - بل لو استقال - من تلك الوظيفة كان له أن يعود لمركزه فى محكمة الاستئناف كما كان (٩) "

* * *

لغة وصياغة الأحكام

كانت اللغة العربية مهیضة فى بلادها، تفسح المجال فى المحاكم للإنجليزية والفرنسية والإيطالية والتركية، ويعدو الترك والکرد والشركس والأرناؤوط وأسرى إبراهيم باشا من بلاد " المورة " " وكريت " والأناضول " الذين فك اعتناقهم الإسلام أسرهم - على أهل البلاد،

فصاروا حكاما يترفعون على أهل مصر وعلى لغتها، فتراجعت اللغة العربية فى المرافعات والأحكام، ومن يرجع إلى سجلات وأحكام المحاكم الشرعية فى ذلك الزمان يجد العجب العجائب فى تردى لغة الأحكام ومصطلحاتها وسيادة التركية التى كانت لغة البلاد الرسمية، وتشويه النقل إلى اللغة العربية، مع تواضع وضعف وركاكة كتابة المذكرات والأحكام، ولعل بداية نهضة اللغة العربية فى المحررات القضائية الرسمية يرجع إلى البنائين العظام فى باقة رائعة كان منها الأستاذ شفيق بك منصور وإسماعيل باشا صبرى والأستاذ الإمام محمد عبده وسعد باشا زغلول وأمين باشا فكرى وعبد العزيز باشا فهمى ومحمد باشا فخرى وأحمد فتحى باشا زغلول وقاسم بك أمين ومحمد بك صالح وحفنى بك ناصف وغيرهم.. هؤلاء الذين حملوا الشعلة، وانتقلوا نقلة ملحوظة بأسلوب كتابة الأحكام وتطعيمها بمبادئ الشرع والقانون (١٠).

فى حيثيات حكم للأستاذ الإمام محمد عبده صادر بمحكمة عابدين بالقاهرة فى ٥ أكتوبر ١٨٩٤ كتب يقول :

" من حيث إن الأصل العام الذى أسست عليه جميع أحكام الشرائع فى إلزام شخص بتأدية شئ إلى آخر هو أن يكون الأداء على قدر العرض حاصلاً كان أو مؤملاً فيه عند العقد.. وليس من الجائر أن يؤدى شخص شيئاً لم ينتفع به أو لم يأمل الانتفاع به. لأن هذا هو الظلم بعينه. ولكن ضرورة اتساع المعاملات وضعف الثقة أحياناً بالذمة الواحدة ألجأت إلى ضم ذمة إلى ذمة أخرى فى الالتزام بالأداء وإن لم ينتفع صاحب الأولى بشئ مما يلتزم بأدائه أو أداء عوضه... فاللزام الضامن أمر جاء

على خلاف الأصل وقررت الشرائع باقتضاء الضرورات، فلا يجوز التوسع في القياس لأن ما سوغ بضرورة قدر بقدرها " .

" ومن حيث إن الشرائع الصحيحة قد قسمت الضمان إلى قسمين : كفالة تضامن وكفالة لا تضامن فيها. فالأولى ما التزم فيها الضامن أن يكون بمنزلة المضمون في الالتزام بالأداء في جميع الأحوال بنص في عقد الضمان أو نص في القانون. والثانية ما شرط فيها الالتزام بعجز المضمون أو امتناعه عن الأداء عند وجوبه أو نحو ذلك أو سكنت فيها عن التعميم والتخصيص. وحكم القسم الأول من الكفالة انشغال ذمة الضامن مع المضمون وأن للدائن أن يتبع أيهما يشاء. وكل ما صح إجراؤه مع أحدهما صح إجراؤه مع الآخر وكل عمل رسمي جرى مع أحدهما يعتبر جارياً مع الآخر ولكن لكون هذا الحكم جاء على خلاف الأصل المعقول رأى أهل الشرع وجوب التصريح به. وجرى على ذلك القانون المصري في المادة ١١٠ حيث قال إن مطالبة المدينين المتضامين مطالبة رسمية وإقامة الدعوى عليه بالدين يسريان على باقى المدينين. والكفلاء المتضامنون مع المدين الأصلي يعتبرون مدينين. فالتصريح بأن إقامة الدعوى على أحد المتضامين تسرى على الباقيين تصريح بأنها لا تسرى على غير من أقيمت عليه الدعوى إذا لم يكونوا متضامين.

" ومن حيث إن عقد الكفالة في هذه القضية قد صرح باشتراط تأخير المستأجر عن أداء الإيجار فهي ضمانه لا تضامن فيها فالدعوى التي أقيمت من المالية على المستأجر لا تسرى على المتضامن. فإذا لم تسر عليه لم يوقف بالضرورة مضي المدة التي يسقط الحق بمضيها " .

" ومن حيث إن نظارة المالية متمسكة بالحكم الصادر من محكمة الأربكية وهي إنما تطالب الآن بالمحكوم به في ذلك الحكم..

" ومن حيث إن ذمة الضامن قد اشتغلت بالدين من يوم عجر المستأجر عن الأداء وظهور ذلك لنظارة المالية فيكون الدين قد لزم ذمته في ٥ مارس سنة ١٨٨٨.

" ومن حيث إن صدور الحكم بالمبلغ لا يغير الدين ولا ينقله عن صفته فهو لم يزل إلى الآن أجرة لأن استبدال الدين بغيره مقيد بطرق فصلت في المادة ١٨٧ وليس الحكم من تلك الطرق. على أنه لو فرض أن الدين استبدل بآخر فقد صرحت المادة ١٩٠ مدني بأنه لا يصح في أي حال من الأحوال نقل التأمينات الشخصية كالكفالة والتضامن إلا برضاء الكفلاء والمتضامين.

" ومن حيث إن المادة ٢١١ مدني صريحة في أن ما استحق دفعه سنوياً أو بمواعيد أقل من سنة يسقط حق المطالب به بمضي خمس سنوات " (١١).

وفي حكم آخر صادر عن القسيمين الأستاذ الإمام محمد عبده وسعد زغلول، صيرا أسباب حكم في قضية استئناف عادية إلى أسباب غير عادية، فيلحظ القارئ في كتابتهما للأسباب إخلاص هؤلاء الرواد الأوائل لقضاة مصر وامتيازهم إذا قورنوا بالقضاة الأجانب في المحاكم المختلطة، وكانت دولهم تختار قانونيين عالميين لتمثيلها في القضاء المختلط - وفي الحكم الصادر جلسة ١٩ أكتوبر ١٨٩٧ - وكان الشيخ محمد عبده عضو

(١١) عبد الحليم الجندى - المرجع السابق - حاشية (أ) ص ٥٤/٥٣

اليسار تظهر آثار النحو العربى والفرنسى جميعا وإحاطة الإمام وتلميذه -
والرئيس - بالفقه الفرنسى، وقد جاء بحديثات الحكم : -

" وحيث إنه فيما يتعلق بتطبيق العقوبة فإنه يشترط لوجود
الجنة المدونة فى المادة ٢١٩ - الآن ٢٤١ - جملة شروط منها وجود
الجرح أو الضربات مادياً وأن ينشأ عنها مرض أو عجز أو عن الأشغال
الشخصية أزيد من عشرين يوماً. وحيث إن هذين الشرطين مستفادان
صريحاً من نفس المادة المذكورة. فلزوم وجودهما واجتماعهما وترتب
أحدهما على الآخر مما لا يقبل بحال من الأحوال.

" وحيث إنه ينتج من ذلك حتماً أنه لا يصح اعتبار مجرد الجروح
أو الضربات مرضاً لأن القانون اعتبرهما أمرين مختلفين مستقلين فى
وجودهما واشترط اجتماعهما معاً وأن يكون أحدهما علة ومنشأ للآخر.
" وحيث إن عدم استطاعة الأعمال الشخصية هو المعنى الملحوظ
للقانون من المرض وهو الجهة التى نظر إليها فيه ولذلك عطف عليها
(عجز) الذى هو نص صريح فى هذا المعنى، بياناً له بعبارة أخرى.

" وحيث إن عبارة الطبعة الفرنساوية تشير إلى هذا المراد، لأن
حرف (أو) فى الفرنساوية يأتى لتوضيح معنى سابق بعبارة أخرى ولأن
أداة التنكير لم تتكرر فيها مع كلمة عجز. وهو دليل على أن هذه الكلمات
جاءت توضيحاً لمعنى سابق لا تعبيراً عن معنى جديد وعبارة الطبعة
العربية لا تأبى هذا المعنى. لأن حرف "أو" يصح أن يكون ما بعده بياناً
للمعطوف عليه أو تعميماً لمعناه كما يصح استعماله لأغراض أخرى.

" وحيث إنه يتحصل من ذلك أن قصد القانون من المرض أو العجز يرجع إلى شيء واحد وهو الحرمان من الأعمال الشخصية مدة أزيد من عشرين يوماً وهو المعول عليه في تحقيق الشرط الثاني لتطبيق المادة ٢١٩ عقوبات.

" وحيث إنه في الحقيقة لا يمكن التعويل على غيره في الاستدلال على جسارة الجروح أو الضربات وفي قياس درجة خطورتها لأنه هو الأثر الذي ينتج عنها وحقيقته ليست متنوعة مختلفة بل هي حقيقة واحدة لا تختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ولذلك يتعين أن يكون هو الضابط الوحيد لجسامة هذه الإصابات والقياس الصحيح الذي لا يصح التعويل على غيره في تقدير العقوبة المناسبة لها.

" وحيث إن الأحكام الصادرة من المحاكم الفرنسية في موضوع المادة ٣٠٩ من القانون الفرنسي وهي التي نقلت عنها حرفياً عبارة المادة ٢١٩ صريحة كلها في المعاني التي قدمناها ولم تختلف عنها دلالة وصراحة عبارات مشاهير العلماء الذين شرحوا هذه المادة مثل دالوز وفستن هيلي وبواتار وجاروه وبريانددى شويه. بل كل عباراتهم ناطقة بها كأنها من القضايا البديهية المسلمة التي لا خلاف فيها وإنما اختلفت كلمتهم في تعيين معنى المراد من الحرمان من الأعمال الشخصية..". (١٢).

* * *

همة فى الإصلاح ماضية، رغم الدسائس والمؤامرات !

لم يكن الأستاذ الإمام بياشر مهامه الإصلاحية فى يسر وسهولة، ففضلا عن جمود الجامدين، فإن الدسائس لم تدعه وما يريده من خير لدينه ووطنه.. فلاحقته المؤامرات والدسائس فى تواصل غريب مدهش ومؤسف !.. يروى جانباً من ذلك أحمد شفيق باشا السذى شغل رئاسة السديوان الخديوى لفترات طويلة، وعاصر الأحداث عن قرب فيورد بمذكراته فى أحداث سنة ١٩٠١ (ج ٣، ٣٤ - ٤٠) (١٣) - أن الدسائس قد تكاثرت للنيل من مفتى الديار المصرية الأستاذ الإمام محمد عبده، وأن المؤامرات نجحت فى إيغار صدر الخديوى عباس حلمى الثانى عليه، وأنه سمع الخديوى يتوعد ويلوح بالانتقام منه، وزادت الدسائس حتى استحسن الأستاذ الإمام محمد عبده أن يتقدم باستقالته فلم يقبلها الخديوى - وأن البعض بلغ به الكيد حد تلفيق صورة شمسية للأستاذ الإمام مع بعض نساء الإفرنج وحملوها إلى اللورد كرومر موعزين بوجوب استقالته لأن هذا إضرار بالشيوخ ومنصبه، ولكن الحيلة لم تنطل على اللورد الإنجليزى العجوز، وزاد التلفيق افتضاحاً حين نشرت الصورة (الملفقة) فى بعض الجرائد المشبوهة (حمارة منيتى - البابا جيلو المصرى - الأرنب)، فغضب العقلاء لهذا التجنى السافر المشبوه على مقام الأستاذ الإمام ! وكشف شفيق باشا فى أحداث سنة ١٩٠٦ عن ضيق الخديوى وعدم ارتياحه لتعيين سعد زغلول ناظراً للمعارف بسبب " كثرة اختلاطه " بالأستاذ الإمام محمد عبده وأن الخديوى لم يكن يخفى أن ضيقه له صلة بالأستاذ الإمام حتى بعد وفاته، وبلغ به الأمر أن قال لأحمد فتحى زغلول رئيس

المحكمة المخصوصة لقضية دنشواى : " إننى أنتقد عليك قبل كل شىء
أنك من حزب الشيخ محمد عبده " (١٤) !!!

* * *

الأستاذ الإمام وإصلاح القضاء الشرعى

من ترتيب أو موافقات المقادير، أن تقلّب الأستاذ الإمام فى وظائف
القضاء عدة سنوات قبل أن يوكل إليه دراسة وكتابة تقريره الضافى عن
إصلاح حال القضاء الشرعى فى مصر، فعلى مدار قرابة عشر سنوات
تقلد فيها الأستاذ الإمام عدة مواقع فى القضاء ما بين بنها والزقازيق
والمنصورة والقاهرة، وما بين المحاكم الأهلية الابتدائية ومحكمة الاستئناف
العالى - أضاف الأستاذ الإمام إلى علمه الواسع بعلوم السدين وبالشرعية
الإسلامية، رصيذا عريضا عن أحوال القضاء وشجونه وهمومه ومتاعبه
وقضاياه، فامتزجت لديه منظومة متكاملة نتيج له أن ينظر إلى أحوال
القضاء الشرعى بعين العالم الإسلامى، وفقه الدين، وبعين القاضى الخبير
بأحوال البشر ومسالك ومتاعب الأفضيات وسبل الحكم بالعدل الواجب بين
الناس.

هذه القاعدة المعرفية العريضة التى دانت للأستاذ الإمام، قد التأمّت
بعقريته الإصلاحية، وهمة العالیه وعزمه الذى لا يلين، وإخلاصه العميق
لكل ما خاضه فيه أو اضطلع به، وتقريره الضافى عن إصلاح حال
القضاء الشرعى هو دليل الأدلة على تلاحم هذه الصفات التى أتاحت
لصاحبها هذا الغوص العميق فى أحوال القضاء الشرعى، والاستشراق

النابه المتفطن إلى سبل إصلاحه الواجبة، وفي مقدمتها إنشاء مدرسة للقضاء الشرعى.

كان من رأى الأستاذ الإمام الذى بثه بمقالاته وأحاديثه، إلى جوار تقريره - أن يتلقى طلاب مدرسة القضاء الشرعى - العلوم العصرية، وأن يلموا بها إلى جانب العلوم الدينية، فيتعلمون إلى جوار الفقه والأحكام والمعاملات وآداب الدين - الحساب والتاريخ وتقويم البلدان والمعارف القضائية التى تتعدد منابعها ولا غناء للقاضى الشرعى عنها، وقد استقبلت جريدة الأهرام القاهرية نظر الأستاذ الإمام بالترحيب، فكتبت عام ١٩٠٤ تقول إن إنشاء مدرسة القضاء الشرعى التى يتبناها الإمام تذكر بإنشاء دار العلوم فى عهد على باشا مبارك وما لقيه إدخالها فى أوانه من مقاومة شديدة قبل أن يستبين للمقاومة المتشددة قدر وجلال وفائدة ما أضافته مناهجها إلى الدراسات الدينية التى ظلت محل رعاية واهتمام (١٥)

* * *

تقرير إصلاح القضاء الشرعى

كان الأستاذ الإمام قد أنفق فى مواقع القضاء قرابة عشر سنوات منذ ١٨٨٨ م حين عين فى ٣ يونيه ١٨٩٩ مفتياً للديار المصرية، وعلم خلال تجربته من شجون القضاء ما حرك كل عبقريته الإصلاحية ليسدلى بدلوه فى إصلاح القضاء الشرعى الذى رآه أحوج فروع القضاء إلى الرعاية والإصلاح، فهذا عبقرى إصلاحى لا يهدأ، ولا يدع أحداً يهدأ.. ظنوا حين عينوه فى القضاء أنهم سوف ينحسون الصوت الذى أقض

المضاجع طلبا للإصلاح فى التعليم والسياسة والوطنية، فإذا به يـنـهـج بأسلوبه فى القضاء نهجا لم يسبق إليه أحد، وإذا به يحول منصة الحكم إلى منصة هداية وتقويم وإصلاح وإرشاد، وإذا به وقد عينوه مفتيا للديار المصرية لا يخلد إلى الدار الجليـلة ويدبر منها النظر فى شئون الإقـتـاء، وإنما يبادر إلى وزير الحـقـاقية (العدل الآن) فيثير معه أحوال القضاء الشرعى وليل الجمود والظلام الطويل الذى ران عليه، ويحرك رياح التغيير والإصلاح، ويتخذ من " المبادرة " ما لا يتخذه إلا ذوو العزائم والهمم، ويتخذ فترة الإجازة الصيفية التى يخلد الموظفون فيها إلى الراحة والتـنـعم - فترةً للعمل والمجاهدة والمكابدة، فلا يرتاح له جنب، ويأبى إلا أن يطلب المعرفة الحقيقية الواقعية فى مظانها المختلفة، فيقطع البلاد المصرية طولاً وعرضاً، ويقوم بزيارات " ميدانية " (بلغة عصرنا) إلى المحاكم الشرعية فى ريف مصر وحواضرها، ويقابل العديد من قضائياتها، ويطلع بنفسه على سجلات المحاكم وأقلام الكتاب ومضابطها، ويستخلص من واقع دراسته العريضة العميقة الشاملة - مواطن الداء وأسباب الفساد والركاكة، ويتأمل فيما رأى ليداركه بالعلاج بنظر ثاقب يضمنه تقريراً ضافياً ومطولاً ينبه فيه إلى مواطن العجز والخلل والجمود والتراجع، ويستشرف سبل التغيير والإصلاح والنهوض، ويضع فى مقدمة الحلول المرجوة إنشاء مدرسة القضاء الشرعى التى تبنّاها.

فى مقدمة هذا التقرير المكتوب فى نوفمبر ١٨٩٩م بعد رحلة التفتيش الطويلة التى بدأت فى أول صيف ١٨٩٩م والذى أعاد طبعه السيد

محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار - كتب الأستاذ الإمام يقول لناظر
الحقانية (١٦) :

" علمت عقب تعييني في وظيفة افتاء الديار المصرية أن سأكون
عضوا في اللجنة التي عزمت الحكومة الخديوية أن تكل إليها النظر فيما
يجب إدخاله على المحاكم الشرعية من الإصلاح الشرعي والنظامي،
ترأيت من الواجب عليّ أن أكون على بصيرة من الأمر العظيم الذي
سأدعى إلى البحث فيه، وأنه لا يتم لي ذلك إلا بالاطلاع على ماهو جاز
في هذه المحاكم والبحث في العلل التي عم الكلام فيها وما يجب أن يوضع
لها من الدواء، مع الحرص على قواعد الشرع وأصوله، ومراعاة مصالح
العامة والأخذين بأحكام الشريعة المطهرة في عقائدهم ومعاملاتهم، وإزالة
ما عمت منه شكاوهم مما ينسب إلى عمال المحاكم أو العوائد المتبعة فسي
سير أعمالها، ورأت نظارة الحقانية ما رأيت، فسألتني أن أمرّ على المحاكم
مدة الصيف الماضي وأنظر في أعمالها وأقدم لها نتيجة ما يتيسر لي من
البحث في أحوالها، فطفت على كثير من محاكم الوجه البحري واطلعت
على ما أمكن الاطلاع عليه من سجلات ومضابط ومرافعات وسير فسي
الأعمال، وعرضت ذلك على ما تقرر من أحكام الشريعة الغراء وما
وضع من اللوائح للمحاكم الشرعية، واستخلصت مجموع آراء أقدمها بين
يدي سعادتك، وأرجو أن تكون موضوع نظر يأتي بالفائدة إن شاء الله،
وسألم في تقريرى هذا بأهم ما يجب النظر فيه الآن وأدع ما دون ذلك إلى
المستقبل "

* * *

(١٦) بدار الكعب تحت رقم ٥٤٩٧٤/١ - أيضاً ص ٢١١ بالجلد ٢ من مجموعة الأعمال الكاملة للإمام -
للأستاذ الدكتور محمد عمارة (دار الشروق)

لقد استغرق هذا التقرير، فى طبعة " المنار " المحفوظة بدار الكتب المصرية، ثلاثاً وثمانين صفحة استعرض فيها الأستاذ الإمام أحوال القضاء الشرعى من جميع نواحيه، موضوعاً وشكلاً وإجراءً، فلم يدع جانباً من جوانبه إلا درسه ومحضه وتمعن فيه بوسع علمه وعريض خبرته وثاقب نظره وسدّد رأيه، بدأ تقريره عن الحاجة إلى المحاكم الشرعية ووظائفها، فأوضح أهمية الروابط الأسرية التى تتصدى لها هذه المحاكم، وكيف ودّع أغلب الطبقة الدنيا وغير قليلين من الطبقتين الوسطى والعلوى - عواطف الصهر والقراية، ولجأوا فى علاقاتهم البينية إلى المحاكم الشرعية، ودواعى التوسيع أو التضيق من دوائر اختصاص هذه المحاكم، وما يثار من اختلافات فى النظر فى شأن اللائحة بين النظارة وبعض المشايخ، وشكوى الناس من صعوبة المعاملة مع الكتبة، وطول زمن نظر القضايا، وخفاء طرق المرافعات حتى على العارفين بأحكام الشريعة فضلاً عن سائر الناس، وهوى القاضى أو ضعف يقظته، وشكوى القضاة من رداءة مقامهم والتقتير فى مرتباتهم وشئون نفقاتهم !!!

ولأن الأستاذ الإمام جال وانتقل وجاب الآفاق، وخاض فى الريف والحضر ليرى على الطبيعة، فقد أضناه حال : " أماكن المحاكم "، وكيف خصصت لها أردأ الأمكنة، وفى محلات لا تسع عمالها ودفاترها فضلاً عن إدارة العمل والجلسات فيها، وتواضع المكاتب والأثاثات حتى ليعجز إيجاد المقاعد للقضاة أنفسهم، مدركاً ببصيرته أن مكان الأداء فرع من عناصر القدرة على حسن القيام به، مثله مثل العناصر الإدارية التى تؤثر بالضرورة على " الخدمة القضائية "، فلاحظ الأستاذ الإمام من واقع

الطبيعة والعمل أن " الكتبة " هم أظهر عضو في جسم المحكمة، وعلاقاتهم بالمتخاصمين وغيرهم تتقدم على صلتهم أو تعاملهم مع القاضى، وأن معظم الشكاية إنما تأتى من طائفة الكتبة التى يقترن ضعف معارفهم بزيادة وتقضى دورهم ونفوذهم ! مع ضعف روايتهم وما أسلس إليه ذلك من امتداد أيديهم ومتاجرتهم بأعمالهم، وحتى اختلط الكتبة بأرباب الحاجات اختلاطاً يكاد يستحيل معه الإصلاح الذى يستلزم حسن الانتقاء وشروط التعيين مع وجوب التأهيل ووضع قواعد لترقية وإثابة وزيادة مرتبات الأكفاء فى تدرج محسوب، مع وضع ضوابط بتخصيص " نوافذ " محددة للتعامل مع الجمهور لمحاصرة الاختلاط الذى أفسد أسلوب التعامل بين الكتبة وأرباب الحاجات !

أما القضاة، فقد لاحظ الأستاذ الإمام أن مشكلتهم كبيرة، وأن سوء الحال لا يقتصر على المحاكم الشرعية، وإنما غابت الكفاءة عن كثيرين من القضاة بالمحاكم الأهلية، وحتى تبدت ضلالة علمهم ومعارفهم، وتقضى تواضع المعرفة بين القضاة الشرعيين حتى يلجأ الحاذق منهم إلى تلمس الصلح تجنباً للحكم الذى ينكشف فيه أخطاء القاضى وتتبدى ضحالة الكثرة الذين يعولون فى تطبيق اللوائح على الكتبة المبطلين أصلاً بالجهالة وضيق الأفق وخراب الذمة ! - الأمر الذى يستوجب المزيد من الضوابط لانتخاب القضاة واختيارهم وترقيتهم، وإضافة طائفة من المعارف إلى " شهادة العالمية " الواجب الإبقاء عليها كماهى فى اللائحة، وإنما يجب أن يزداد على ما تقرر فى نيل هذه الشهادة أن يتلقى الطالب كتاباً من كتب الفقه على الطريقة العملية فى أبواب القضاء والمعاملات وأن يمتحن فى الفقه بهذا الاعتبار، وأن تكون له معرفة بالحساب وبالكتابة والتحرير وبنظام

المحاكم الشرعية، وعلم كاف بالآداب الدينية، وشيء من التاريخ وتقويم البلدان مما يزيد الرجل بصيرة في الناس وأحوالهم.. وأن يكون من حسن الخط بحيث يمكن قراءة ما يكتبه، وهذا أمر ميسور متى فرض ذلك على كل من يطلب وظائف القضاء والإفتاء من طلبة الجامع الأزهر وما ألحق به، فإن لم يكن ذلك ممكنا اليوم فليضرب له أجل أربع سنوات لا يقبل بعده في هذه الوظائف إلا من عرف تحصيله لهذه المعارف، وعلى أن تبحث مشيخة الأزهر ومجلس إدارته إن كان لم يوظف في جهة أخرى، ويتم السؤال عنه لدى شيخ علماء جهته إن كان من طلبة غير الجامع الأزهر ولكنه داخل نظامه، وبعد هذا وذلك يعين ويرجى منه الخير لعمله إن شاء الله.. أما اليوم - يضيف الأستاذ الإمام - فيقدم من هو على شيء من هذه المعارف على غيره.. ثم لا يفوت الأستاذ الإمام أن يصرح بما يعالج به تعصب بعض أهل الأثرة لمذاهبهم، وكيف تتحقق المحافظة على قوام الإسلام ودرء البدع والتعصب للمذاهب عنه، وتوسيع دائرة التعيين لاختيار الأصلح والأقدر بغض النظر عن التقيد بمذهب يضيق دائرة الاختيار ويفوت فرصة انتخاب كثيرين من أهل الاستقامة والدراية !

وإنه ليأخذك العجب حين ترى الأستاذ الإمام يعرج في تقريره على " الحجاب، والأعمال الكتابية والدفاتر "، فلا يستتف ولا يجد أى مفارقة - لأن الجميع في خدمة العدالة - من أن يقفى بعد بحث أحوال القضاة، بالتصدي للحجاب والأعمال الكتابية والدفاتر، فينبه إلى أنه ينبغي فى الحجاب أن يكونوا على إمام بالقراءة والكتابة، وعلى مقدرة ما على حفظ النظام فى الجلسات، ثم لا يهمل قطاعا كبيرا من الأعمال الكتابية تتم فى القضاء الشرعى، فيحصى منها العقود والإشهادات وما يتبعها، وينبه إلى

سلبيات شيوخ ألقاظ معينة وأساليب معتلة مكررة تكراراً بارداً يعسر معه الفهم ويسأم الذهن وكيف عمت منه الشكوى حتى من جميع القضاة أنفسهم، وكيف وقر في جهل الكتبة أن تلك الألقاظ والأساليب " السمجة " لابد منها شرعاً ولا يصح العقد أو الإشهاد بدونها، وكيف يؤدي هذا الأسلوب إلى مخاطر ومحاذير تهدد العمل وتقوض الغاية وتضطر الشاهد إلى الكذب باختراع أسماء لمسيرة هذه الأساليب العقيمة وإرضاء جهل الكاتيب والتخلص من حمقه ! ثم لا يفارق الأستاذ الإمام هذه الملاحظات الثاقبة قبل أن يقترح لجنة لتطهير المحاكم من العقم والسخافات التي يتبرأ منها الشرع ولغته، مع وجوب الالتزام بضوابط وقواعد لسرعة إنهاء العمل، والتخفف من دفاتر كثيرة جداً رأى أنها زائدة على الحاجة وتغرق العمل وتكبله في شكليات عقيمة معوقة !

ويتوقف الأستاذ الإمام في تقريره وقفة واعية متفطنة ومدركة، عند العقود التي ترد من المحاكم المختلطة إلى المحاكم الشرعية. فيرى أنها من الأعمال الشاقة التي تستغرق زمناً طويلاً، والتزمت بها الحكومة إعمالاً للمواد ٩٠، ٩١، ٩٢ من لائحة المحاكم الشرعية الصادرة في سنة ١٨٨٠ - وأن المفارقة تبدو في استمرار هذه المشقة بعد انطواء علتها حين أصدرت الإدارة منشورات تمنع إعطاء الصور والشهادات إلا من المحكمة المختلطة التي سجل فيها العقد دون حاجة إلى توسيط المحاكم الشرعية، ومضى ذلك دون أن يفكر أحد في تخفيف عبء لا لزوم له على المحاكم الشرعية، أو أن يرد الأمر كله إلى القضاء الوطني إزاء القضاء المختلط، أو يخلص الأداء من " ازدواجية " لا حكمة لها ولا نفع فيها - أما الدفترخانات فقد أحصى التقرير كيف وجد بها خللاً عظيماً فسي أغلب

محاكم المديرية التي فتش عليها الأستاذ الإمام، وكيف أخذ العمل يفترس ويتدنى ويتباطأ في هذه الدفترخانات حتى مس حاجات ومصالح الناس ! ثم كيف صار قصور " الأعمال الحسابية " وتحصيل الرسوم بأنواعها مجالا للتعقيد ومدخلا للكتابة لفتح أبواب الفساد !

وفى تقريره، يخصص الأستاذ الإمام جانباً يتحدث فيه عن :
وجوب قيد ما يرد إلى القضاة من طلبات " ، وهذا فرع على التفاته المتقطن إلى باب خطير من أبواب الظلم واهدار حقوق الناس، حينما لا يلتزم القاضى بقيد ما يرد أو يقدم إليه من طلبات، فيتخلص منها ويتهرب من القيام بواجبه فيها بإزاحتها على غيره دون تأشيرة تقيده و قيد يراجع فيه -
فاقتراح الأستاذ الإمام وجوب انشاء دفتر يقيد فيه ملخص لكل ما يرد إلى القاضى فى أى شأن من الشئون وما رآه القاضى أو اتخذها فيها حتى تصان حقوق الناس ويغلق باب التهرب بغير ضابط من مهام وواجبات العدالة !

أما تشكيل المحاكم، واختصاصها مادة ومكانا، فيبتدى فيما تناوله التقرير فى هذا الشق - كيف تعانق العلم الشرعى للأستاذ الإمام، مع خبرته التى جمعها من عشرة أعوام أمضاها قاضيا ومستشارا فى القضاء، فهو بلغت الأنظار إلى وجوب اشتراط كفاءة القاضى لعمله، وضبط الألقاب لتتفق مع درجة علم وكفاءة رجل القضاء، فلا يستقيم إلا أن يكون " المستشار " الذى يلجأ إليه - أرقى علما ومكانة ومرتباً عن القاضى اللاجئ إليه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد تفتن إلى خطأ العادة الجارية من قيام القاضى بالنظر فى قضايا سبق للقاضى أن أبدى الرأى فيها، فلاحظ الأستاذ الإمام بحق أن ذهن القاضى سوف يكون مشغولا بسابق ما ارتآه وأبداه، وأن ذلك لا تستقيم معه غاية العدالة، وأن ذلك يستوجب -

فيما نبه إليه - ألا ينظر قاضٍ في أمر سبق أن أفتى أو أبدى رأياً فيه، هذا إلى مخاطر تعدد " المفتين " على مستوى المديريات، مع إمكان الاستعاضة عن تعددهم بتعديل قانون تحقيق الجنايات (الإجراءات الجنائية الآن) لتكون مراجعة أحكام " الإعدام " لمفتى الديار المصرية، وضبط وظيفة الإفتاء المبعثرة في كل المديريات بإنابقتها بعدد أقل بضم المديريات المتجاورة لتتبع مفتياً واحداً تنظيماً للعمل ودرءاً للاختلاف !.. ثم لم يفت الأستاذ الإمام أن التغيب الطارئ لعضو أو آخر من أعضاء محكمة، يعطل سير العمل ونظر القضايا، فاقترح ما حمده سالفاً لسماحة قاضى مصر من قيامه بانتداب من يتم به تشكيل المحكمة العليا إذا غاب لطارئ عضو من أعضائها، وأن دواعى التيسير ومضى العمل إلى غايته تستوجب تعديل المادة التاسعة من اللائحة التى تقصر الانتداب على سعادة ناظر الحقانية، بأن لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة، وإباحة الانتدابات المحلية لتدارك ما قد يعرض من طوارئ وأعذار فى يوم الجلسة.

أما اختصاص المحاكم الشرعية، فقد لاحظ الأستاذ الإمام ما يلتبس على بعض القضاة ويؤدى بهم إلى الحكم بعدم الاختصاص فيما هو متعلق بالمواد الشرعية حين لا يحس القاضى التمييز بين ما هو مدنى محض وما هو مرتبط بمادة شرعية لا يمكن فصله عنها، وهو ما يستوجب - فيما اقترح الأستاذ الإمام - أن ينظر القضاء الشرعى ما اتصل وارتبط بالمادة الشرعية، ثم لمس مسألة أخطأت اللائحة علاجها حين حظرت التيسير الذى كان يعطى الزوجة الحق فى أن ترفع دعوى النفقة أمام المحكمة الواقع فى دائرتها محل إقامتها، وهو نظر صار معمولاً به الآن رعاية

للظروف الاجتماعية بتخفيف المشقة والأعباء على الزوجة المتروكة بلا نفقة .

وفى تفتن ثاقب، توقف الأستاذ الإمام عند عادة سلبية جارية فى سير الخصومة بمرحلة المرافعة هى اشتراط ألا تصدر الأحكام إلا بحضور الخصمين، وما كان يصاحب ذلك من جهود ضائعة ومن حيل عابثة يلجأ إليها طرف الخصومة غير الراغب فى الحكم فى الدعوى بافتعال الأسباب والذرائع - حتى الهروب ! لتفويت فرصة الحضور وصدور الحكم، يساعدهم على ذلك نص عقيم بالمادة/٧٠ من اللائحة لم يكتف بما اكتفت به مجلة " الأحكام العدلية " (العثمانية) فى إعدار الغائب فزادت شروطا فيما عرف بالمناداة وتبديد الجهود فى العثور على " المنادى "، مكنت المتلاعبين من التلاعب وبددت أوقات القضاء وأعاقت صدور أحكام المحاكم وإضاعة حقوق عباد الله.

وفى إيجابية محمودة توقف الأستاذ الإمام عند الغصص التى يتجرعها الناس بجمود الذين يظنون أن الشرع فى المعاملات ألفاظ تحفظ دون رعاية لما أودعته المعانى والمقاصد، ودون نظر إلى ما تتحقق به مصالح الناس وإقامة العدل بينهم، بينما أحكام الشريعة بمذاهبها الأربعة - وكلها مذاهب إسلامية - وافية بسد حاجات طلاب العدل فى كل زمان مع اليسر ورفع الحرج !

حتى فى " الوكالة فى الخصومة " - وهى فى الأصل للتيسير ورفع الحرج، قلبت بحيث ترد على الشرع قصده، فصارت - فيما لاحظ الأستاذ الإمام - باباً للحيل والألاعيب لإطالة أمد التقاضى بالغلو فى الشكليات وقعود القضاة أنفسهم عن التصرف العقلانى الشرعى الواجب إزاء هذه

الحيل الصارخة، ودون أن يجد القضاء إجابة على ما يخالف عقائدهم إلا التذرع بما قيدتهم به المادة / ٢٤ من اللائحة، إلا أنها تعلقة مردودة، يكشف الأستاذ الإمام تهاافتها بحكمة وبصيرة استنادا إلى نص المادة / ٢٥ من ذات اللائحة الذى يتيح لمن لا يريد الانحباس فى الجمود - الأخذ بما ورد بها من أن الإقرار بالكتابة كالإقرار باللسان، وهى توسعة تحاصر الظاهرة المؤسفة الجارية بشأن " التوكيلات فى المخاصمات "، ومن ضروب هذه التوسعة ما ورد بمجلة " الأحكام العدلية " فى باب القضاء بأن الإعلام الشرعى الخالى من شبهة التزوير المستوفى الشرائط يجب العمل به دون حاجة إلى بيّنة.

وينبه الأستاذ الإمام إلى أثر " العادة " التى ألفها الناس وظنوها شريعة، فى هذا الإبعاد عن النظر الصحيح، الأمر الذى يقتضى فيما اقترحه وجوب اعتبار الأوراق الرسمية الخالية من شبهة التزوير من الأدلة الشرعية بلا استثناء.

ومن المهم والواجب أن نتأمل فيما لاحظته الأستاذ الإمام ونبه إليه بشأن " الجلسات " ووجوب التزام الوقار والمهابة اللازمة لها فى مكان وأسلوب عقدها وإجراءاتها - لنعرف الشوط البعيد الذى قطعه هذا المصلح العظيم فى وضع يده على مواطن السداء، واستشراف سبل العلاج. - ولا يفوته وهو يتحدث عن " مجلس القضاء " الذى اهتم به الشرع الإسلامى، أن يشير إلى تعاضم دور بل وسلطة " الكتبة " وبما لا يليق بحرمة وجلال القضاء الإسلامى، والذى يتوجب لإصلاح أحواله القضاء على ما أطلق عليه " العادات المنحطة " المعروفة لنظارة الحقانية بما لا يحتاج إلى مزيد من الإطالة فيها !!

ولأن احترام مواعيد الجلسات، فرع على جلال مجلس القضاء، نرى الأستاذ الإمام يتوقف مطالباً بوجوب احترام هذه المواعيد مهما كلف القضاء أو الإدارة من جهد، وأن تتابع نظارة الحفانية هذه المسألة بما تستوجبه من فرض المواعيد المناسبة تبعاً لفصول السنة، ومتابعة احترامها وتنفيذها والالتزام بها.

ومن الأمراض الشائعة التي توقف عندها تقرير الأستاذ الإمام الانحراف بالشهود وبالشهادة عن مبادئها، مع أن الإسلام قد أتى - قرآن وسنة - بأعظم المبادئ والأصول التي تضمن شروط الشاهد وحسن اختياره وضوابط أدائه الشهادة التي نبه إليها القرآن المجيد في العديد من الآيات البينات، ومع ذلك يقع القضاء الشرعي فيما مسه الأستاذ الإمام - في هذه ما يسمى " شهود المعرفة " ويغالى القضاة في اعتبارها رغم ما هو معلوم لهم من زور شأنها واستئجار المحترفين لها الذين يشهدون بما لا يعرفون تبعاً لما يقال ويدفع لهم !! - فينادى الأستاذ الإمام بوجوب " الإسراع بمحو هذا الحرج الشديد المعطل لسير القضايا الحامل للمتقاضين على التقاط الشهود من الأزقة والشوارع ليشهدوا زوراً بأنسابهم أو بأشخاصهم وهم لا يعرفونهم، فإن في بقاء ذلك إغراء بأقبح الكبائر في نظر الشريعة الإسلامية وهي الشهادة الزور !!!

ومن المؤسف أننا لازلنا للآن، وبعد مرور قرن من زمان، على حالنا الذي انتقده الأستاذ الإمام ونبه إلى عواره وقبحه، ولا زلنا في غياب العقل والمنطق - لا نكتفي في إعلانات الوفاة والوراثة بشهادة الوفاة الرسمية وبشهادات الميلاد الرسمية والبطاقات العائلية والشخصية الرسمية ولا بإجماع الورثة على صدق هذه الشهادات الرسمية، فنرهقهم من أمرهم

عسراً، وندفعهم إلى القبح والخطيئة دفعا، بأن نلزمهم بشاهدين قد يلجأون في تدبيرهما إلى العادة المقرزة الجارية بالنقاط المحترفين المأجورين من على أبواب المحاكم ليشهدوا بما لا معرفة لهم به ؟!!!

ولا يفوت الأستاذ الإمام، وقد امتلك العلم الشرعى، وخبرة القضاء عشر سنوات، أن يقترح " نظاما " للخصومة حتى لا تتكرر التأجيلات في الدعاوى الطويلة بطبيعتها كدعاوى الوقف والاستحقاق فيه وخيانة النظر وما إلى ذلك.

ويتوقف التقرير عند ما أسماه الأستاذ الإمام " تكليف بالتزوير " فى شأن " الشهادات والأدلة "، كالشاهد على خيانة فى وقف يكلف بذكر جميع أعيان الوقف وحدودها وسلسلة المستحقين بل وبالشهادة على أن الواقف وقف كذا وكذا - وهو تكليف بالتزوير قطعاً، لأن الواقف كان فى زمن لا يصل إليه سن الشاهد، وهذا مما لا يجوز، ولا حاجة إلى تكليف الناس بما ليس فى طوقهم، فإن الشهادة بالخيانة - فيما يقول - لا تحتاج إلا إلى العلم بأن هذا وقف ولو بالاطلاع على حجه ثم بموضوع الخيانة لا غير، أما المستحقون فلا معنى لنكرهم بالمرة !! كما أن للقضاة فى الشهادات على الطلاق خلف كثير تأباه الشريعة ويخشى منه على ما أوجبت الشريعة شدة الاحتياط فيه، الأمر الذى يكشف الحال المتردى الذى وصلت إليه الشهادة التى صارت باباً للتجارة والكسب الحرام، وحال الشهود أمام المحاكم بما فى ذلك ما يسمى بشهود " التزكية " الذين يؤتى بهم لتزكية الشهود كالعمدة وشيخ البلد والمأذون ونحو ذلك !

وبعلم العالم، وخبرة القاضى، وعبقريّة الإصلاح - يورد الأستاذ الإمام أن رأى عنده " أن تستخلص أحكام الشهادات فى جميع الأبواب من

كتب الشريعة الغراء، وتودع في كتاب يضم إلى ما يستخلص في الدعوى ليكون العمل عليه ". أما القسم الشرعى الذى يختص بالدعوى والأدلة بتفصيل تام فيجب " أن تنظر فيه لجنة من علماء الشريعة على المذاهب الأربعة لرفع الالتباس واستخلاص الأحكام على وجه يرفع الحرج عن المتقاضين إلى محاكم الشرع الإسلامى الحنيف .

أما " الأحكام " فقد كثر فيها البلاء، وعمت الشكوى، وتباعد ما كان عليه السلف الصالح، مما يوجب الفزع إلى الشريعة الإسلامية المطهرة، وتشكيل لجنة من العلماء ليستخرجوا من الأحكام الشرعية ما فيه شفاء لعل الأمة فى جميع أبواب المعاملات والأحوال الشخصية وبوضع ما يستخرجونه فى كتاب شامل لكل ما تمس إليه الحاجة، ولعل موسوعة الفقه الإسلامى التى يتعاقب صدورها الآن أحد ثمار هذه الدعوة الرشيدة التى أطلقها الأستاذ الإمام من قرن من الزمان.

ثم بعد أن يتوقف الأستاذ الإمام وقفات بصيرة متأملة عند ظاهرة تراخى تنفيذ الأحكام، وقصور التفتيش، ومسالك المحامين أمام المحاكم الشرعية، وتحرير وتوثيق عقد الزواج، وإبداء أوجه العلاج لما شاب ذلك كله من أمراض وسلبيات، يقترح جمع اللوائح المتفرقة والنظر فيها جملة لتوحيد وجمع ما تفرق فى لائحة واحدة لترتيب المحاكم الشرعية، يختم تقريره ببيان أن ما أورده فيه إنما يتعلق بإصلاح المحاكم الشرعية على سبيل الإجمال، أما التفصيل فسيكون بالتدرج أثناء التدارس والمذاكرة والبحث الذى يرجو أن يكون فيه الخير لعامة وخاصة المسلمين.

* * *

إن العارفين المتابعين ليعلمون حق العلم أن الشوط البعيد الذى قطعناه الآن فى إصلاح أحوال القضاء الشرعى إنما يرجع إلى ما تفتن ونبه إليه وإلى سبل علاجه هذا المصلح العظيم.

وبعد

فهذه صفحات موجزة لتاريخ عريض وبصمات فذة لا تزال موروقة حتى الآن، سبق بها الأستاذ الإمام أهل زمانه فى محراب القضاء مثلما سبقهم فى كل مجال خاضه طلباً للإصلاح وإزالة تراكمات الجمود الذى ران، فبث دعوة إصلاحية وقادة لا تزال نغترف من معينها ونجد الفضل فى ينبوع هذه القوة الروحانية والعبقرية الإصلاحية التى طوت عوارض الزمن وصغائر الدنيا وفاضت بعطائها على الإنسانية، أمانة للعقيدة، والدين، والحق، والعقل، والفكر، والخير، والإبداع، والجمال.

من الصعاب تولد القوة (*)

من الملاحظ أن كثيرا من أفاض البشرية كانوا من الأيتام الذين ذاقوا مرارة اليتيم صغارا، وشبوا محرومين من كنف الأب، يصدق ذلك على رسول القرآن صلى الله عليه وسلم الذى قال له ربه : " ألم يجدهك يتيما فأوى " ؟!، ويصدق - وإن اختلفت الصورة والظرف - على السيد المسيح عليه السلام الذى لم يكن له أب بشرى.. وموسى عليه السلام الذى نشأ وشب بعيدا عن أبيه !

على أن هذا ملحوظ أيضا فى تاريخ أفاض من أهل الفكر والعلم والفن والأدب : مكسيم جورجى، وجان جاك روسو، وديكنز، وموباسان، وشارلى شابلىن الذى فقد أباه حيا منفصلا عن الأسرة لا يعاقر إلا الخمر، فعاش شابلىن مع إخوته فى ملجأ لامبث بلندن، ونيتشه الذى فقد أباه فى السابعة، والفيلسوف جورج سانتاينا الذى هجره أبوه وهو فى التاسعة، وبرتراند راسل الذى فقد أمه وهو فى الثانية فأباه وهو فى الثالثة !

ومن أعاجيب سير الأيتام، قصة عبد الرحمن الناصر الأموى الحاكم الأندلسى الشهير، الذى امتد حكمه (٥١) عاما، الذى اتفق

المؤرخون والمفكرون على أنه ألمع أمراء الأندلس، وأنه برغم دماثة أخلاقه ورهافة حسه ورقة حاشيته، اجتاز وعبر بسفينة الحكم كل الأنواء والأعاصير طوال هذه الحقبة بما تميز به من ذكاء لامع واتساع أفق وبصيرة نفاذة وعزم ناهض وموهبة ناضجة وعبقريّة فذة. عبر عبد الرحمن الناصر عن الولاية التي أتته في أحلك الظروف بمقطوعة مطلعها : كم مقيم فازت يداه بغنم : لم تنله بالركض كف مغير !، فقد تيم بعد ثلاثة أسابيع من مولده بقتل أبيه الذي كان ولياً لعهد جده في ظروف غامضة، فولدت المحنة في اليتيم طاقات جعلته الأملح والأرجح والأقرب إلى جده الأكبر الذي عهد إليه بالحكم مؤثراً إياه على جميع أعمامه، وكان حكمه الذي امتد نصف قرن من أزهى عهود الأندلس الإسلامية !

وأبو حيان التوحيدي الذي حرم في طفولته من كل عطف وحنان - واتسمت حياته منذ بدايتها بطابع القمع والحرمان، ولم يرد في مؤلفاته العديدة أي ذكر لأبيه مما يؤكد أنه عاش طفولته بلا أب، حياً كان أو ميتاً..! الإمام مالك نشأ كاليتيم لوالد مقعد لا يقدر على شيء إلا صنع النبال.. الإمام الشافعي فقد أباه وهو دون الثانية، فحملته أمه رضيعاً إلى مكة ليعيش في أكناف الأقارب، ومع ذلك نبغ والإمام مالك وملاً الدنيا علماً وفقهاً وفضلاً، وصار كل منهما إماماً لمذهب فقهي إسلامي كبير.. كسنان الإمام أحمد بن حنبل اليتيم الذي فقد أباه وهو طفل صغير، ولا يتذكر أنه رآه !

وأحمد شوقي أمير الشعراء الذي أخذ طفلاً من بيت أبيه إلى كفالة جدته التي رعته وربته بعيداً عن كنف الأب.. وحافظ إبراهيم شاعر النيل الذي توفي أبوه وهو دون الرابعة فنشأ يتيماً في كفالة خاله.. والعبقري سيد

درويش الذى عاش طفولة قلقلة وفقد أباه وهو دون السابعة، ومع ذلك تفجر عبقرية وصار رائد النهضة الموسيقية العربية فى العصر الحديث !
وأرسطو الذى وإن كان أبوه طبيباً فى بلاط الملك أمينتاس ملك مقدونيا وجد الإسكندر الأكبر، إلا أنه فقدوه وهو صغير، وديكارت (١٦٥٠/١٥٨٦) الذى فقد أمه بعد أيام من ميلاده، وتركه أبوه لمربية ثم ألحقه فى الثامنة بمدرسة اليسوعيين، ولم يعد يراه أو يحفل به، وعانى مع اليتيم مرض السل !

ووليم شكسبير.. عاش عيشة الأيتام، بل واضطلع بأعباء الرجال وأبوه حى أصابه من العسر والعجز ما جعل شكسبير مسئولاً عن الأسرة وهو لا يزال فى الثانية عشرة.

ربما كانت حالة جورج برنارد شو مع أبيه، من الحالات الدالة على أثر الصعوبات والمحن، برغم حياة الأب، فى عجم عود الابن الذى يتحمل المسؤولية صغيراً لتوارى أى دور فاعل أو مؤثر للأب. كان والد جورج من فقراء أبناء النبلاء، عمل فى مصنع حديد، ثم فى وظيفة متواضعة باع معاشها بعد إلغائها وشارك فى متجر أفلس، ولم يواظب إلا على معاقرة الخمر، والتشاغل باللهو عن الاهتمام بالجد، والإغراق فى التهرب من الهموم والمسؤوليات، ولم يتعهد جورج الابن إلا عمه الوحيد الذى أتم تعليمه، ومع هذا كله فقد اكتسب جورج برنارد شو من عيوب ومثالب أبيه قوة، فحرم على نفسه المسكرات اتعاضاً بما رآه فى أبيه السكير، وظل حياته يعافها ويزرى بها !

تحت عنوان " أستاذ الشعراء يتيم "، يتحدث كامل الشناوى عن إسماعيل صبرى باشا الشاعر القانونى الأديب الذى كان أبوه من غمار

الناس، فى وقت كان الناس فيه يفخرون بأبائهم.. نشأ يتيماً لم ير أباه، ولكنه شق حياته بصبر وجلد فنال أعلى الشهادات وتقلد أعلى المناصب وتبوأ مكانة سامقة فى الشعر.. نشأ فقيراً بلا أب فجعل الإنسانية أسرته !

لماذا اختفى الأب أو ظهر ظهوراً سلبياً فى سير الأنبياء، النبى إما يتيم فقد الأب أو حرم فى ميلاده منه، أو هو نقيض مناقض لأبيه كما رأينا فى سيرة إبراهيم الخليل أبو الأنبياء الذى حاربه أبوه إلى حد إلقائه فى النار ! لم تشذ عن هذه القاعدة أو الظاهرة سوى نبوة إسماعيل الذبيح وإسحق ابنى إبراهيم، أو سليمان بن داود.. خلاف ذلك نرى اليتيم ظاهرة تكاد تكون عامة بين الأنبياء. بل إن إسماعيل نشأ وشب واستوى رجلاً بعيداً عن أبيه إبراهيم من يوم أن أسكنه طفلاً معه أمه هاجر بواد غير ذى زرع عند موضع بيت الله الحرام !

كنت أحب أن أروى لك صفحات مجيدة رائعة من حياة أيتام، لولا أن قائمة هؤلاء الأيتام الذين ملأوا الدنيا عطاء، بالنبوة أو بالعقرية أو بالإلهام، قائمة لا تنتهى ولا تقع تحت حصر. ما يقبل الحصر هو "التأمل" فى الظاهرة، واستقطار معناها. فى المعنى تكمن الأسباب. يقال فى بعض الأمثال، ولعله مثل صينى : إن ما لا يقتلك يقويك. لماذا ؟ لأن الصعاب والمشاق والأزمات والنكبات تعيد خلق الإنسان، فيولد التحدى الذى يواجهه، والخطر الذى يحدق به، بعثاً حياً لإرادته، ينقلها من محض الرغبة أو المراد أو التمنى إلى قوة مريدة فاعلة، يزيد بها التحدى الذى يحاصرها اشتعلاً وتأججا ومضاء ..! لولا هذه الإرادة التى تخلق خلقاً جديداً وخاصاً مع محنة اليتيم، لكان الانهزام أمام الصعاب المحاصرة هو النتيجة الحتمية، تجاوز هذه الصعاب إلى النمو الشامخ والعطاء الفذ هو آية

على أن الإرادة تنمو مع المحنة والعزم يكبر ويشتد مع التحدى، وأن شينا لا يمكن أن يهزم الإنسان - فرداً فى حياته، أو عضواً فى جماعة أو مجتمع.. إذا استنهض العزم واستنفر الإرادة.

غير اليتّم تتعدد الصور التى تولد من بين الضعف قوة.. حتى العاهات البدنية، على ما تؤدى إليه من ضعف أو إعاقة، لم تحل دون صفحات مجيدة فى التاريخ وفى الفكر والفن والأدب، سطرها ذوو عاهات حتى جرى فى الأمثال أن " كل ذى عاهة جبار ! " .. وجبار هـنـا بمعنى قوى النفس متين الإرادة ماضى العزيمة قادر على أن يحول عاهته إلى مصدر قوة وانطلاق.. فى تاريخ البشرية عظماء ذوو عاهات ومعاقون، ولكنهم صنعوا تاريخاً وسطروا صفحات من المجد وفخار الإنسانية.. رأينا فى مصر والوطن العربى الدكتور طه حسين الذى لم يعقه كف بصره منذ الصغر عن أن يكون فى مقدمة أهل الفكر وعميداً للأدب العربى.. وقيل إن هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسا كان ضريباً، وكذا كان ملتون صاحب الفردوس المفقود، وأبو العلاء المعرى رهين المحبسين وصاحب اللزوميات ولزوم مالا يلزم.. بينما يؤلف بيتهوفن أعظم سيمفونياته بعد أن أصيب بالصمم.. هذه العلل الجسدية التى أصابتهم هى التى فجرت مكامن القوة فى العقل والفكر والخيال، وهيأت لما أنتجه وصاغه وألفه ونظمه هؤلاء الأفاضل !

لا شىء يهزم الإنسان إذا امتلك زمام الإرادة ورعاها بالعزم وشدها عليها بفهم معنى الحياة وكيف يجب للحى أن يدرك نعمتها الربانية عليه، وحق الوفاء بواجباتها عليه ! لا خوف على الإنسان - أى إنسان - مهما أحاط به من صعاب ومشاق وأزمات ما بقى قوة فاعلة مريدة.

كتب وإصدارات المؤلف

- (١) أوراق - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧.
- (٢) من هدى النبوة وفى مدرسة الرسول - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧
- (٣) من هدى القرآن وذلك الكتاب لاربيب فيه - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٨
- (٤) بشاير - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠.
- (٥) باسمك اللهم - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠.
- (٦) بسم الله - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠.
- (٧) نواب القروض - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.
- (٨) يارب - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.
- (٩) قضية النقابيين - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١.
- (١٠) أبو ذر الغفارى - روز اليوسف، هيئة الكتاب - ٢٠٠٢، ٢٠٠٥.
- (١١) قضية الجمارك الكبرى - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٢.
- (١٢) مواقف ومشاهد إسلامية - دار الهلال - ط ٢٠٠٢.
- (١٣) ماذا أقول لكم - دار الشروق - ط أولى ٢٠٠٣.
- (١٤) عالمية الإسلام - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ط ١، ط ٢ - ٢٠٠٣.
- (١٥) إبحار فى هموم الوطن والحياة - دار الشروق - ط ٢٠٠٤.
- (١٦) الإنسان العاقل وزاده الخيال - دار الشروق - ط ٢٠٠٤.
- (١٧) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الأول - روز اليوسف - ط ٢٠٠٣.
- (١٨) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الثانى - روز اليوسف - ط ٢٠٠٣.
- (١٩) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الثالث - روز اليوسف - ط ٢٠٠٤.
- (٢٠) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الرابع - روز اليوسف - ط ٢٠٠٥.
- (٢١) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الخامس - المكتب المصرى الحديث - ط ٢٠٠٦.
- (٢٢) الإنسان والكون والحياة - كتاب الهلال - أكتوبر ٢٠٠٥.
- (٢٣) تأملات غائرة - دار الشروق - ط ٢٠٠٦.
- (٢٤) الأديان والزمن والناس - كتاب الهلال - سبتمبر ٢٠٠٦

- (٢٥) شجون وطنية - المكتب المصرى الحديث - ٢٠٠٦.
- (٢٦) الهجرة إلى الوطن - كتاب الهلال - نوفمبر ٢٠٠٧.
- (٢٧) رسالة المحاماة - دار الشروق - سبتمبر ٢٠٠٨.
- (٢٨) فى الوحدة والجماعة الوطنية - المكتب المصرى الحديث - سبتمبر ٢٠٠٨
- (٢٩) فى رياض الفكر - كتاب الهلال ٢٠٠٨.
- (٣٠) بين شجون الوطن وعطر الأحباب - المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨.
- (٣١) عبقرية إنكار الذات - أبو عبدة بن الجراح — تحت الطبع.

فهرس الكتاب

م	الموضوع	صفحة
١	الإذاعة، وبناء العقل والثقافة والخيال	٥
٢	سعد زغلول نصار : الإذاعة بين فهم الرسالة واقتدار الأداء	١١
٣	سعد زغلول نصار : رسالة الإذاعة، وميلاد التليفزيون	٢٦
٤	سعد زغلول نصار : من إشعاعات رسالة الإذاعة	٣٢
٥	سعد زغلول نصار : رباعية مصرية : فرسان التراب الأسمر	٣٨
٦	سعد زغلول نصار : رسالة الإذاعة والمشروع القومي	٤٤
٧	سعد زغلول نصار : الترجمة بين التتوير والإبداع	٥٠
٨	الأدب والفنون والسير الشعبية والجسور العربية	٥٧
٩	الرياضة المصرية، وأمراض المظهرية	٦٣
١٠	السلوك الآدمي، وأمراض المظهرية	٦٧
١١	لماذا تأكلت الدوائر " الحاضنة "	٧٣
١٢	لا حياة بغير كدح	٧٨
١٣	الإسلام دين حياة لأحياء	٨٣
١٤	بل نور الهداية وسلامة اليقين	٨٩
١٥	الالتفاف بالدين لهدم الدين	٩٧
١٦	الدقة والإتقان مهجة العمل في الإسلام	١٠٥
١٧	هل من تطبيع مع المصريين	١١١
١٨	الدفاع عن النفس وأصل القضية	١٢٥
١٩	اقتصادنا : المخاطر والمحاذير	١٣١

٢٠	فى بریطانيا : سماحة الدين، وتعصب العلمانية	١٣٩
٢١	الإسلام وحملات الإساءة	١٤٥
٢٢	نحن والإسلام وعيون الآخرين	١٦١
٢٣	براءة الأديان من مغالطات التفاسير، وأغراض السياسة	١٦٧
٢٤	بين تفاسير الجد الأعلى والخطاب التوراتى للحفيد الأدنى	١٧٨
٢٥	الإسلام فى كتابات منصفة	١٨٤
٢٦	أصغات فارس بلا فروسية	١٩٦
٢٧	الظاهرة الصوتية وثقافة الهدير	٢٠١
٢٨	الوحدة الوطنية أقوى من الأعاصير	٢٠٨
٢٩	الوحدة الوطنية من ثانى	٢١٥
٣٠	حمار السعدنى بين حمار الحكيم وحмир يحيى حقى	٢٢١
٣١	الدوبلير	٢٣٨
٣٢	دفاع الدوبلير : بين الدرء والرجم والتجديف	٢٤٤
٣٣	مخاطر الغش فى تزييف الحاضر وتدمير المستقبل	٢٥١
٣٤	النقد المباح للأعمال بلا شتم ولا سباب	٢٥٧
٣٥	الأستاذ الإمام محمد عبده عبقرية الإصلاح فى رحاب القضاء	٢٦٢
٣٦	من الصعاب تولد القوة	٢٩٦
٣٧	كتب وإصدارات المؤلف	٣٠١

رقم الإيداع

٢٠٠٨/١٩٤٨٢

التزقيم الدولي I.S.B.N 977-209-178-X